فِي اللَّهَجاتِ العَرَبيّة

تأليف

دكتور ابراهيم أنيس

بكالوريوس .B. A دكتوراه .Ph. D

من جامعة لندن

أستاذ بكلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية

١٩٥٢

ملتزمة الطبع والنشر
لجنة البيان العربي

مطبعة لجنة البيان العربي
٤ شارع مصطفى باشا كامل

مقدمة

الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب للمرة الأولى منذ ست سنوات فجاء بمثابة دعوة إلى البحث فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، بعد أن طال إهمالها وانصرف الباحثون عنها ، وكان بدءاً موفقاً لتلك الرحلة الطويلة الشاقة التى لا بد منها فى مثل هذه الدراسة .

وقد حفزنى على مواصلة الدراسة والبحث فى اللهجات ما لقيه هذا المجهود المتواضع من حماس وتشجيع فى الهيئات العلمية ، وما لمسته من إقبال طلبتى فى كلية دار العلوم على هذه الدراسة القديمة فى مادتها الحديثة فى تصويرها وتفسيرها ، مما جعلنى أستعين بالنابهين منهم على جمع الكثير من شواردها ورواياتها ، فاستطعنا معاً أن نجمع كل الروايات المنسوبة التى وردت فى معجم لسان العرب لابن منظور وفى كتاب المخصص لابن سيده ، ثم بوبناها ونظمناها على ضوء ما درسناه من نظريات صوتية حديثة ، فبدت فى آخر الأمر عملا علمياً ضخما ، نقوم الآن بتهذيبه وتوضيح الغامض منه ، وتحقيق المبتور من أجزائه ، راجين ألا يمر زمن طويل قبل أن تتضح لنا معالم هذه اللهجات فى صورة دقيقة مؤكدة .

ورغم ما بذلناه حتى الآن من جهود مضنية لا نزال بعيدين عن الهدف الذى نتطلع إليه ، ولا تزال بعض نواحى هذه اللهجات العربية القديمة يكتنفها الظلام والغموض ، ولا سبيل لكشف هذا الظلام إلا بعد أن تتم معرفتنا ودراستنا للهجات الحديثة فى الأقطار العربية المختلفة .

ومما يبعث على شحذ الهمم ومتابعة الدراسة فى اللهجات ما اتجه إليـه مجمع فؤاد الأول للغة العربية من تشجيع هذه الدراسة والعمل على النهوض بها ، فقد خصص إحدى لجانه لدراسة اللهجات وضم إليها من أعضائه عدداً من العلماء الأجلاء الأفاضل الذين شرفونى بالانضمام إليهم كخبير لهذه اللجنة .

ولم تقتصر العناية بدراسة اللهجات فى السنوات الأخـيرة على المحدثين من علمائنا أبناء العربية ، بل شملت أيضاً بعض المستشرقين من علماء أوربا . ويكفى هنا أن نشير إلى ذلك المؤلف القيم الذى ظهر فى العام الماضى لأحد المدرسين فى جامعة أكسفورد ، وهو الدكتور « رابين » C. Rabin تحت عنوان :

(Ancient West — Arabian)

وفيه يحاول المؤلف النابه البرهنة على أن غرب الجزيرة العربية قد انتظمته فى العصور الجاهلية لغـة مستقلة فى خصائصها وظواهرها وتطوراتها .

ومهما يكن من الأمر فقد أطلعنا الدكتور « رابين » على مصادر وروايات لم نقف عليها قبل ظهور كتابه ، وكان فى عرضها دقيقاً أميناً ، ممـا يستحق له الإعجاب والتقدير .

ونحن إذ ننشر الطبعة الثانية لـكتاب اللهجات العربية بعد أن نفدت الطبعة الأولى ، نشعر بالاطمئنان على مستقبل هذه الدراسة ، ونرقب فى غبطة وسرور نموها ونهضتها فى السنوات الأخيرة التى زادت فيها معرفتنا بكثير من خصائص اللهجات وتنقلات القبائل وغير ذلك من أمور تـكشفت لنـا بعد غموض ، واتضحت لنا بعد إبهام . وكان من الطبيعى أن يظهر لهذه الدراسات التى قمنا بها خلال السنوات الست الأخيرة أثر كبير فى الطبعة الثانية لهذا الـكتاب ، وأن يكون لها صدى قوى فى بعض مسائله ، مما جعلنا نزيد من الشرح والبيان فى بعض النواحى . ونغير أو نحور من بعض الآراء التى جاءت فى الطبعة الأولى .

وقد راعينا فى كل هذا الاقتصاد الذى تحتمه رغبة الناشرين من ظهور الـكتاب

فى حجم معين ، كما يمليه علينا الحرص على تجنب المسائل التى لم يتم نضجها ، أو التى لم نفرغ من بحثها .

نفع الله بهذا الكتاب الطلاب والدارسين من أبناء العربية ، إنه سميع مجيب الدعاء .

سبتمبر سنة ١٩٥٢ م

ابراهيم أنيس

مقدمة
الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين و بعد :

فقد ترددت زمناً غير قصير قبل أن أقدم على نشر هذا الكتاب الذى يعرض للهجات العربية القديمة ، لأن البحث فى مثل هذا قد يكون من عمل الهيئات العلمية ، ولا يقوم به فرد وحده . وذلك لتشعب الموضوع ، ووعورة الطريق إليه ، وما يحتاج من بحوث مستفيضة قد تنفد أعمار الأفراد دون أن تكمل ، أو يكشف عن كل غوامضها وأسرارها .

ولكنى حين رأيت انصراف أهل العلم فى مصر عن هذه الناحية من البحث اللغوى ، واكتفائهم بترديد بعض الروايات الشائعة فى ثنايا كتب التاريخ والأدب دون فهم لها ، أو نظر فيها ، أو عناية بعرضها عرضاً علمياً صحيحاً مؤسساً على أحدث النظريات التى قررها المحدثون فى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، أقول حين رأيت هذا أقدمت على نشر كتاب به أستحث الهمم على العناية بمثل هذه الدراسة ، راجياً ألا يمر زمن طويل قبل أن نرى بحوثاً جليلة تكشف لنا عن كل أسرار اللهجات العربية .

وتعدّ دراسة اللهجات من أحدث الاتجاهات فى البحوث اللغوية . فلقد نمت هذه الدراسة بالجامعات الأوربيـة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى أصبحت الآن عنصراً هاماً بين الدراسات اللغوية الحديثة ، وأسست لها فى بعض الجامعات الراقية ، فروع خاصة بدراساتها ، تعنى بشرحها ، وتحليل

خصائصها وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتياً يبقى على الزمن .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على المشهور من روايات الأقدمين التى جاءتنا مبتورة حيناً ، وممسوخة حيناً آخر ، لم تراع الدقة فى نقلها ، بل لم تنسب فى غالب الأحيان إلى قبائلها أو بيئاتها . ولست أعرف بين علماء العربية على كثرتهم ، وكثرة ما كتبوه فى كل فرع من فروع اللغة ، من عنى باللهجات فأفرد لها مؤلفاً مستقلا يجمع شتاتها ، ويشرح غامضها ، وإنما هى روايات متناثرة نجدها فى بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ .

وقد ظلت الحال هكذا حتى دوت صيحة المرحوم حفنى ناصف بك ، فى رسالته الصغيرة التى سماها : « مميزات لغات العرب » ، والتى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد بمدينة فينا فى أوائل سنة ١٣٠٤ هجرية ، فكانت الصيحة الأولى ؛ ولكنها لم تحفز الهمم ، ولم تسمع المتصامين عن كل بحث جديد فى اللغة . فها هو ذا قد مضى على نشرها نحو ستين عاماً ، دون أن نسمع لعالم آخر صوتاً ، أو نرى له إنتاجاً فى هذا الشأن الجليل .

وقد كانت هذه الرسالة الصغيرة عمادنا فى كثير مما رويناه هنا ، بعد عرضه عرضاً علمياً مؤسساً على ماتقرره النظريات الحديثة فى دراسة اللهجات . ولعل صيحتى لا تذهب أيضاً هباء ، ولعل جامعاتنا ومعاهدنا العلمية تعنى فيما بعد بهذه الدراسة الجليلة الشأن .

وستظل آراؤنا فى اللهجات القديمة مجال الجدل والنقد ، وأحكامنا عليها أقرب إلى الترجيح منها إلى اليقين ، ما لم تؤسس على أسس علمية صحيحة ، وما لم نتبع الطريق المستقيم فى دراساتها . إذ لا بد لدراسة اللهجات العربية القديمة من الاعتماد على أسس ثلاثة :

أولاها : وأهمها دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة مستفيضة فى كل البيئات العربية . وليس هذا بالأمر الهين ؛ بل ليس هذا من عمل فرد واحد ،

وإنما هو من عمل الهيئات والجماعات ، لأنه يتطلب السفر إلى تلك البيئات ، والإقامة فيها زمناً كافياً لتعرف خصائصها ، وما امتازت به . فهناك لهجات مصرية ، وأخرى عراقيـة ، وثالثة شامية ، ورابعة مغربية ، وأخيراً لهجة بلاد الجزيرة فى عصرنا الحالى . وفى كل بيئة من هذه البيئات لهجات حديثة يتكلم بها الناس ، وهى تشترك فى بعض الصفات ، ولكنها تختلف فى أمور هامة تميز لهجة كل بيئة عن الأخرى ، حتى فى قراءتهم القرآن الكريم قد نلحظ بعض الفروق الصوتية التى تميز المصرى من الشامى ، والشامى من العراقى وهكذا .

وربما كان السر فى تباين هذه اللهجات الحديثة أنها : أولا انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة . فلم تكن القبائل التى نزحت إلى هذه البيئات ذات لهجة واحدة ، بل لقد وفدت إليها فى عهود الغزو الإسلامى و بعده ، ومعها لهجاتها المختلفة ، وأقامت بها وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته فى لهجات التخاطب التى تأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها فى لهجات كلامهم وفى تخاطبهم . هذا رغم أن تلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية ، لغة الأدب والدين التى نزل بها القرآن الكريم ، فكانوا بها يكتبون ويقرأون ، وينظمون الشعر ويخطبون . فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو عنّ لهم من أمور حياتهم ما ليس بذى بال ، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة ، دون حرج أو تردد . فكلامهم فى حياتهم العادية كان يخالف إلى حد كبير لغة الكتابة والأدب التى كانوا يلجأون إليها فى المجال الجدى من القول .

وتلك اللهجات المتباينة التى وفدت من شبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة يتكلم أهلها لغات غير عربية ، منها القبطى والرومانى والفارسى والآرامى والبربرى وغير ذلك من لغات كانت شائعة فى البيئات التى تناولتها الفتوحات الإسلامية . وهنا كان لا بد من صراع بين اللهجات الغازية واللهجات المغزوة أدى فى معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة ، أو القضاء عليها قضاء تاماً .

ولـكنها لم تنزو ، أو لم يقض عليها إلا بعد أن تركت بعض الآثار فى اللهجات الغازية من الناحية الصوتية على الأقل . فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية فى ألسنة المصريين حين تـكلموا اللهجات العربية . و إذا علمنا أن القبطية ظلت يتكلم بها فى بعض النواحى المصرية حتى القرن السابع عشر [١] استطعنا أن ندرك إلى أى مدى يمكن أن تكون لهجاتنا الحديثة قد تأثرت ببعض الآثار القبطية من الناحية الصوتية .

وقد حدث ما يشبه هذا فى البيئة العراقية والشامية والمغربية وهكذا . و إذا أضيف إلى كل هذا أن اللهجات العربية الحديثـة قد تطورت فى بيئاتها المختلفة تطورات مستقلة ، لما أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة فى كل بيئة من تلك البيئات ، ولما طرأ عليها بعد الفتح العربى من ظروف سياسية اختلفت أيضاً فى تلك البيئات ، فهناك آثار فارسية ، وأخرى تركية ، وثالثة أوربية [٢] (فرنسية و إيطالية بل و إنجليزية أيضا) ، إذا تذكرنا كل هذا عرفنا لماذا اختلفت اللهجات العربية الحديثة فى بيئاتها ، ورأينا هذا الاختلاف أمراً طبيعياً .

ومع هذا فقد احتفظت هذه اللهجات الحديثة ببعض الآثار القديمة التى يمـكن أحياناً إرجاعها بسهولة إلى لهجات عربية قديمة ، وأحياناً يصعب هذا إلا بعد بحث دقيق ، ودراسة عميقة .

فمن الممـكن مثلا أن يعزى النطق الخاص بالقاف فى نواحى بنى سويف والفيوم و بعض مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلة الـكبرى والبرلس و بلبيس ، للهجة فى قريش .

ومن الممـكن أيضا أن ننسب إبدال الهمزة عيناً بين سكان البوادى المصرية إلى لهجة تميم .

---

(١) Mallon صفحة ١ .

(٢) ظهر أثر هذه اللغات الأوربية فى المدن الساحلية بصفة خاصة ولا سيما فيما يتعلق باستعارة الـكلمات الأجنبية واستعمالها فى لهجات التخاطب .

ومن الممكن أن ننسب ما نسمعه الآن من بعض أهل الشام والعراق حين يقفون على التاء المربوطة « بالتاء » ، إلى اللهجات اليمنية القديمة أو بعبارة أدق لهجة حمير .

ومن الممكن أن نعزو كسر حرف المضارعة ذلك الأمر الشائع فى معظم اللهجات المصرية ، إلى قبائل مثل بهراء من قضاعة .

ومن الممكن أن ننسب الصيغة العامية « مديون » ، إلى لهجة تميم التى روى عنها مثل هذا .

ومن الممكن أن نعزو ميلنا إلى التسهيل فى الهمزة ، إلى القبائل الحجازية .

ومن الممكن أن ننسب ما هو معروف عن نواحى المحلة الكبرى وما حولها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مديريتى البحيرة و بنى سويف من ميلهم إلى قطع أواخر الكلمات حين الوقوف ، إلى لهجة طيىء التى عرفت بهذا .

ومن الممكن أن ننسب الإمالة المشهورة فى كثير من نواحى الريف المصرى إلى قبائل مثل تميم وأسد .

فنحن نرى من هذا أن كثيراً من الصفات التى نلحظها الآن فى لهجاتنا الحديثة يمكن بعد الدراسة والتمحيص إرجاعها إلى لهجات عربية قديمة .

ولكمال الكشف عن كل أسرار اللهجات الحديثة ، لا بد من دراستها دراسة علمية صحيحة ، وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتياً ، لنعرف أولا ما تتصف به كل لهجة من خصائص . هذا ودراستنا لها يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها ، دون التعرض فى البدء إلى أى نوع من المقارنات ، أو الحكم على أية صلة لها بلهجة قديمة . فإذا فرغنا من الدراسة الوصفية التحليلية لكل لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد خدمنا أغراضا جليلة : منها تسجيل لهجاتنا التى تكوّن مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية ، ومنها إشباع رغبة العلماء منا فى الدراسات الأكاديمية البحتة للهجات الحديثة ،

ثم بعد هذا وفوق هذا تصبح تلك الدراسة نواة أو مادة نستغلها فى دراسة اللهجات العربية القديمة .

ثانيها : دراسة القراءات القرآنيــة دراسة واسعة غير مكتفين فيها بما روى فى بطون الـكتب ؛ بل يجب أن تطبق تلك الروايات على ما نسمعه فعلا من أفواه المجيدين للقراءات فى البيئات العربية المختلفة ، مستخدمين فى دراستنا النظريات الصوتية الحديثــة ، والمقاييس والآلات التى تستخدم فى معامل علم الأصوات .

هذا إلى دراسة القراء وما روى عنهم ، والبيئات التى تأثروا بها أو نشأوا فى كنفها ، وما اختلطوا به من قبائل عربية . ثم نستخرج من هذه الدراسة ما مرجعه فن القراءات ، أو اجتهاد القدماء من القراء ، وما يمـكن أن يعزى إلى لهجة قديمة أبيح القراءة بها ، أو ببعض خصائصها . فقد احتفظت لنا القراءات القرآنية بعناصر هامة مرجعها اختلاف اللهجات العربية القديمة ، ولا بد من نسبتها إلى قبائلها أو بيئاتها .

ثالثها : جمع الروايات المتناثرة فى بطون اللغة والأدب ، مما يمت إلى اللهجات القديمة بصلة ، ثم تمحيصها وتحقيقها وإصـلاح ما فسد منها فى رواية مبتورة ، أو رواية ممسوخة ، سالـكين طريقة تتبع السند التى عنى بهـا علماء الحديث لتمييز الحق من الباطل ، والصحيح من الزائف ، هذا إلى دراسة تاريخية مستفيضة لتنقلات القبائل قبل الإسلام وبعده ، وبيئاتها الاجتماعية فى العصور المختلفة ، وما خالطت من أمم أو شعوب .

نرى من كل ما تقدم أن دراســة اللهجات القديمة ، والـكشف عن أسرارها ، ونسبتها إلى قبائلها ليس بالأمر الهين اليسير . لأنه لابد قبل البدء بها من جمع المادة لها ، وهذا الجمع يتطلب جهوداً عظيمة يجب أن يقوم بها عدد من المشتغلين باللغات .

فإذا جمعت تلك المادة ، بدأنا مرحلة المقارنة ، واستنباط القوانين التى خضعت لها اللهجات العربية فى عصورها الأولى ، وقوانين تطورها بعد الفتح الإسلامى .

ولست أدعى فى كتابى هذا أنى قمت بقسط كبير مما ذكرت ، أو أنى اتبعت الطريق العلمى الدقيق التى يجب اتباعها فى دراسة اللهجات ؛ ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ولعل المستقبل يكفل لنا بمساعدة الهيئات العلمية أن نجند لهذا العمل الضخم جميع المعنيين بمثل هذه الدراسات ، حتى تتم وفق الأصول العلمية الصحيحة .

ابراهيم أنيس

الفصل الأول

— ١ —

اللهجـــة(*)

اللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة . وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات .

وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح على تسميتها باللغة . فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص . فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات ، لكل منها ما يميزها . وجميع هذه اللهجات تشترك فى مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية التى تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات .

وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة « اللغة » حينا ، « وباللحن » حينا آخر . نرى هذا واضحا جليا فى المعاجم العربية القديمة وفى بعض الروايات الأدبية . فيقولون مثلا : الصقر بالصاد من الطيور الجارحة وبالزاى لغة (بضم اللام وكسرها) . وقد يروى لنا أن أعرابيا يقول

(*) « Dialect »

فى معرض الحديث عن مسألة نحوية : « ليس هذا لحنى ولا لحن قومى » .
وكثيراً ما يشير أصحاب المعاجم إلى لغة تميم ولغة طيئ ولغة هذيل ، ولا يريدون بمثل هذا التعبير سوى ما نعنيه نحن الآن بكلمة « اللهجة » .

ويظهر أن العرب القدماء فى العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن « باللغة » إلا بكلمة « اللسان » تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى فى معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية . وقد يستأنس لهذا الرأى بما جاء فى القرآن الكريم من استعمال كلمة « اللسان » وحدها فى معنى اللغة نحو ٨ مرات .

أما الصفات التى تتميز بها اللهجة فتكاد تنحصر فى الأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها . فالذى يفرق بين لهجة وأخرى ، هو بعض الاختلاف الصوتى فى غالب الأحيان . فيروى لنا مثلا أن قبيلة تميم كانوا يقولون فى « فُزْتُ » ، « فزدُ » ، كما كانوا ينطقون بالهمزة عينا . كما يروى أن « الأجلح » وهو الأصلع ينطق بها « الأجله » عند بنى سعد .

وتتميز بيئة اللهجة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها ، صفات اللهجات الأخرى فى اللغة الواحدة . غير أن اللهجة قد تتميز أيضاً بقليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها ، أو معانى بعض الكلمات : فيروى أن بنى أسد كانوا يقولون فى « سكرى » ، سكرانة ، وأن بعضاً من تميم كانوا يقولون « مديون » بدلا من « مدين » . كما تذكر المعاجم أن كلمة « الهِجْرِس » تعنى القرد عند الحجازيين ، وتعنى الثعلب عند تميم . ولكن يجب أن تكون هذه الصفات الخاصة التى مرجعها بنية الكلمات ودلالتها ، من القلة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة على أخواتها ، بعيدة عنها ، عسرة الفهم على أبناء اللهجات الأخرى فى نفس اللغة . لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة ، بعدت باللهجة عن أخواتها ، فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها . ويكفى أن نبحث

فى اللغة العبرية ، شقيقة اللغة العربية عن نظائر للـكلمات العربية الآتية :
[رجل ، فتى ، العم والخال ، الجبل ، البحر ، النجم ، الشجر] . ونحو ذلك من كلمات كثيرة الشيوع فى لغتنا ، حتى ندرك أن كلا من اللغتين الشقيقتين قد استقلت بمجموعة كبيرة جداً من الـكلمات . فإذا أضيف إلى هذا ما اختلفت فيه هاتان اللغتان من حيث صيغ الأفعال وأنواع الجموع وأداة التعريف وغير ذلك من ظواهر لغوية كثيرة ، استطعنا أن ندرك لماذا يعتبرهما اللغويون لغتين مستقلتين .

فلا بد أن تشترك لهجات اللغة الواحدة فى الـكثرة الغالبة من الـكلمات ومعانيها ، وفى معظم الأسس التى تخضع لها بنية الـكلمات ، وفوق هذا وذاك فى تركيب الجمل . فإذا اختلفت معانى معظم كلماتها ، واتخذت أسساً خاصة فى بنيـة كلماتها ، وقواعد خاصة فى تركيب جملها ، لا تسمى حينئذ لهجة ، بل لغة مستقلة ، وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج تجعلها تنتمى إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية .

فالفصيلة اللغوية تتألف من عدة لغات ، ترجع جميعها إلى أرومة واحدة ، وقد احتفظت كل منها بصفات يسهل على اللغوى إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم . والعناصر التى تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هى تلك العناصر التى لا يصيبها إلا قليل من التغير رغم مرور الزمن عليها ، ورغم تطور فروع الفصيلة الواحدة .

وتلك العناصر القديمة تـكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

١ — الضمائر .

٢ — الأعداد .

٣ — أسماء الإشارة والموصول .

٤ — الاشتراك فى معانى نسبة كبيرة من الـكلمات .

٥ — أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ — الاشتراك العام فى كيفية تركيب الجمل .

أما تلك الصفات الصوتية التى تميز اللهجات ، فيمكن أن تلخص فى النقط الآتية :

١ — اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ — اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ — اختلاف فى مقياس بعض أصوات اللين[١] .

٤ — تباين فى النغمة الموسيقية للكلام .

٥ — اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض .

تلك هى أهم الصفات التى نلحظ بعضها أو كلها بين لهجات اللغة الواحدة . وليس من الضرورى أن نجد كل هذه الفروق ممثلة فى لهجات لغة من اللغات ، بل قد نشهد بعضاً منها فقط .

وتتباعد اللهجات أو تتقارب بعضها من بعض ، على قدر اشتمالها على الصفات السابقة ، وعلى قدر شيوع تلك الصفات فيها . فقد يكون للغة الواحدة لهجات متقاربة ، لا يفرق بين لهجة وأخرى منها سوى صفتين أو ثلاث من تلك الصفات . فى حين أن لهجات بعض اللغات متباعدة لا تكاد تستبين للسامعين ، ولا يكاد يفهمها كل الأفراد فى شعب من الشعوب .

ومن العسير أن نضع حداً أدنى للفروق بين لهجات اللغة الواحدة ، متى وجد امتازت لهجة عن أختها ، أو قيل إن هذه لهجة وتلك لهجة أخرى ، وكلاهما فى لغة واحدة . نعم من العسير وضع هذا الحد الأدنى ، لأن عملية النطق ليست إلا نشاطاً عضلياً يختلف أداؤه باختلاف أفراد البيئة اللغوية الواحدة . وقد برهنت

---

(١) أصوات اللين اصطلاح علمى حديث لما يسمى بالحركات طويلها وقصيرها أنظر للمؤلف كتاب « الأصوات اللغوية » صفحة ٣٠ .

التجارب الدقيقة التى قام بها علماء الأصوات اللغوية على أنه لا يكاد يوجد شخصان فى بيئة واحدة ينطقان نطقاً متماثلا تمام التماثل ، بل لا بد أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة . وقد ظهر هذا جلياً حين سجل نطق بعض الأفراد فى البيئة اللغوية الواحدة . بل إن من العلماء من يؤكدون أن المرء نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف فى كل مرة يتكلم فيها ، وإن اشتركت نفس الكلمات فى قوله . وذلك لأن عضلات النطق لا تؤدى عملها بنفس الصورة فى كل مرة . على أن مثل هذه الفروق الدقيقة بين نطق المرء ونفسه فى ظرفين متماثلين ، أو بين أبناء اللهجة الواحدة ، ليست من الأهمية فى الدراسة اللغوية بحيث نعنى بها ، ونحللها ونشرحها . وإنما يكتفى اللغوى عادة بملاحظة تلك الصفات العامة التى تميز لهجة من اللهجات ، والتى يشترك فيها كل أفراد تلك اللهجة ، وهى تلك الصفات التى نراها ممثلة دائماً فى كلامهم ، وتصدر عنهم بالسليقة دون تكلف أو تعمد .

هذا إلى أن الظروف الاجتماعية فى البيئة الواحدة قد تولد أنواعاً من اللهجات الخاصة كتلك التى نراها بين أصحاب حرفة من الحرف أو بين اللصوص وطريدى القانون أو بين طائفة من الناس قد انعزلت عن المجتمع لسبب دينى أو سياسى .

وهكذا لا يكاد ينتهى مثل هذا التشعب فى اللهجات . لهذا يكتفى المحدثون فى غالب الأحيان بالنظر إلى صفات اللهجة العامة ، تلك الصفات التى تنتظم جميع الأفراد فى منطقة جغرافية معينة .

ولهذا كله كان من العسير تحديد الحد الأدنى الذى تتميز به اللهجات ، وإنما يمكن أن يقال إنه متى برزت صفات خاصة ، واتضحت للسامعين ، وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة ، أمكن القول إن هناك لهجة قد نشأت وتميزت ، وتدرس حينئذ على أنها لهجة متميزة . وليس هناك رابط بين اللهجة الواحدة ككتلة متميزة ، وبين سعة بيئتها أو عدد سكانها . فقد تتكون

لهجة مستقلة فى بيئة جغرافية ضيقة قليـلة السكان . غير أننا نلحظ بصفة عامة ، أن اللهجات العربية القديمة كانت منعزلة فى بيئات ضيقة قليلة السكان ، فى حين أن اللهجات الحديثة قد اتسعت رقعتها ، وكثر المتكلمون بها .

فإذا وجد فى بيئة اللهجة الواحدة منطقة صغيرة ذات خصائص متميزة تخالف ما يشيع فى هذه اللهجة من صفات ، كأن نجد قرية تنطق بالقاف نطقاً يشبه الجيم غير المعطشة فى وسط مديرية ينطق فيها بهذه القاف همزة ، سميت مثل هذه القرية جزيرة لغوية Speech - Island . ويعنى اللغوى الحديث بمثل هذه الجزائر اللغوية عناية كبيرة فى دراسة اللهجات ، ويحاول أن يتعرف على تاريخ هذه القرية والسر فى احتفاظها بمثل هذا النطق .

— ٢ —

كيف تتكون اللهجات

هناك عاملان رئيسيان يعزى إليهما تكوّن اللهجات فى العالم وهما :

(ا) الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

(ب) الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات .

وقد شهد التاريخ نشوء عدة لهجات مستقلة للغة الواحدة ، نتيجة أحد هذين العاملين أو كليهما معاً .

فحين نتصور لغة من اللغات قد اتسعت رقعتها ، وفصل بين أجزاء أراضيها عوامل جغرافية ، أو اجتماعية ، نستطيع الحكم على إمكان تشعب هذه اللغة الواحدة إلى لهجات عدة . فقد تفصل جبال أو أنهار أو صحارى أو نحو ذلك ، بين بيئات اللغة الواحدة . ويترتب على هذا الانفصال قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، أو انعزالهم بعضهم عن بعض ، ويتبع هذا أن تتكون مجاميع صغيرة من البيئات اللغوية المنعزلة التى لا تلبث بعد مرور قرن أو قرنين

أن تتطور تطوراً مستقلا ، يباعد بين صفاتها ، ويشعبها إلى لهجات متميزة . إذ لا بد من تطور الكلام وتغيره على مرور الزمن . ولكن الطريق الذى يسلكه الكلام فى هذا التطور يختلف من بيئة إلى أخرى ؛ لأن ظروف الكلام تختلف بين البيئات المنعزلة . ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتخذ الكلام طريقاً واحداً فى تطوره ، وشكلا واحداً فى تغيره ، ولظلت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تتشعب إلى صفات متباينة ، ولكن الواقع المشاهد أن البيئات متى انعزلت اتخذت أشكالا متغايرة فى تطور لهجاتها . فليس للانعزال الجغرافى وحده كل الأثر فى تكوّن اللهجات ؛ بل يجب أن يضم إليه الانعزال الاجتماعى ، واختلاف الظروف الاجتماعية بين البيئات المنعزلة . فمن بين هذه البيئات المنعزلة ما تتخذ فيه العلاقة بين أفراد الأسرة شكلا خاصاً ونظاماً خاصاً . ومنها ما قد تشتهر فيه مهنة خاصة ، أو تتصف بطبيعة خاصة فى تربتها تصلح لنوع خاص من الزراعة أو الصناعة . فأبناء البيئات الزراعية لهم من الظروف الاجتماعية ما يخالف ظروف أبناء البيئات الصناعية أو التجارية .

فتلك الظروف الاجتماعية التى لا تكاد تقع تحت حصر ، هى التى تساعد الانعزال الجغرافى على اختلاف الطريق الذى يسلكه الكلام فى تطوره .

وكما أن هناك اختلافاً بين الظروف الاجتماعية ، فى البيئات المنعزلة من المملكة الواحدة ، هناك عوامل اشتراك بينها جميعاً ، قد ترجع إلى رابطة سياسية أو نعرة قومية ، أو اتجاه خاص فى التفكير . وتلك العوامل المشتركة بين بيئات المملكة الواحدة ، هى التى تحافظ على استمرار نوع من الوحدة بينها ، وتعرقل من ذلك التغير الذى قد يباعد بين بيئاتها . ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال ، هذه تباعد بين اللهجات ، وتلك تقرب بينها . ولكن الغلبة فى جميع الأمثلة التاريخية كانت دائماً لعوامل الانفصال فى آخر الأمر ، فتشعبت اللغات إلى لهجات ، واستقلت اللهجات وتميزت بعضها عن بعض . ولكن كان

لا بد لهذا التشعب من زمن طويل حتى يتحقق وجوده .

وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذى يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات ، تلك اللهجات العربية القديمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام . وأحدث الأمثلة لهذا الانعزال ما حدث للاسبانية والإنجليزية حين انتشر كلاهما فى بقاع بعيدة ، الأولى فى أمريكا الجنوبية ، والثانية فى أمريكا الشمالية . وبدأنا الآن نلحظ فروقاً صوتية بين إسبانية أوربا وإسبانية أمريكا ، وإنجليزية أوربا وإنجليزية أمريكا .

فانتشار اللغة الواحدة فى بيئات منعزلة يكوِّن لهجات لا تلبث أن تستقل وتتميز بصفات خاصة .

أما العامل الرئيسى الثاني لتكوين اللهجات فهو الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات إلى بيئات معمورة . فقد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلم أهلها لغة أخرى ، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة ، وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاما ، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة ، تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك .

وقد حدثنا التاريخ عن أمثلة كثيرة للصراع اللغوى . فقد غزا العرب جهات كثيرة متعددة اللغات واستطاعت اللغة العربية آخر الأمر أن تصرع تلك اللغات فى مهدها ، وأن تحل محلها . فقد تغلبت على الآرامية فى العراق والشام ، وعلى القبطية فى مصر ، والبربرية فى بلاد المغرب ، والفارسية فى بعض بقاع مملكة فارس القديمة .

كما يحدثنا التاريخ أن غزو الرومان لجهات كثيرة فى أوربا ، جعل الرومانية تحل محل عدة لغات كان يتكلم بها فى تلك الجهات .

وقد استعرض المحدثون من علماء اللغات الأمثلة التاريخية للصراع اللغوى

فرأوها أنواعا ، وقد رأوا أن نتيجة الصراع تختلف حسب كل نوع وظروفه :

١ — فهناك غزو كان الغزاة فيه قليلى العدد ، قد اقتصر على جيش قوى كامل العدة ، ظهر تفوقه ساعة القتال ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، وبدأ الغزاة حياة سلمية مع أهل الأرض المغزوة ، ظهرت قلتهم ، وضعف أثرهم ، وبدأ المستوطنون منهم يهجرون لغتهم الأصلية ، متأثرين بلغة البيئة الجديدة . غير أن اللغة المغزوة قد تستعير فى مثل هذه الحالة بعض الكلمات والأساليب من اللغة الغازية ، كتلك التى تعبر عن نظام الحكم ، وأمور الجيش ونحو ذلك . وخير مثل لهذا غزو النورمنديين لإنجلترا فى القرن الحادى عشر ، إذ تغلبت اللغة الإنجليزية على لغة الغزاة بعد زمن مّا ، وقد تركت النورماندية الفرنسية آثاراً ضئيلة باللغة الإنجليزية . ويطول زمن الصراع أو يقصر فى مثل هذه الحالة ، حسب قرب اللغتين الغازية والمغزوة إحداهما من الأخرى ، وعلى قدر اعتزاز الغزاة بموطنهم الأصلى ، وتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم ، ومقدار اختلاطهم بالشعب المغزو .

٢ — وهناك غزو كثر الغزاة فيه ، وتبعه موجات من هجرات لذلك الشعب الغازى ، جاءت بطوائف كثيرة من الناس ، يستعمرون الأرض ، ويشتركون فى مهنها وحرفها ، ويلتمسون الرزق من مواردها ، زراعة أو صناعة ، فلا يدعون مجالا لاجتلاب الخير إلا طرقوه ، ولا مورداً للحصول على نفع إلا أسرعوا إليه .

وفى مثل هذه الحالة نرى الغزاة يكونون الطبقة العليا والوسطى ، فى حين أن من قهروا فى عقر دارهم يكونون الطبقة الدنيا ، تلك الطبقة الضعيفة المقلدة التى تعتز بصفات الغالب ، وبكل ما جاء به ، ومن بين ذلك اللغة . فلا تلبث اللغة المغزوة فى صراعها إلا زمناً قصيراً بعده تنهزم تاركة آثاراً ضئيلة جداً فى اللغة الغازية التى تشيع بين الناس ، وتصبح لغة الخاص والعام . وتكاد تنحصر تلك الآثار التى تخلفها اللغة المغزوة فى صفات صوتية خاصة ، أو بضع كلمات تعبر عن

مهن حقيرة ، أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان أو نبات . وخير مثل لهذا ، غزو الانجلوسا كسون لبلاد الإنجليز قديماً ، ذلك الغزو الذى قضى على اللغة « السلتيه » القديمة التى تركت آثاراً ضئيلة جداً فى اللغة الإنجليزية الغازية .

٣ — أما هجرة شعب إلى أرض معمورة ، دون غزو منظم تقوم به جيوش محاربة ، وإنما الأمر أمر منافسة فى طلب العيش ، فقد حدثت أمثلة له فى العصور التاريخية ، حين هاجر قوم من الساميين إلى بلاد ما بين النهرين ، وكونوا على أنقاض السومريين ، تلك المملكة التى عرفت فيما بعد بمملكة البابليين والأشوريين . وقد قضت هذه الهجرة السامية على اللغة السومرية بعد أن تركت فى اللغة السامية آثاراً ، وأحدثت بها أحداثاً جعلتها تباين أخواتها السامية فى جهات أخرى .

واحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة ، باللغات المغزوة التى تشتمل على لهجات أيضاً ، يولد لنا أنواعاً جديدة من اللهجات . فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة ، نراها قد اتخذت فى مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذى اتخذته فى العراق أو الشام أو بلاد المغرب .

ويمكن أن تعزى تلك المباينة بين اللهجات العربية الحديثة إلى اختلاف لهجات الغزاة من العرب ، وإلى التطور المستقل فى تلك البيئات الجديدة ، وفوق هذا وذاك إلى أثر اللغات الأصلية فى هذه البيئات . فقد تركت القبطية قبل زوالها آثاراً فى العربية المصرية ، كما تركت الآرامية آثاراً مباينة فى عربية بلاد الشام ، وكما تركت البربرية آثاراً أخرى فى عربية بلاد المغرب وهكذا .

من أجل هذا نشهد الآن لهجات متباينة فى البلاد العربية ، ويجب أن نعمل جاهدين على التقريب بينها .

— ٣ —

وحدة النطق فى الأمم العربية

نزحت اللغة العربية من شبه الجزيرة مع الفتوح الإسلامية واستقرت فى بيئات معمورة جديدة كانت آهلة بسكان يتكلمون لغات متباينة – بعضها قريب الشبه بلغة الفاتحين والأخرى لا تكاد تمت إليها بصلة . وبدأ الصراع اللغوى يتخذ صوراً مختلفة فى تلك البيئات المغزوة ، فهو هزيل حيناً وعنيف حيناً آخر ، حتى تم الفتح واستقرت المملكة العربية وكان أن انتظمت اللغة العربية تلك النواحى التى تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية ، والتى تعرف الآن بالأمم العربية الشقيقة .

وقد نزحت اللغة العربية إلى تلك البيئات المتعددة فى صورتين : إحداهما موحدة منسجمة وتلك هى لغة الآثار الأدبية والقرآن الكريم ، تلك اللغة النموذجية التى نمت وازدهرت قبل الإسلام فى بيئة مكة وما حولها ، والأخرى تشتمل على تلك الصفات الكلامية التى امتازت بها لهجات القبائل المتباينة إبان الفتوح الإسلامية .

وقد ظلت اللغة الأدبية موحدة فى البيئات العربية الجديدة زمناً طويلا لم يصبها إلا القليل من التغيير حين استقلت هذه البيئات بعضها عن بعض . ولكنها كانت دائماً مفهومة وفى متناول المثقفين من الناس الذين كانوا ولا يزالون القلة فى تلك الشعوب . كما ظلت الآثار الأدبية القديمة نماذج تحتذى ويعتز بها وتقوم على دراستها والعناية بها تلك القلة من الناس فى جميع عصورنا التاريخية .

ورغم ذلك الاستقلال السياسى الذى أصاب الأمم العربية فى عصور الانحلال ، فقد ظل الاتصال الثقافى وثيقاً ، يكتب المصرى للعراقى كما يكتب

الشامى للمغربى ، فيقرأ بعضهم لبعض و يعجب بعضهم بمؤلفات بعض لأن أداة الكتابة كانت واحدة أو تكاد تكون واحدة ، ومحور الثقافة متحد بين الجميع إذ يجمعهم دين واحد وتقاليد متحدة إلى حد كبير .

وكان المصرى يرحل إلى بيئة بغداد ليقرأ القرآن على قارئ مشهور ، أو ينزح المغربى أو الشامى إلى الديار المصرية ليقرئ بعض الناس ما تيسر من كتاب الله — هذا إلى أن تدوين تلك المؤلفات فى كل نواحى الثقافة قد حدّ من تطور تلك اللغة وتغيرها ، وجعل منها أداة مشتركة بين الشعوب العربية — وقد سلمت من طفرات التطور والتغير لأن الآثار الأدبية التى سجلت بها فى العصور الأولى للاسلام قد ظلت بمثابة الحراس عليها ، إذ اتخذتها كل العصور مثلها العليا ، يهدف إلى احتذائها كل متعلم .

أما لغة الكلام وأحاديث الناس فى شئونهم العامة وأداة التخاطب بينهم فى التافه من القول ، فقد اتخذ صورة خاصة فى كل بيئة من البيئات العربية . فالناس فى أغانيهم وفى أسواقهم و بين المرء وأهله ، وفى الحديث إلى أطفالهم وأجيالهم الناشئة قد اصطنعوا لهجات متباينة ، منها انحدرت تلك اللهجات العربية الحديثة التى نشاهدها الآن فى الأمم العربية ، والتى نلقبها حيناً بالعامية وأخرى بالدارجة ، دون أن نحفل بها أو بدراسة خصائصها ، بل تركناها تنمو فى أفواه الكثرة من الناس وتتطور مع الزمان تطوراً مستقلا فى كل بيئة من البيئات العربية ، حتى أصبحت لغة سليقة يتحدث بها المرء دون شعور بخصائصها .

وليس مما نهدف إليه هنا البحث عن كيف نشأت لهجات الكلام فى البيئات العربية ، وكيف تباينت هذا التباين الذى يباعد بين أبناء ثقافة وتقاليد متحدة الأصول ، بل يكفى أن نشير إلى أن الغزاة من العرب ومن تبعوهم فى الهجرات الكثيرة قد جاءوا بلهجات عربية قديمة اختلفت بعض الاختلاف .

وتلك اللهجات المختلفة هى التى صرعت لغات الكلام فى البيئات الجديدة

وحلت محلها بعد قرن أو قرنين من الزمان ، ولـكن لا فى صورتها الأصلية ، بل فى صورة جديدة من بعض النواحى ، نتيجة صراعها مع تلك اللغات المغزوة التى لم تسلم قيادها إلى اللغة الغازية إلا بعد أن تركت بها بعض الآثار وصبغتها بصبغة خاصة . وقد اختلف الصراع اللغوى شدة وضعفاً فى البيئات المفتوحة ، وحيث كان الصراع هزيلا ضعيفاً شهدنا اللغة العربية أو لهجات الـكلام فيها تخرج من مثل هذا الصراع سالمة لم يمسسها ضر ، وهو ما حدث فى الجهات القريبة من شبه الجزيرة .

أما فيما بعُد من الجهات فقد كان الصراع عنيفاً ، خرجت منه اللغة الغازية مشوهة لا نـكاد نتبين فيها كثيراً من صفاتها الأصلية . هـذا إلى أن الصراع كان بين العربية ولغات متباينة ، ممـا جعل الأثر المتروك فى اللغة الغازية متبايناً أيضاً .

فإذا أضيف إلى هذا أن الأمم العربية قد استقل بعضها عن بعض بعد سقوط الدولة العباسية ، وأن لهجات الـكلام فيها قد أهملت وتركت وشأنها تنمو فى الأفواه وتورث إلى الأجيال الناشئة فى صور جديدة دون حد من هـذا التطور المستقل ، أدركنا السر فيما نشاهده الآن من فروق لغوية بين لهجات الـكلام فى البيئات العربية .

تلك هى الحقيقة التى لا نستطيع أن نفر منها ، بل يجب أن نواجهها فى شجاعة ، وأن نفـكر فى كيف نقرب بين هذه اللهجات حين ينطق أهلوها جميعاً لغة واحدة هى اللغة الفصيحة .

واللغة من أقوى الدعائم على التوثيق بين الأفراد والشعوب ، إن لم تـكن أقواها . وأوضح العناصر اللغوية التى توحد بين البيئات تلك التى تتعلق بالناحية الصوتية منها ، لا سيما ونحن مقبلون على عصر فيه الدراسة اللغوية دراسه سمعية أكثر منها دراسة بصرية . فيجب ألا تنفر آذاننا من نطق بعضنا البعض ، لأن

فى مثل هذا تفرقة بين أبناء أمم نعمل على توحيدها أو التقريب بينها .

وليس أبعث على نفور العربى من أخيه العربى من أن يسمعه ينطق الكلام نطقاً يخالف نطقه . فإذا تم لنا التقريب بين نواحى النطق فى الأمم العربية ، فقد تم لنا كل شىء . . .

عناصر اختلاف النطق :

وتكاد تنحصر نواحى الاختلاف الصوتى بين لهجات الكلام فى الأمور الآتية :

١ — اختلاف فى نطق بعض الأصوات الساكنة كالكاف التى هى فى النطق الصحيح صوت شديد ، ونسمعها فى بعض اللهجات الحديثة صوتاً أميل إلى الرخاوة (تش) كما هو الحال فى بعض لهجات فلسطين وسوريا .

وكالقاف التى نسمعها الآن فى أفواه المجيدين للقراءات صوتاً مهموساً رغم أن القدماء من علماء مخارج الحروف قد وصفوها لنا على أنها مجهورة . وكالطاء التى ينطق بها فى معظم اللهجات الحديثة صوتاً مهموساً ، ومع هذا فقد رواها القدماء بين الأصوات المجهورة . وكالضاد التى نقرأ وصفها فى كتب القدماء ثم لا نجد لها فى الأفواه ذكراً إلا فى نطق بعض العراقيين لها . وكالجيم التي اختلفت بين اللهجات الحديثة فطوراً شديدة كما في النطق المصرى ، وأخرى أميل إلى الرخاوة كما هو الحال في النطق الفصيح المروى فى كتب القدماء ، وثالثة شديدة الرخاوة كتلك الجيم التى كثر تعطيشها كما فى نطق المغاربة وبعض السوريين . وكالأصوات اللثوية (الذال والثاء والظاء) التى يميل حتى المتعلمون منا إلى النطق بها زاياً وسيناً وزاياً مفخمة على الترتيب .

ورغم أن القدماء قد وصفوا لنا الأصوات الساكنة وصفاً دقيقاً من ناحية المخرج والصفة ، ورغم تواتر القراءة القرآنية عن طريق التلقى والمشافهة جيلا بعد جيل ، فقد

تطورت بعض الأصوات فى قراءتنا وأصبح بعضها مهموساً بعد أن كان مجهوراً ، كما أصبح بعضها شديداً بعد أن كان رخواً . واختلف هـذا التطور بين بيئة وأخري من البيئات العربية حتى أصبح الطفل العراقى الآن يخلط فى إملائه بين الضاد والظاء ، كما يخلط الطفل فى بعض قبائل السودان بين القاف والغين . ولا بد لهذا من أن نتخذ نطقاً نموذجياً يخضع له الجميع ونورثه الأبناء فى مدارسنا ، نطقاً نشترك فيه حين نعمد إلى اللغة الفصحى . والأمر فى هذا هين سهل لا يجد المتعلم بعد المران الـكافى مشقة أو عنتاً فى تعود هذا النطق الذى نجمع عليه .

فإذا لوحظت الفروق الضئيلة التي أشرت إليها سابقاً وأمكن اتخاذ نطق نموذجى وحد بيننا فى هذه الفروق ، لا نلبث أن نشهد وحدة تامة بين الأمم الشقيقة فيما يتعلق بالأصوات الساكنة .

٢ — اختلاف فى نطق بعض أصـوات اللين Vowels. تلك الأصوات التى سماها بعض القدماء بالحركات حين تكون أصوات اللين قصـيرة ، وسموها حين تكون طويلة بحروف المد . ونحن فى الاصطلاح العلمى الحديث نجمع بين هذه وتلك فنسميها جميعاً أصوات اللين ، لأن الفرق بين الفتحة وألف المد ليس إلا فرقاً فى الـكمية . وكذلك الحال بين الـكسرة وياء المد . وينظر إليها المحدثون من علماء الأصوات نظرة واحدة ، لأنها جميعاً تكوّن مجموعة من الأصوات اللغوية وثيقة الاتصال بعضها ببعض .

ورغم توارث القراءات القرآنية جيلا بعد جيل عن طريق التلقى والتلقين ، فقد أهمل أمر أصوات اللين العربية ولم يعن بها القراء عناية كافية ، بل تركت وشأنها تتخذ فى الأفواه أشكالا كثيرة حتى صارت إلى ما نشهده الآن من فروق خطيرة بين الأمم العربية الشقيقة . وكأن القدماء قد ظنوا لخلو الرسم العربى من هذه الأصوات فى غالب الأحيان ، أنها ليست عنصراً من عناصر اللغة ، فى حين أنها لـكثرة شـيوعها فى الـكلام والنطق ، أوضح وأبرز فى تـكوين الفروق بين اللهجات .

لهذا أكرر القول بأن الانسجام بيننا فى أصوات اللين أولى بالعناية من الأصوات الساكنة ، بل تلك هى المشكلة الخطيرة التى يجب أن نواجهها وأن نعمل على حلها ، وذلك بأن نتخذ مقاييس خاصة لأصوات اللين نمرن عليها ونتعودها ولا نحيد عنها مهما صادفنا فى هذا من عنت وعسر .

٣ — اختلافنا فى موضع النبر من الكلمة : وهذا هو المظهر الصوتى الثالث الذى يفرق بين النطق فى الأمم العربية — بل ويفرق أيضاً بين لهجات الكلام فى الإقليم الواحد حتى فى نطقهم للقرآن الكريم . فاستمع مثلا إلى قاهرى أو من أبناء الوجه البحرى يقرأ قوله تعالى « فتحرير رقبة مؤمنة » أو قوله « ويل لكل همزة لمزة » فستراه يضغط فى الكلمات (رقبة ، مؤمنة ، همزة ، لمزة) على مقطع خاص فى كل منها يخالف ما يصنعه الرجل من أهل الصعيد حين يقرأ هاتين الآيتين . ذلك هو مثل واضح يبين ما نعنى باختلاف موضع النبر بين نطق أبناء الأمم الشقيقة .

وسائل توحيد النطق :

بقى بعد هذا أن أعرض عرضاً سريعاً لبعض الوسائل التى أرجو أن تمكننا من التغلب على تلك الحوائل الصوتية التى تفصل بيننا وتجعل نطقنا متبايناً .

ليس من المعقول طبعاً أن نطمع فى جعل كل فرد من المتعلمين يدرك تلك الفروق الصوتية إدراكا علمياً ، بل إن هذا يكاد يكون مستحيلا . وإنما الذى يمكن أن نهدف إليه هو أن نتخير طبقة منهم تدرك تلك الفروق ذلك الإدراك العلمى بعد دراسة مستفيضة لها فى معاهد المعلمين . فلنعمل إذن على تكوين ما أسميه بالمدرس الخاص أى الذى يصلح للتدريس فى بيئة معينة من البيئات العربية يكون قد درس دراسة علمية صحيحة عاداتها الصوتية ، تلك العادات التى كونتها لهجة الكلام فيها ، وأصبح الناس هناك يتميزون بها عن غيرهم ، ثم يكون مع هذا

على علم تام بخصائص النطق النموذجى الذى نهدف إليه والذى نرجو أن ينتظم كل البيئات العربية ، ليحاول التوفيق بين صفات صوتية مصدرها لهجة الكلام فى كل بيئة وتلك الصفات الصوتية التى ستتم المواضعة عليها فى النطق النموذجى للغة الفصحى . فمتى عرف كل هذا سهل عليها تخير النماذج الخاصة التى يدرب عليها تلاميذه الصغار تدريباً سمعياً دون حاجة إلى الالتجاء إلى اصطلاح فنى أو شرح علمى .

ويجب أن يختار هذا النوع من المدرسين اختياراً خاصاً من بين أولئك الذين لهم آذان موسيقية مرهفة وممن وهبوا القدرة على تقليد الأصوات . وحين نصطلح على النطق النموذجى الذى نرتضيه جميعاً يسجل هذا النطق تسجيلا صوتياً ويدرس دراسة علمية مفصلة لهذا النوع من المعلمين فى معاهدهم ، فإذا انتهوا من هذا وزعوا على البيئات العربية ليكونوا رسل الوحدة الثقافية بين هذه الشعوب ، عنهم يتلقى التلاميذ الصغار ذلك النطق النموذجى بطريق المحاكاة والتلقين . ومن حسن الحظ أن الصغار من النشء أقدر على التقليد والمحاكاة .

وهناك وسائل أخرى ربما تكون أعم نفعاً ، لأنها تكفل لنا تكرار هذا النطق النموذجى على آذان الناس فى كل وقت وكل مكان ، لا تقتصر على البيئة المدرسية ، بل يتأثر بها الخاص والعام أينما كانوا ، وتلك هى الإذاعة وأفلام السينما والروايات المسرحية . فإذا نشأنا المذيعين والممثلين تنشئة خاصة راعينا فيها العناية بنطقهم وجعلنا منهم أداة نافعة لنشر ذلك النطق النموذجى بين الناس يسمعونهم فيحاولون تقليدهم ، استطعنا بهذا أن نقطع شوطاً بعيداً فيما نهدف إليه من تقريب النطق بين أبناء الأمم الشقيقة . ولا مناص من جعل أداة القول فى كل هذا تلك اللغة الفصيحة التى نقرؤها فى تراثنا الأدبى القديم وفى صحفنا ومجلاتنا الحديثة ، ففيها قدر مشترك كبير بين جميع الأمم العربية .

الفصل الثاني

— ١ —

اللغة العربية قبل الإسلام

حين نعرض للغة العربية قبل الإسلام ، لا نريد أن نذهب إلى أبعد من تلك العصور الجاهلية التى رويت لها آثار أدبية من شعر أو نثر .

والذى تحققت صحته من تلك الآثار الأدبية ، لا يكاد يجاوز قرنا أو قرنين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت تلك الآثار الأدبية تتناقلها الألسن ، وتعيها الحافظة زمنا ليس بالقصير . ومهما يكن من عناية العرب بآدابهم ، واعتمادهم على الذاكرة ، حين فقدت وسائل التدوين ، وشاعت الأمية بينهم ، مهما يكن من قوة هذه الذاكرة ، فلا شك أن تلك الآثار قد اعتورها من عوامل النقص والزيادة ، وضعف الرواية فى بعض الأحيان ، وما جعل العلماء قديمهم وحديثهم يتشككون فى صحة بعض تلك الآثار ، أو على الأقل فى نسبتها لأصحابها ، لأنه قد مرت فترة تزيد على قرنين بين عهد أنشئت فيه تلك الآثار وعهد التدوين .

والتاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب قبل الإسلام ، غامض فى كثير من نواحيه ، وما روى عنه فيما بعد قد اشتمل على كثير من الروايات التاريخية التى تعوزها دقة الرواية والتحقيق العلمى . ومع هذا فنستطيع مما روى لنا أن نتصور جزيرة العرب فى الجاهلية منقسمة إلى بيئتين تكادان تكونان مستقلتين من الناحيتين الاجتماعية والثقافية : البيئة الأولى بيئة الحواضر فى مكة ويثرب وفى مدن اليمن الكبرى ، وبلاد الحيرة جنوب العراق وعلى حدود الصحراء

و بلاد الغساسنة جنوب الشام ، والبيئة الأخرى البيئة البدوية المتنقلة التى لا تكاد تستقر على حال .

ورغم تلك العوامل السياسية والاجتماعية التى قربت بين البيئتين قبل الإسلام ، من مواسم للحج ، وأسواق للتجارة ، فقد ظل النظام فى البيئة البدوية قبلياً ، فيه الاعتزاز بالقبيلة ورئيسها ، وما يمكن أن يكون فيها من تقاليد خاصة تمسكوا بها وذادوا عنها . ولم يتوثق الاتصال بين هاتين البيئتين إلا قبيل الإسلام بعد أن ظلت الجزيرة عشرات من السنين قبل هذا مفككة الصلات ، تكونت فيها جماعات من الناس استقلت بحياتها وتقاليدها ، وانعزلت بعضها عن بعض .

فأبعد ما يمكن أن نتصوره لجزيرة العرب هو أن نراها مكونة من وحدات منعزلة تتمثل فى قبائلها . وانعزال تلك القبائل بعضها عن بعض ، واستمساكهم بنظمهم وتقاليدهم ، قد أدى إلى نشأة اللهجات العربية القديمة التى روى لنا طرف منها فى كتب اللغة والأدب والتاريخ . ورغم اشتراك القبائل فى بعض النظم الاجتماعية ، قد دعت تقاليدها الخاصة ، و بيئاتها الجغرافية الخاصة ، إلى تطور مستقل فى لهجاتها ، وكان من نتيجته تلك الصفات الخاصة التى نلحظها فى لهجة كل قبيلة . فالقبيلة التى دعت ظروفها إلى شن الغارات و إلى التفرقة بين المرء وأهله ، و بعد الأطفال عن رعاية أهليهم ورقابتهم ، ليست كتلك التى ظلت زمنا طويلا هادئة وادعة قد توثقت فيها الصلة بين أفراد الأسرة . لأنه فى الأولى ينشأ الأطفال منعزلين قليلى الاحتكاك والاتصال برجال القبيلة . ومثل تلك الحال تساعد على نمو تلك التطورات اللغوية التي يعزوها المحدثون عادة إلى الأجيال الناشئة وأخطائهم . فإذ مر جيل أو جيلان رأينا تلك التطورات التى لم تكن فى بادىء الأمر إلا أخطاء أطفال لم تصلح فى حينها ، قد أصبحت فيما بعد عنصراً صحيحاً معترفا به بين المتكلمين بهذه اللهجة . هذا إلى ما قد يكون للأمهات من

أثر فى تطور اللهجة من حال إلى حال ، وكل هذا نتيجة الانعزال بين رجال القبيلة ونسائها وأطفالها لظروف اجتماعية خاصة .

أما حيث تتوثق الصلة بين أفراد القبيلة فنلحظ أن التغير يكون بطيئا ، ولكنه ينمو أيضا مع الزمن ، لأن الكلام عملية عضلية لا تؤدى دائما بشكل واحد ، فلا تلبث الأجيال المتعاقبة أن تتوارث صوراً مختلفة منه ، ثم تتراكم تلك الاختلافات حتى تصبح صفة خاصة .

فاللهجات العربية القديمة هى نتيجة انعزال القبائل أولا ، ونتيجة التطور المستقل لكلام كل قبيلة ثانيا . ولا بد من مرور زمن طويل قد يبلغ قرنين أو ثلاثة قبل أن تتبلور تلك الصفة وتصبح من مميزات قبيلة من القبائل .

وليس يعنينا هنا البحث عما كانت عليه تلك اللهجات القديمة قبل العصور الجاهلية التى روى لنا الشىء الكثير عنها ، ولا البحث عن المراحل التى مرت بها حتى صارت على الصورة التى رويت لنا فى كتب التاريخ والأدب ، وإنما الذى نهدف إليه هنا هو أن نصور تلك اللهجات التى نعرفها من روايات الرواة تصويراً علمياً صحيحا بقدر الإمكان .

نحن إذن أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة ، تميزت بها القبائل العربية قبل ظهور تلك العوامل السياسية التى أدت آخر الأمر إلى ظهور الإسلام . فلما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل فى مواسم الحج قبل الإسلام وإلى عقد تلك المؤتمرات الثقافية التى سميت بالأسواق ، بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل . وهنا نشهد ما يحدث عادة بين البيئات المنعزلة حين تبغي الوحدة ، إذ تتخذ مركزاً واحداً تتطلع إليه ، وتطمئن إليه ، لما يمتاز به من نهضة فى الثقافة أو نفوذ سياسى .

وليس هناك ما يقرب بين الجماعات المتنافرة ، كاللغة الموحدة التى تجمع شملهم وتلم شتاتهم .

فلما بدأت عوامل الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزاً لتلك الوحدة ، وبدأ رؤساء القبائل يفدون إليها يحجون ذلك البيت الذى قدسوه قبل الإسلام ، كما وفدوا للتجارة ، وليشهدوا منافع لهم فى أسواق كانت مجالا للثقافة بين القبائل ، فيها تعقد المناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة .

وليؤدى الخطيب رسالته كاملة واضحة ، وليترك سامعيه مشدوهين معجبين بقوله وبلباقته ، كان عليه أن يتحاشى تلك الصفات الخاصة التى تتصل بلهجة من اللهجات ، وأن يتحدث إلى القوم بلغـة تواضعوا عليها ، وألفوها جميعاً . كذلك كان لا بد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة ، لينال إعجاب سامعيـه ، ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم . وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر فى تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفاً ، وأداة القول متباينة .

لهذا توحدت القبائل فى لغة أدبية ممتازة مختارة الألفاظ يعمـد إليها الشاعر والخطيب كلما عنّ له القول . وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصـة من الناس ، اللغة التى استحقت أن تروى آثارها ، ويعتز بها طويلا .

وظلت مع هذا كل قبيـلة تتمسك بلهجة كلامها فى الخطاب العادى بين أفراد القبيلة بعضهم مع بعض . فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الإسلام ؛ بل نمت وازدهرت ، وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القول وإجادة الشعر . لأن إتقان تلك اللغة الأدبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون إتقانها والتفنن فى نواحى القول بها .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن القرآن الكريم قد تحدى الفصحاء من العرب ، فليس يعنى هذا أنه تحدى جميع العرب ؛ وإنما قد تحدى أولئك الذين كرسوا

حياتهم على نواحى القول فأجادوها خطابة وشعراً ، أولئك الذين هم خاصة العرب والمثقفون منهم . وليست كل الثقافة قراءة أو كتابة ، فربما كان بين الأميين مثقفون تفتقت أذهانهم ، ونظروا إلى الحياة نظرة أوسع وأشمل من كثير ممن يحسنون تلك الوسيلة الناقصة التى تسمى بالكتابة .

وأهم وسيلة فى الثقافة اللغوية هى تلك الوسيلة الطبيعية التى عن طريقها تعلمنا الكلام ، أعنى وسيلة السماع . فهى أسرع وأدق من وسيلة الكتابة والقراءة ، ولكن نفعها مقصور على السامعين ، وعلى أولئك الذين تتاح لهم الفرص ليشهدوا مجال القول ممن وهبوا اللباقة فى الكلام ، والذلاقة فى اللسان .

وإذا كان للقراءة والكتابة فضل فهو الشمول ، واتساع دائرة الثقافة . لهذا كانت الثقافة اللغوية فى الجاهلية مقصورة على أولئك الذين شهدوا مجالس الخطابة والشعر ، وهم الخاصة من الناس .

ولما جاء الإسلام ، ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوّى من تلك الوحدة اللغوية التى كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله ، وزاد فى شمولها لأن الرغبة الدينية ، وقوة الشعور الدينى قد دعا كثيراً من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به . ولم يكن الأسلوب القرآنى فى متناول جميع العرب ، بل كان أسمى من هذا وأرق . فقد جاء يتحدى الخاصة منهم ، وظل حتى الآن يتحدى الخاصة منا . ولم يمنع هذا أن يبجل فى كل جيل ، وأن يتعبد به فى كل زمان .

وإلا فكيف نتصور أن عمر بن الخطاب وهو من خاصة العرب وفصحائهم لا يدرى معنى كلمة « أبا » فى قوله تعالى « وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم » ! وكيف نتصور ما أجمعت عليه الروايات من أن بعضاً من فصحاء العرب وأهل البيان فيهم كانوا يؤخذون بروعة الأسلوب القرآنى حين سماعه للمرة الأولى فيسلمون ويصدقون ما جاء به الرسول الكريم :

فقد أسلم عمر بن الخطاب حين سمع سورة طه ، وأسلم جبير بن مطعم حين دخل على النبي وهو يقرأ « والطور وكتاب مسطور » إلى قوله « إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع » ، فقال جبير خشيت أن يدركنى العذاب ثم أسلم . كذلك ما روى من أن جماعة من قريش بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى النبي ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا أن يأتيهم بما عنده ، فقرأ النبي سورة « فصلت » من أولها حتى انتهى إلى قوله « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، فوثب عتبة مخافة العذاب ثم أسلم .

ولله در الباقلانى[1] حين يصف إعجاز القرآن وسموه عن مستوى متوسطى الناس ، بل حتى عن المتناهين فى معرفة الشعر وحده ، أو المتناهين فى معرفة الخطب والرسائل وحدهما فيقول :

« وقد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه ومعرفة وجه دلالته ، لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج فى معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة . فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالى فى هذه الصنعة . فربما حل ذلك محل الأعجمى فى ألا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه . وكذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده أو الغاية فى معرفة الخطب والرسائل وحدهما غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه . فأما من كان متناهياً فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه » .

---

(١) إعجاز القرآن صفحة ٢٨ .

ولا معنى لأن ننساق مع بعض الرواة الأقدمين فننسب لكل العرب الفصاحة فى القول ، والإجادة فى صناعة الكلام ، إذ ليس العرب إلا شعباً ككل الشعوب فيهم القليلون ممن وهبوا تلك الصفة ، وأغلبهم من العامة الذين يكتفون فى حياتهم بنصيب ضئيل من حسن القول وفصاحته .

وتلك اللغة الأدبية التى خطب بها الخطباء ، وشعر بها الشعراء ، ونزل بها القرآن الكريم ، لم تكن لغة تخاطب للناس فى حياتهم العامة ، بل يجب أن تنزه عن هذا ، وأن نرقى بها إلى مستوى أرفع منزلة من أساليب التخاطب . لم تكن إذن لغة سليقة يتكلمها الناس دون شعور بخصائصها ، بل كان المتكلم بها يشعر كل الشعور بنواحى القوة والجمال فيها ، ويتطلع إلى إجادتها وتحسينها . أما لغة التخاطب فهى تلك التى يمكن أن يقال إن الناس كانوا يتكلمونها بالسليقة ، ويؤدون بها التافه من شئونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، ولا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة فى الحياة العادية ، فإذا جد الجد وتطلب المجال نواحى خاصة من القول ، نواحى جدية لا يعمد إليها فى كل يوم ، لجأ المتكلم من الخاصة إلى تلك اللغة الأدبية ، ورآها أهلا لذلك .

لهذا رويت لنا الآثار الأدبية القديمة فى لغة موحدة ، لا تشتمل على خصائص من تلك التى رويت عن اللهجات العربية القديمة . ولا يعقل أن الرواة رووها موحدة ، وغيروا تلك الصفات الخاصة التى يمكن أن يكون قد اشتمل عليها شعر شاعر من قبيلة عرفت بلهجة من اللهجات ، لأن مثل هذا التغيير ليس ممكنا فى كل الحالات . فإذا أمكن عمله فى النثر فإن الوزن الشعرى يأباه فى بعض الأحيان .

ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التى عرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح أثراً لتلك الصفة فى شعر شعرائها . ورواية شعر فيه كشكشة بشعر خال منها تأباه بعض الأوزان الشعرية .

بل حين نرجع إلى ديوان الهذليين[1] لنستشف منه بعض الصفات التى عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحة أو تسهيل الهمز أو الاستنطاء ، لا نكاد نعثر على أثر لها فى أشعارهم . وكل الذى نراه فى الديوان مما ينسب إلى هذيل وحدها لا يعدو أن يكون بضع كلمات قيل لنا إنها بلفظها ومعناها قد اختصت بها هذيل مثل : إبل ضحضاح أى كثيرة ولا يعرف هذا غير هذيل ، والخيطة أى الوتد ، أو بمعناها فقط مثل : الطِّرف بمعنى الفتى الكريم والجحش بمعنى الخِشف . وهناك كلمات وردت بالديوان فى صيغة مخالفة لما اشتهر عنها مثل : سِميج بمعنى سَمْج ، نُجُد بمعنى نَجْد ، والسِّب بمعنى السبب أى الحبل . ويوصف كل هذا بأنه لغة هذيل ! !

ويظهر أن شراح الديوان حين كان يعييهم تفسير كلمة من الكلمات أو تبرير صيغتها كانوا يعمدون إلى القول بأنها لهجة هذيل . فليس ما ورد بالديوان مما يسمى بلغة هذيل إلا نوعاً من مماحكات المفسرين والشراح .

انظر مثلا إلى قولهم إن البيت :

بأسفل ذات الدبر أفرد خِشفها   فقد ولهت يومين فهى خلوج[2]

قد روى بكلمة « جحش » بدلا من « خشف » ، ثم يزعمون أن الجحش بمعنى الخشف عند هذيل ، فى حين أن كلمة الخشف قد استعملها الشاعر بمعناها المعروف وهو ولد الظبية فى مواضع أخرى من الديوان .

كذلك حين يروون للبيت :

تروت بماء البحر ثم تنصبت   على حبشيّات لهن نئيج[3]

رواية أخرى ويقولون :

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج

---

(١) طبع دار الكتب .   (٢) ذات الدبر : موضع ، خلوج انتزع منها ولدها .

(٣) نئيج : مر سريع مع صوت .

لا لشيء سوى أن يزعموا لنا أن « متى » فى لهجة هذيل لها معنى خاص !

وحين يتخبطون فى شرح البيت :

على أطرقا باليـــات الخيا م إلا الثمـــام وإلا العصيّ

فبينما يقول بعضهم إن « أطرقا » موضع ، يقول آخرون إنها جمع طريق على لغة هذيل !!

و بينما يقول الأخفش إن « نُجُد » لغة هذيل فى « نَجْد » ، نرى الصيغتين مستعملتين فى شعر الهذليين .

وهكذا نرى أن لغة الشعر على الأقل قد خلت من صفات اللهجات التى اشتهرت بها القبائل ، مما يجعلنا نرجح أن اللغة الأدبية كانت موحدة قبل الإسلام وظلت موحدة بعده ، وقد خلت من الصفات الخاصة للهجات ، تلك الصفات التى نفر منها خاصة العرب ، وأصبحت بعد الإسلام موضع السخرية فى كثير من الأحيان . فقد رويت لنا روايات كثيرة عن بعض الأعراب وقد حضروا مجالس الخلفاء ولا سيما أمام معاوية ، حين برئوا من طمطمانية حمير وعجعجة قضاعة ، وعدوا أمثال تلك الصفات بعداً عن الفصاحة ، بل تكاد تكون نوعاً من الرطانة أو العجمة .

قال الجاحظ فى البيان والتبيين (١) [سأل معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقال قائل قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير ، قال من هم ؟ قال : قريش .]

---

(١) جزء ثالث صفحة ١٣٧ طبعة الرحمانية .

— ٢ —

كيف كان ينظر إلى اللهجات

لقد اختلفت النظرة إلى اللهجات العربية القديمة باختلاف العصور ، والعوامل السياسية والاجتماعية فى كل منها :

فقبل الإسلام استمسكت كل قبيلة بصفاتها الكلامية ، فى حديثها العادى وفى لهجات التخاطب ، ولكن الخاصة من الناس فى تلك القبائل قد لجأوا إلى تلك اللغة النموذجية التى نشأت فى مكة ، فى شئونهم الجدية ، يخطبون بها وينظمون الشعر ، وينفرون من صفات اللهجات فى مثل هذا المجال . حتى إذا عادوا إلى بيئتهم تحدثوا إلى الناس فى الشئون العامة بمثل لهجتهم ، لئلا تنفر منهم النفوس . وإنما مثلهم فى هذا مثل بعض الأعيان من أهل الريف المصرى حين يفدون إلى القاهرة ، ويخالطون المثقفين فيها فلا نكاد نلحظ فى كلامهم صفات خاصة تنبىء عن بيئتهم الريفية . فإذا عمدوا إلى مقرهم الأصلى سمعتهم يخاطبون الناس بلهجاتهم كأن لم يبرحوا تلك البيئات ولا يوماً واحداً . وأولئك الخاصة من أعيان الريف يجعلون لكل مجال ما يناسبه من القول ، فهم بين المثقفين من القاهريين مثلهم ؛ وهم بين أهليهم وذويهم فى البيئة الريفية مثلهم أيضاً .

تلك هى الحال التى كانت شائعة بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يرونه عيباً أن يخطبوا فى سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم ، كما يرونه عيباً أن يتحدثوا إلى قبائلهم بغير تلك اللهجات . هذه حال كانت مألوفة بين القبائل ، متواضعاً عليها ، ولهذا لم ترد لنا روايات جاهلية عن السخرية بصفات كلامية لقبيلة من القبائل أو القدح فيها .

فلما جاء الإسلام ، وأراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معاً ، سمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التي لم يكن في مقدور العامة غيرها. فالقرآن الكريم وإن نزل بلهجة موحدة ، ولغة أدبية موحدة ؛ أبيح في قراءته الخروج عن تلك اللغة الموحدة ، تيسيراً على عامة العرب ، وتأليفاً لقلوبهم ، وهذا هو معنى الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » . وسنعرض فيما بعد إلى ما اشتملت عليه القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة .

ثم اتسعت المملكة العربية حتى شملت دولا كثيرة ، فكان لا بد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها ، فأهمل أمرها ، ولم يرو عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ . بل إن ما روى عنها جاءنا مبتوراً ناقصاً في معظم الأحيان . ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العرب ، على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية ، قد عنى باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلا . وكل ما نعلمه عن تلك اللهجات من روايات الأقدمين لا يعدو أن يكون مجرد إشارات مبعثرة هنا وهناك ، تضمنتها كتب التاريخ والأدب .

ولما جاء عهد التدوين بدأ الرواة يفرقون بين قبيلة وأخرى ، فينسبون الفصاحة لهذه ، وينكرونها على تلك ، فقد رفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها حدود الجزيرة العربية . فلم يأخذوا عن قضاعة لمجاورتها بلاد الرومان ، واحتمال تأثرهم بلغة الروم في حدود سوريا وفلسطين . كما رفضوا الأخذ عن تغلب والنمر ، لقربهم من أرض الجزيرة وتأثرهم بالفارسية واليونانية . كما أنكروا الفصاحة على بكر لاتصالهم بالفرس والنبط .

وقالوا أيضاً إن اختلاط قبائل اليمن بالحبشة قد أضعف من فصاحتهم ، وإن اتصال لخم وجذام بمصر قد جعل لغتهم موضع الشك ، فلا يحتج بها في الروايات اللغوية .

وقد آثر الرواة الأخذ عن قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وغيرهم ممن كانت مساكنهم فى وسط الجزيرة . على أنهم فيما بعد بدأوا يختلفون فى التفرقة بين القبائل ، فلم يكد ينقضى القرن الرابع الهجرى حتى ظهر من علماء العرب من لم يفرق بين قبيلة وأخرى ، بل عدهم جميعاً سواء فى جواز الأخذ عنهم ، والاحتجاج بأقوالهم . فقد عقد ابن جنى فى كتابه الخصائص فصلا مستقلا سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، أشار فيه إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل ، وأن بعض تلك الصفات أشهر من البعض الآخر ، وأكثر شيوعاً فى اللغة ، ولكنها جميعاً مما يحتج به ، إلى أن قال ما نصه « إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ، فأما إن احتاج إلى ذلك فى شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منعى عليه » .

تلك هى نظرة الأقدمين للهجات العربية القديمة فى العصور المختلفة . ومنها يتضح لنا مبالغة المتأخرين منهم فى الاعتزاز بكل ما ينسب إلى قبائل البدو حتى ولو كان مخالفاً لما جاء به القرآن الكريم ، والآثار الأدبية فى الجاهلية وصدر الإسلام . ذلك لأنهم لم يفرقوا بين اللغة الأدبية التى جاء الإسلام فوجدها موحدة ، ذات خصائص متميزة ، وبين لهجات التخاطب التى اشتملت على الصفات الخاصة للقبائل . وفى هذا من الاضطراب ما فيه ، لأن شرط اللغة الاطراد والتوحد فى الخصائص . فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية من كل ما روى عن القبائل ، يؤدى حتما إلى التناقض ، ويبعد باللغة عن الانسجام والاتحاد فى الخصائص . فلو أن الرواة وقفوا فى استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التى جاءتهم موحدة وممثلة فى الآداب الجاهلية والقرآن الكريم ، لجنبوا أنفسهم الكثير من المهاترات والجدل حول ما يجوز ، وما لا يجوز . ولكنهم حاولوا إقحام تلك الصفات الخاصة للهجات العربية ، فبدت لهذا لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه .

وربما كان المسئول عن هذا الاضطراب ، ذلك الدور الذى لعبته السياسة العباسية ، فى الصراع العلمى بين مدرستى البصرة والكوفة ، فقد انتصر العباسيون للكوفيين فى غالب الأحيان ، وبلغ التنافس بين أنصار المدرستين أوجه فى عصور تدوين اللغة ، وكان كل فريق يجرح الآخر ويطعن فيما يرويه .

« بل كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على كل جديد لم يعرفوه ، وكان يقضى على العالم فى جهله بكلمة ، أو خطئه فى مسألة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيدوا ويختلقوا إذا أحرجوا »[١] .

---

(١) ضحى الإسلام الجزء الأول .

الفصل الثالث

القراءات القرآنية واللهجات

١ — روى عن أُبيّ بن كعب[1] رضى الله عنه، قال « دخلت المسجد أصلى، فدخل رجل فافتتح النحل، فقرأ، فخالفنى فى القراءة، فلما انفتل قلت: من اقرأك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم جاء رجل فقام يصلى، فقرأ وافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى، فلما انفتل قلت: من أقرأك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية، فأخذت بأيديهما، فانطلقت بهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت: استقرئ هذين، فاستقرأ أحدهما وقال: أحسنت. فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية. ثم استقرأ الآخر وقال. أحسنت. فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى بيده فقال: أعيذك بالله يا أبى من الشك، ثم قال: إن جبريل عليه السلام أتانى فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين، فقلت: اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد وقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ».

٢ — وفى حديث البخارى أن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم

---

(١) جاءت هذه الرواية على هذه الصورة فى كتاب النشر لابن الجزرى.

وبذكر ابن حجر نفس الرواية مع تغيير طفيف، أما رواية مسلم لها فتتضمن فى مجموعها نفس المعانى التى هنا مع اختلاف فى بعض الألفاظ والعبارات.

يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلعم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلعم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ! قال أقرأنيها رسول الله صلعم ، فقلت : كذبت فإن رسول الله صلعم قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلعم فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله صلعم : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله صلعم كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف .

٣ — وفى رواية عن عمرو بن العاص أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا ، بغير ما قرأ الرجل ، فقال الرجل : هكذا أقرأنيها رسول الله صلعم ، فخرجا إلى رسول الله صلعم حتى أتياه فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله صلعم : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا فى القرآن فإن مراء فيه كفر .

٤ — ويروى عن أبى جهم الأنصارى أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن كلاهما يزعم أنه تلقاها عن رسول الله صلعم فمشيا جميعاً حتى أتيا رسول الله صلعم فذكر أبو جهم أن رسول الله صلعم قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فإن مراء فيه كفر .

٥ — وجاء زيد بن أرقم إلى رسول الله صلعم فقال : أقرأنى ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أبىّ بن كعب فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول صلعم وعلىّ إلى جنبه ، فقال على : ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فإنه حسن جميل .

هذه هى بعض الروايات التى بينت لنا أن النبى صلعم كان يجيز قراءات

الناس ، ولا ينكرها عليهم ، متى كان موضع الخلاف فيها لهجات ألسنتهم وما تعودوه من طريقة النطق .

على أن هذه الروايات فى مجموعها يشوبها بعض الغموض والإبهام ، فليست تبين لنا بجلاء نص الآية أو الكلمة التى اختلف فى قراءتها ، ولا نوع الخلاف فى تلك القراءات ؛ أكان خلافاً صوتياً يمكن أن يعزى إلى تباين اللهجات والألسنة ، أم كان فى أمر آخر ، لا نعلم علم اليقين . إذ نرى معظم هذه الروايات تشير إلى آية مّا يقرؤها رجل ما ، فالآية مجهولة ونوع الخلاف مجهول ، والقارئ لا نكاد ندرى شيئاً عن بيئته ولهجته وما يمكن أن يكون قد تأثر به ، ولكنا مع كل هذا أو رغم كل هذا نرجح أن الخلاف بين القارئين لم يكن يعدو تلك النواحى الصوتية التى تفرق بين اللهجات فى النطق وطريقة الأداء .

وقد تواترت الروايات على صحة حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ولكن علماء العربية قد اختلفوا فى تفسيره اختلافاً يكاد يبلغ حد الاضطراب . والحديث على وضوحه ، وانسجامه مع روح الإسلام ، قد أسرف فى تأويله وتخريجه إلى حد أن روى له السيوطي فى كتابه « الإتقان » أربعين وجهاً !

ولست أدرى سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه و بين ما تواضعوا عليه فى شأن القراءات .

ونحن لا نشك الآن فى أن للحديث وجهاً واحداً ، يتفق والمنطق الإسلامى الذى يتلخص فى أن الدين الإسلامى قد دعا الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الإيمان به ، واتخاذه عقيدة لهم . فلم يبعث النبى صلى الله عليه وسلم لشعب خاص من الشعوب ، وإنما أرسل إلى الناس كافة . هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور .

فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث فى ضوء الروح الإسلامى نرى أنه ليس

إلا إحدى تلك الوسائل التى أريد بها التيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم .

فالمسلم أياً كانت لهجته ، وأياً كانت بيئته ، وأياً كانت تلك الصفات الكلامية التى نشأ عليها وتعودها ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذى تعودته عضلات صوته فى نطقه بلهجته أو لغته . ويجب ألا ننكر عليه ، أو أن نهزأ من قراءته ، فقد حاول وبذل الجهد فله أجر اجتهاده .

وجميع الروايات التى صاحبت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرد به إلا أن يمنع الناس من القدح فى قراءة غيرهم ، وإنكارها عليهم .

وقد نادى بمثل هذا الرأى بعض العلماء الأقدمين . فقد روى ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتابه النشر فى القراءات العشر ما نصه « كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم حيث أتاه جبريل فقال له : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال صلعم أسأل الله معافاته ومعونته ، إن أمتى لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف . فلو كلفو العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يستطاع » .

وقال ابن قتيبة فى كتاب المشكل « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرئ كل أمة بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم ، فالهذلى يقرأ « عتّى حين » ، والأسدى يقرأ « تِعلمون » ، والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز ... الخ » .

والفرق بيننا وبين أصحاب هذا الرأى هو أنهم قصروا الأمر على لهجات العرب ، فى حين أننا نجعله أعم وأشمل ، أى أن قصد التيسير والتسهيل يشمل

جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم ، فى الماضى والحاضر والمستقبل .

فليست تلك الحروف السبع التى أجيز قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين فى جميع بقاع الأرض . فإذا قرأ الهندى المسلم القرآن أمامنا ، ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية فى نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهى غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها .

ويجب ألا تعدو تلك الأحرف النواحى الصوتية ، من اختلاف فى مخرج الصوت ، وتباين فى صفته ، بين جهر وهمس أو شدة ورخاوة ، أو تباين فى موضع النبر من الكلمة ، أو مقاييس أصوات اللين إلى غير ذلك من الموضوعات التى يعرض لها علم الأصوات اللغوية ؛ لأن لكل شعب من الشعوب صفات صوتية تميزه عن غيره ، وتكون جزءاً هاماً مما يسميه المحدثون بالعادات الكلامية[١] .

فقد أنزل القرآن للمسلمين جميعاً لا للعرب وحدهم ، وأمروا أن يتعبدوا بما يستطيعون من آياته ، بل فرض عليهم قراءة بعض آياته فى صلاتهم ونسكهم ، فإذا انحرفت الألسنة بعض الانحراف عن النطق الصحيح لألفاظه فليس ذلك إلا عن مشقة وعسر . ومتى صدرت مثل هذه القراءات عن قلب طاهر وإيمان قوى فهى حسنة متقبلة عند الله ، فهى نجوى بين المسلم وربه ، يقرأ بما يستطيع فيتقبل عند الله ، ويستجيب له الله .

وليس معنى هذا أن نتخذ مثل هذه القراءة نموذجاً يحتذى ، أو أن تعدّ بين القراءات النموذجية التى يهتدى بها المسلمون والتى رواها لنا الأئمة فى فن القراءات ، فهناك أمران يجب الفصل بينهما فصلا تاماً : أولهما القراءة الفردية التى لا تكاد تجاوز بضع آيات من القرآن الكريم والتى يقوم بها أفراد المسلمين فى جميع بقاع الأرض على قدر ما تسمح به عاداتهم فى النطق ، وثانيهما : تلك القراءات

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ، الفصل العاشر ص ١٨٢ .

النموذجية التي سجلها علماء التجويد وجعلوا منها فناً متميز الأصول سموه بعلم القراءات .

ولعلّ السرّ في اضطراب المفسرين لهذا الحديث أنهم خلطوا بينه وبين القراءات السبع التي رواها ووضع أسسها ابن مجاهد ؛ فظن بعض الشراح أن الأحرف السبع هي القراءات السبع ، وما كانت كلمة السبع في كل من الأمرين إلا لمجرد المصادفة ، وقد اختلف معناها في الحديث عن المعنى الذي أراده ابن مجاهد . ولو أن ابن مجاهد قد عالج القراءات النموذجية على أنها عشر قراءات كما فعل الذين جاءوا بعده ؛ ما حدث ذلك الربط بين الحديث وفن القراءات . فللحديث اتجاه خاص يخالف ما اتجه إليه أئمة القراءات وعلماؤها .

أما الناحية العددية ، في الحديث فليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة ، بل المراد مجرد التعدد ، وهو ما ينسجم مع العقلية السامية . لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد في الأساليب السامية . وقد أشار إلى هذا ابن الجزري في الجزء الأول من كتابه النشر صفحة ٢٥ ، إذ يقول ما نصه : « وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب ، من حيث أن الله تعالى أذن لهم في ذلك . والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ، ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ؛ بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ، قال تعالى : « كمثل حبة أنبتت سبع سنابل . وقال : وإن تستغفر لهم سبعين مرة . . . الخ » .

أما ما اشتملت عليه القراءات القرآنية ، من صفات صوتية فيمكن إرجاعها إلى بعض اللهجات العربية . وتنتمي هذه الصفات الصوتية إلى أشهر القبائل وأوسعها انتشاراً . لذلك وجدت كل العناية ، بين القراء ، وروعيت في القراءات القرآنية ؛ لأنها الصفات التي شاعت في معظم قبائل العرب ، والتي تأصلت

فى لهجاتهم ، فاتخذ القراء منها نماذجهم فى فن القراءات .

ولم تشتمل القراءات القرآنية ، على كل الصفات الصوتية التى رويت لنا عن اللهجات العربية ، لأن بعض تلك الصفات لم تكن من الشيوع بين القبائل ما استحقت معه ، فى رأى القراء ، أن يقرأ بها ، أو بعبارة أخرى ما استحقت معه أن تذكر بين القراءات القرآنية المشهورة .

وإذا كان علماء القراءات أنفسهم يعترفون بأن ما روى لنا منها ليس كل القراءات التى قرئ بها فى العصور الإسلامية الأولى ، وإنما هى طرف منها فقط ، فليس من التجنى أن نحكم بأن بعض تلك القراءات التى تنوسيت وأهمل أمرها كانت تشتمل على صفات صوتية للهجات غير التى رويت لنا فى كتب القراءات .

فانظر مثلا إلى ما يقرره ابن الجزرى فى كتابه النشر الجزء الأول صفحة ٣٣ « فإن القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً فى الأعصار الأول ، قل من كثر ، ونزر من بحر ، فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين » . فما روته القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة ليس إلا المشهور منها ، الكثير الشيوع الذى تأصل فى النطق .

وتلك الصفات الصوتية التى اشتملت عليها القراءات كما نعرفها الآن ، والتى يمكن أن تعزى إلى اختلاف اللهجات العربية هى :

— ١ —

الفتح والإمالة

أجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز ، وعلى أن قبائل نجد قد عرف عنهم الإمالة فى كلامهم . ويظهر أن القبائل العربية قبل الإسلام و بعده قد انقسمت إلى شعبتين : الشعبة الأولى تؤثر الفتح ، أو بعبارة أخرى لا تستقيم ألسنتها بغيره ، والشعبة الأخرى قد شاعت فيها الإمالة .

ويمكن بصفة عامة أن ننسب الفتح إلى جميع القبائل التى كانت مساكنها غربى الجزيرة بما فى ذلك قبائل الحجاز أمثال قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة ، وأن ننسب الإمالة إلى جميع القبائل الذين عاشوا فى وسط الجزيرة وشرقيها ، وأشهرها : تميم وأسد وطيء وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب .

والقبائل التى كثر انتشارها فى أمصار العراق بعد الفتح الإسلامى ، تكاد تنحصر فى الشعبة الثانية . وقد اتخذ علماء الكوفة والبصرة مُثلهم من القبائل التى انتشرت فى تلك الأصقاع ، أو تعودت النزوح إليها . وقد حدثنا تاريخ الهجرات القبلية ، رغم غموضه ، بأن أشهر القبائل التي أثرت فى بيئة الكوفة والبصرة ، هى قبائل وسط الجزيرة وشرقها . فعن معظمهم أخذ علماء الكوفة والبصرة ، وبهم اقتدوا .

ويشير جورج زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » إلى أن البيئة العراقية قد انتظمتها فى أوائل عهد الإسلام قبائل من وسط الجزيرة وشرقيها فيقول : « فجاشت عوامل الحسد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الإسلام ، وخصوصاً أهل البصرة والكوفة لأن أكثر العرب

الذين نزلوا هـذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها ، فلما استفحلت الدولة إذا هم فى قبضة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر[1] » .

فلا غرابة إذن أن نرى الإمالة شائعة فى القراءات القرآنية ، التى انتظمت البيئة العراقية فى القرن الثانى الهجرى .

وأشهر من روى عنهم الإمالة من القراء العشرة هم :

حمزة الذى توفى سنة ١٥٦ هـ . وكان إمام القراء فى الكوفة .

الكسائى الذى توفى سنة ١٨٩ هـ . وورث إمامة القراءات بالكوفة بعد حمزة .

خلف الذى توفى سنة ٢٢٩ هـ بالكوفة أيضاً .

فأئمة القراءة الذين اشتهر عنهم الإمالة كوفيون ، أى تأثروا بتلك القبائل التى أقامت بالعراق ، أو تعودت النزوح إليه ، وهى قبائل قريبة مساكنها من العراق ، وعرفت لهجاتها بالإمالة .

ويظهر أن حمزة هو الذى رسم طريق القراءة الكوفية بين القراء العشرة ؛ مستمداً نماذجه من البيئة التى عاش فيها ، ثم تبعه الكسائى ، ولكنه أسرف فى اعتزازه بالإمالة ولاسيما إمالة الفتحة قبل تاء التأنيث ، فله فيها مذهب خاص عرف به واشتهر فى فن القراءات . ولاغرابة فى ذلك فقد كان للكسائى شخصية متميزة فى القراءات ، وكان كما وصفه أبو عبيد فى كتاب القراءات بقوله : « كان الكسائى يتخير القراءات ، فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً » .

---

(١) جزء أول صفحة ٢٠٨ .

أما خلف فقد ترسم خطا أستاذه حمزة ، وكان يمثل القراءة الكوفية تمثيلا صادقاً . قال ابن الجزرى : « تتبعت اختياره فلم أجده يخرج عن قراءة الكوفيين فى حرف واحد ، بل ولا عن حمزة والكسائى وأبى بكر إلا فى حرف واحد وهو قوله تعالى « وحرام على قرية أهلكناها » فى سورة الأنبياء ، قرأها كحفص » .

وقد كان من المتوقع أن يشمل هذا التأثر بيئة البصرة أيضاً ، فنلحظ الإمالة بين قرائها أمثال :

أبى عمرو بن العلاء الذى توفى سنة ١٥٤ هـ ، ويعقوب الذى ورثه فى إمامة القراءات بالبصرة والمتوفى سنة ٢٠٥ هـ . ولكن الذى قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة أبى عمرو وتلميذه يعقوب لم تنتصر للإمالة إلا فى مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات .

والأمر الذى يجب أن نتنبه إليه أن معظم هؤلاء القراء كانوا من الموالى ، فكان من الطبيعى أن يعظم تأثرهم بطرق النطق والأداء التى شاعت فى القبائل حولهم ، ولا غرابة إذن أن يظهر إعجابهم بالقبائل التى عاشوا بين ظهرانيها ، وأن يحتذوا حذوها فى معظم الصفات التى عرفت بها لهجاتها . ولكن أبا عمرو بن العلاء لم يكن من الموالى بل كان من تميم ونسبه فيهم ونشأ على لهجتهم التى أصبحت له عادة وسليقة ، والتى لم تكن عنده إلا أمراً عادياً لا يثير منه إعجاباً ، فالتمس لهذا نماذجه من بيئة أخرى وهى البيئة الحجازية ، التى خلت من الإمالة أو كادت ، فقد قرأ على جماعة جلة من أهل الحجاز ، ووصف أحمد بن حنبل قراءته قائلا : « قراءة أبى عمرو أحب القراءات إلىّ ، هى قراءة قريش ، وقراءة الفصحاء » . والمعروف أن أبا عمرو قد قرأ على ابن كثير القارئ المكىّ ، ثم أسس بالبصرة قراءة اشتهرت بها ، وخالف فيها ما شاع بين أهل البصرة من النطق بالإمالة فى لهجاتهم .

وإذا كان معظم القراء قد تأثروا بلهجة بيئتهم فإن قلة منهم قد تأثروا

بأساتذتهم فى بيئات أخرى ، أو جمعوا بين هذه وتلك فيما انتهجوه من قراءات .

فأبو عمرو بن العلاء هو المؤسس الأول لقراءة البصرة ، وقد تبعه فيها تلميذه يعقوب وسلك مسلكه فى كل الحروف .

هذا هو مايبرر الخلاف بين البصرة والكوفة فى ظاهرة الإمالة التى انتظمت كل البيئة العراقية ولهجاتها .

وأخيراً وليس آخراً لعل الصراع العلمى الذى كان بين الكوفة والبصرة هو الذى دعا إلى هذه المغايرة ، وإلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح فى معظم المواضع ، حتى لا تشبه الكوفة فى إمالتها .

كذلك قد يبدو من الغريب أن نرى بين علماء الكوفة أمثال عاصم الذى توفى سنة ١٢٧ هـ . والذى أخذ عنه حفص تلك القراءة المشهورة الآن بالبلاد العربية ، والتى تكاد تخلو من الإمالة !

ولكنا حين نذكر أن عاصماً كان أسبق علماء الكوفة فى فن القراءات ، وأنه عاش قبل أن يشتد التنافس بين مدرستى البصرة والكوفة ، نستطيع بسهولة أن نتصور أن عاصماً فى قراءته قد تأثر ببيئة غير بيئته ، كالبيئة الحجازية مثلا . وبعض القراء فى قليل من الأحيان يؤثرون القراءة التى تغاير اللهجة الشائعة بين ظهرانيهم ، فلعل عاصماً كان أحد هؤلاء .

نخلص من كل هذا إلى أن الإمالة كانت الصفة الشائعة بين قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأنها شاعت بعد الإسلام فى اللهجات العربية ببلاد العراق . ومما قد يؤيد ما نذهب إليه أن الكسائى سئل مرة « إنك تميل ما قبل هاء التأنيث ، فقال هذا طباع العربية » . وقد عقب على قول الكسائى أبو عمرو الدانى فى كتابه التيسير فقال « إن الكسائى أراد بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة ، وهى باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب » ، أى أن الإمالة ظلت شائعة بين أهل الكوفة حتى عهد أبى عمرو الدانى فى أوائل القرن الخامس الهجرى .

أما قراء البيئة الحجازية أمثال ابن كثير المكىّ ونافع وأبى جعفر المدنيين ، فلا تعرف قراءاتهم الإمالة ، أى أنهم تبعوا ما اشتهر عن لهجات بيئتهم الحجازية من الميل إلى الفتح .

بقى أن نشرح معنى الفتح والإمالة كما يراهما المحدثون من علماء الأصوات اللغوية :

الفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين ، سواء كانا قصيرين أو طويلين . وأصوات اللين القصيرة فى الاصطلاح الحديث هى ما كان يسميه القدماء بالحركات ، أما أصوات اللين الطويلة فهى ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد وواو المد . ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا فى الكمية . فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هو نفسه مخرج ألف المد ووضع اللسان معها ، والفرق بينهما فرق فى الكمية . وكذلك الكسرة وياء المد متماثلتان فى المخرج ووضع اللسان ، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيهما أيضاً .

فلا فرق إذن بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد ، لأن العملية العضلية فى الحالتين واحدة .

وقد وضع المحدثون مقاييس[1] مشهورة لأصوات اللين يعرض لها بالتفصيل علم الأصوات اللغوية . وما سماه القدماء بالفتح هو أحد تلك المقاييس ، وما سموه بالإمالة مقياس آخر منها .

واللسان مع الفتح يكاد يكون مستوياً فى قاع الفم ، فإذا أخذ فى الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذى يسمى بالإمالة . وأقصى ما يصل إليه اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى ، هو ذلك المقياس الذى يسمى عادة بالكسرة ، طويلة كانت أو قصيرة . فهناك إذن مراحل بين الفتح والكسر ،

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٠ .

لا مرحلة واحدة . من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة و إمالة شديدة .

وهكذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلافاً فى وضع اللسان مع كل منهما ، حين النطق بهذين الصوتين . واللسان فى حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه فى حالة الفتح .

ولقد اضطربت أقوال الأقدمين فى شرح أسباب الإمالة حين حاولوا أن يضعوا لها قواعد وقوانين ، كما اختلفوا فى الحكم على أيهما الأصل : الفتح أم الإمالة ؟

ونحن حين نستعرض أمثلة الإمالة وأحوالها نراها تنقسم إلى نوعين مختلفين :

١ — صوت لين خالص تكون من صوت لين مركب يسميه المحدثون Diphthong

٢ — تغير فى مقياس صوت من أصوات اللين .

ونلحظ الحالة الأولى حين يكون صوت اللين طويلا ، ومنقلباً عن أصل من أصول الكلمة ، يائياً كان أو واوياً . ففى مثل الفعلين « باع ، قال » يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما .

بَيْعَ ، قَوْلَ

ثم تطور الصوت الأول « ai » إلى : e والصوت الثانى « au » إلى : o أى أن فتحة فاء الكلمة فى الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة ، وأنها فى الفعل الثانى قد أميلت إلى الضمة .

فهناك إمالة فى الحالين ، فكما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال أيضاً إلى الضم . ولكن القراء فى إمالتهم لم يعنوا إلا بالإمالة الأولى ، وهى الفتح إلى الكسر ، لأنها أكثر شيوعاً وانتشاراً وظهوراً بين القبائل العربية المشهورة . أما إمالة الفتح إلى الضم فقد ظلت مهملة يشار إليها أحياناً فى بعض المطولات من

كتب اللغة على أنها لهجة لبعض القبائل ، دون نسبتها إلى قبيلة خاصة . فقد أشار إليها ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الإعراب » وعلل بها كتابة الصلاة والزكاة وأمثالها فى الخط العثمانى بالواو .

ونحن فى مثل هذه العجالة لا نستطيع أن نرجح نسبة هذه اللهجة إلى قبيلة من القبائل العربية ، غير أننا نلحظ وجودها فى بعض اللهجات الحديثة .

وهناك نوعان آخران من الإمالة رواهما ابن جنى فى كتابه الآنف الذكر وهما :

١ — الكسرة المشوبة بالضمة ، وهى تلك التى فى صيغ البناء المجهول ، والتى عبَّر عنها القدماء من النحاة بالإشمام فى مثل قيل ، بيع . وقد قرأ بهذه اللهجة الكسائى وهشام فى [قيل . غيض . جىْ . حيل . سيق . سيْ] .

٢ — الضمة المشوبة بالكسرة ، كأن يمال بمثل « بوع » نحو الكسرة . وهذه اللهجة أقل اللهجات شهرة وشيوعاً ، وإن رويت بين لهجات العرب .

فالإمالة كما ترى أنواع أربعة ، أشهرها إمالة الفتح إلى الكسر . وهذا النوع هو المراد بالإمالة حين تطلق فى كتب القراءات واللغة . وعلى هذا إذا قيل لنا إن من أسباب إمالة ألف المدّ كون أصلها ياء ، كما فى « باع » وجب أن نفهم من هذا أن الأصل اليائى قد تطور أولا إلى الإمالة ، ثم تطورت الإمالة إلى الفتح ، أى أن المراحل التى مرّ فيها مثل هذا الفعل « باع » هى :

(بَيْعَ) ثم (إمالة) ثم (فتح)

فالصوت المركب ai قد تطور أولا إلى : e ثم إلى : a .

تلك هى المرحل التى تبررها القوانين الصوتية ، والتى لها نظائر فى اللغات الأخرى . ولذلك نستطيع أن نرجح أن بعض الكلمات العربية التى اشتملت على ياء أصلية قد تطورت أولا إلى الإمالة ثم إلى الفتح . فالأصل إذن فى مثل هذه الكلمات هو الإمالة ، وقد تفرع الفتح عنها .

ونستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التى عرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة

أخرى فى تطور لهجاتها ، إذ انتقلت من الإمالة إلى الفتح ، كما نستنبط أن لهجات بعض القبائل فى وسط الجزيرة وشرقيها قد احتفظت بمرحلة الإمالة التى هى أقدم حين تكون الياء أصلية فى الكلمات . وربما كان السرّ فى احتفاظ البدو بهذه الظاهرة أنهم عرفوا بها فتعصبوا لها .

وانتقال الإمالة إلى الفتح ليس له ما يبرره سوى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، والميل إلى السهولة التى يلجأ إليها الإنسان فى معظم ظواهره الاجتماعية .

ألا ترى أن كلمة « شَيْء » قد تطورت فى معظم اللهجات الحديثة إلى « شَىء » أى أن الصوت المركب ai قد أصبح : e بالإمالة ، ثم تطورت بعد ذلك تطوراً جديداً فى لهجات حديثة أخرى فأصبحت « شاء » أى بالفتح . فقد نسمع فى بعض اللهجات المصرية الحديثة من يقول : « شاء عجيب » وهو يريد « شىء عجيب » .

وهذا هو الذى تمَّ فى لهجة الفيوم حين نسمع منهم كلمات مثل . [لَـيه ، إيه] منطوقة [لَاه ، آه] فيقولون فى موضع الدهشة أو الاستفهام :

لاه وعشان آه ؟

أما حين تعرض الإمالة لغير أصل من أصول الكلمة كإمالة الفتحة ، أو إمالة ألف المدّ غير المنقلبة عن أصل ، فليس هذا إلا نوعاً من الانسجام بين أصوات اللين(1) . لذلك جعل القدماء من أسباب هذه الإمالة وجود كسرة ، سواء كانت سابقة أو لاحقة . ولا شك أن الانتقال من الكسر إلى الفتح أو بالعكس يتطلب مجهوداً عضلياً أكبر مما لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض ، بأن تصبح متشابهة . لأن حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتحة .

ومتى سلمنا بنظرية السهولة والاقتصاد فى الجهد العضلى ، استطعنا أن نتصور أن الكلمة التى تشتمل على أصوات لين منسجمة ، أحدث من نظيرتها التى

(1) Vowel — Harmony.

خلت أصوات لينها من الانسجام . ونستطيع لهذا أن نقول إن كلمة « كتاب » كما ينطق بها بغير إمالة أقدم فى نسجها منها مع الإمالة .

وقد خلط القدماء بين عنصرين رئيسيين من الكلمات : تلك التى اشتملت على أصل يائى ، و بين التى رويت بالإمالة دون أن يكون مبعث الإمالة فيها تضمنها أصلا يائياً .

فإمالة الفتح إلى الكسر يجب فى الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى أحد عاملين :

١ — الأصل اليائى .

٢ — الانسجام بين أصوات اللين .

وليس يقتصر أثر العامل الثانى على الإمالة من الفتح إلى الكسر ، بل يمكن أن يعزى إليه أيضاً الانتقال من الكسر إلى الفتح ، كما فى تلك الأفعال الثلاثية التى رويت لنا مرة مثل « فرح » وأخرى مثل « فتح » ، دون تغير فى معناها مثل : « خطف ، حبط ، قنط » ، فنى هذه الحالة يمكن أن يقال إنها أقدم وأسبق حين تكون على صورة « فرح » ، وقد تطورت إلى صورة « فتح » ، ليتحقق الانسجام بين الحركات .

و يلعب الانسجام بين أصوات اللين دوراً هاماً فى معظم لغات البشر . وهو من التطورات الحديثة ، التى تميل إليها اللغات بصفة عامة . وقد اعترف به القدماء من علماء العربية ، وسموه فى باب الإمالة بالتناسب ، ثم سموه فى بعض أبواب الإعراب « بحركات الإتباع » وتأولوا عليه قولهم « جحر ضب خرب » . بل إن حركة الإتباع قد اعترف بها بعض القراء ، فرووها فى بعض القراءات القرآنية ، فقد قرئ [بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ الحمدِ للهِ ربِّ العالمين] .

أما قواعد النحاة فى باب الإمالة فيمكن إرجاعها جميعاً إلى العاملين الرئيسيين اللذين أشرنا إليهما هنا ، غير أنه من الصعب مع هذا أن نبرر من الناحية

الصوتية ، ما زعمه بعض النحاة من جواز الإمالة فيما أصله واو مثل [خاف] ، لأن الإمالة فى مثل هذه الحالة كان حقها أن تكون من الفتح إلى الضم ، لا من الفتح إلى الكسر . على أن النحاة قد اختلفوا فى الحكم على إمالة أمثال [خاف] فأنكرها بعضهم أمثال أبى العباس المبرد ، فقد روى عنه أن قال إن إمالة ما كان من ذوات الواو على ثلاثة أحرف نحو [دعا ، غزا] قبيحة إلا إذا كان هناك ما يبررها ككسرة تسبق ألف المد كما فى إمالة « رِبا » التى قرأ بها الكسائى وحمزة .

هذا ولا نستطيع أن نتصور كيف جعل النحاة الإمالة ، من الأمور الجائزة !! فقد قرروا أن كل ممال يجوز فتحه ! ولو صح هذا القول لأمكن أن نتصور أن من القبائل من كانوا يميلون ويفتحون كما تشاء لهم أهواؤهم ، وذلك أمر لا يقبله اللغوى الحديث ؛ إذ ليس الأمر أمر مواضعة مقصودة متعمدة ، وإنما هو عادة لكل قبيلة . فتلك التى تميل لا تستطيع غير الإمالة ، وتلك التى تفتح لا تطاوعها ألسنتها بغير الفتح . فالمسألة لا تعدو أن تكون عادة ككل العادات اللغوية ، يتوارثها الخلف عن السلف دون شعور بها . فكان واجب النحاة أن يقولوا إن الإمالة لا مفر منها عند تلك القبيلة التى تميل فى كلامها ، والفتح واجب عند من لا يستطيعون غيره كمعظم الحجازيين . أما إذا كان النحاة قد أرادوا بجواز الإمالة أنه يجوز لنا الآن حين نقرأ القرآن الإمالة أو الفتح ، فهذا أمر آخر لا نعرض له هنا بشىء .

ولا تزال الإمالة شائعة فى كثير من اللهجات العربية الحديثة ، ولن تتم معرفتنا بقواعد الإمالة وأصولها فى العصور الإسلامية الأولى إلا بالاستعانة بقواعدها وأصولها فى اللهجات الحديثة حين تدرس دراسة علمية كافية ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

— ٢ —

الإدغام

نؤثر هنا استعمال هذا الاصطلاح القديم ، ونعنى به ما يشير إليه المحدثون من تأثر الأصوات بعضها ببعض حين تتجاور . ويسمى المحدثون هذه الظاهرة اللغوية Assimilation . ولقد أطلقت عليها فى كتاب الأصوات اللغوية كلمة « المماثلة » ، لأن شرط تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أن تكون متشابهة فى المخرج أو الصفة . فإذا اجتمع صوتان متماثلان كل المماثلة أو بعضها ترتب على هذا أن يؤثر أحد الصوتين فى الآخر تأثيراً تختلف نسبته تبعاً للظروف اللغوية الخاصة بلغة من اللغات .

ويقسم المحدثون تأثر الأصوات إلى نوعين :

١ — رجعى Regressive وفيه يتأثر الصوت الأول بالثانى .

٢ — تقدمى Progressive وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول .

وتختلف اللهجات فى الخضوع لنوع من هذين النوعين . فمن اللهجات ما يؤثر النوع الأول كلهجات اللغة الفرنسية ، ومنها ما يلتزم النوع الثانى كلهجات اللغة الإنجليزية .

وقد اشتملت اللغة العربية على هذين النوعين من التأثر ، وإن كان النوع الأول هو الأكثر شيوعاً فيها .

ولم يعرض القراء فى كتبهم إلا للنوع الأول ، أى التأثر الرجعى ، وهو الذى فيه يتأثر الصوت الأول بالثانى تأثراً كاملا يترتب عليه أن يفنى الصوت الأول فى الثانى بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالثانى .

وقد سموا هذا التأثر فى كتبهم بالإدغام ، ثم قسموا الإدغام إلى كبير ، وهو

الذى يفصل فيه بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير (أى حركة) . وقد نسب هذا الإدغام إلى أبى عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة . وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ، فضلا عن أنه لم ينسب إلى قبيلة خاصة عرفت به وآثرته فى نطقها .

أما النوع الثانى للإدغام عند القراء فهو الإدغام الصغير ، وفيه يتجاور الصوتان الساكنان ، دون فاصل من أصوات اللين ، وهو الذى شاع فى معظم اللغات ، لأن شرط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً .

ويظهر أن أبا عمرو بن العلاء كان لا يلتزم فى قراءته النطق بالحركات الإعرابية أو الحركات الواقعة على أواخر تلك الكلمات ، مما يترتب عليه التقاء الحرف الأخير من الكلمة السابقة بالحرف الأول من الكلمة اللاحقة . فإذا تشابه الحرفان أو تقاربا فى الصفة أدى هذا إلى تأثر أحدهما بالآخر . ومما قد يستأنس به للدلالة على طريقة أبى عمرو ما روى عنه من قراءات كثيرة سقطت منها الحركات الأخيرة للكلمات مثل :

إن الله يأمرْكم أن تذبحوا بقرة .

فإن صح هذا التفسير لقراءة أبى عمرو لم يكن هناك فرق بين إدغامه وما يسمى بالإدغام الصغير .

والإدغام أو تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، ظاهرة صوتية تحدث كثيراً فى البيئات البدائية حيث السرعة فى نطق الكلمات ، ومزجها بعضها ببعض ، فلا يعطى الحرف حقه الصوتى من تحقيق أو تجويد فى النطق به .

ويظهر أثر هذا بجلاء ووضوح بين البدو وفى القبائل الرحل التى لا تكاد تستقر على حال . فإذا تذكرنا أن البيئة العراقيـة قد نزح إليها قبائل أقرب إلى البداوة ممن عاشوا فى البيئة الحجازية ، أمكننا أن نتصور أن الإدغام كان أكثر شيوعاً فى لهجات القبائل النازحة إلى العراق . أما البيئة الحجازية ، فقد كانت

بيئة استقرار و بيئة حضارة نسبياً ، فيها يميـل الناس إلى التأنى فى النطق ، و إلى تحقيق الأصوات وعدم الخلط بينها .

نحن إذن نتوقع أن تروى لنا لهجات العراق مشـو بة بأمثلة كثيرة لظاهرة الإدغام وتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض . أما فى البيئة الحجازية فنتوقع نسبة قليلة جداً من تلك الأمثلة الإدغامية .

نسائل أنفسنا بعد هذا : هل ظهر أثر هذه الحقيقة الصوتية فى قراءات العراق وقراءات الحجاز ؟

إذا استعرضنا آراء القراء فى إدغام الأمثلة القرآنية أو إظهارها وجدناهم طائفتين:

١ — منهـم من يؤثر الإدغام وهم أبو عمرو . والـكسائى . وحمزة . وابن عامر . وخلف ، و إن اختلفت النسبة بينهم .

٢ — أما الذين يؤثرون الإظهار فهم : ابن كثير . ونافع . وأبو جعفر . وعاصم . و يعقوب ، بنسب مختلفة أيضاً .

فعمن أخذ هؤلاء وهؤلاء ؟ و بأى القبائل تأثروا فى ميلهم للإدغام أو الإظهار؟

الحق أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليس بالأمر الهين اليسير ، لأن أصحاب الإدغام ليسوا جميعاً من بيئة واحدة ، فمنهم الـكوفى كالـكسائى وحمزة وخلف ، ومنهم البصرى كأبى عمرو ، ومنهم الشامى كابن عامر . كذلك أصحاب الإظهار ليسوا من بيئة واحدة ، فمنهم الـكوفى كعاصم ، والبصرى كيعقوب !

غير أنه من الممكن أن نعزو الإدغام بصفة عامة إلى البيئة العراقية ، والإظهار بصفة عامة إلى البيئة الحجازية .

وقد ظهر لنا حين التحدث عن الإمالة أن « عاصماً » قد خالف بيئته فى الميل إلى الفتح فلا غرابة أن يخالف بيئته هنا أيضاً .

أما ميل ابن عامر لأصحاب الإدغام ، وميل يعقوب لأصحاب الإظهار فمن الصعب تعليله .

نستطيع بعد هذا أن نستنبط أن القبائل التى أثرت فى البيئة العراقية كانت تميل لهجاتها بوجه عام إلى الإدغام ، وأن قبائل الحجاز كانت تميل إلى الإظهار .

وقد عرفنا من قبل أن البيئة العراقية قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها . وعلى هذا فيمكن الحكم على أن القبائل التى عرفت بالإدغام هى :

تميم . طىء . أسد . بكر بن وائل . تغلب . عبد القيس .

وأن القبائل التى آثرت الإظهار هى :

قريش . ثقيف . كنانة . الأنصار . هذيل .

فالقبائل العربية إذن قد انقسمت إلى طائفتين : الأولى تؤثر الإدغام ، والثانية تؤثر الإظهار .

وقد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما أجمعت عليه الروايات اللغوية من أن « تميما » التى اتخذت دائماً مثلا لقبائل وسط الجزيرة قد روى عنها أنها كانت تقول « محّم » بدلا من « معْهم » ؛ فقد قلبت العين المجهورة إلى نظيرها المهموس وهو الحاء لمجاورتها لصوت مهموس وهو الهاء ، ثم أدغمت الهاء فى الحاء إدغاماً تقدمياً على غير العادة فى الإدغام العربى . كذلك روى عن تميم أنها كانت تقول « فُزْدُ » بدلا من « فزت » أى أن التاء المهموسة قد قلبت إلى نظيرها المجهور وهو الدال ، وذلك لمجاورتها لصوت المجهور وهو الزاى . كذلك قيل لنا إن لهجة نجد فى كلمة « وتد » هى « ودّ » .

ويظهر ميل تميم إلى الإدغام حين نتذكر ما يشير إليه النحاة من أن قبيلة تميم قد عرفت بإدغام المثلين فى مثل « لم يحلّ » ، فى حين أن الحجازيين كانوا يقولون « لم يحلل » .

وقد جاء القرآن الكريم غالباً بلهجة الحجازيين نحو [إن تمسسكم حسنة] ونحو [من يحلل عليه غضبى] ونحو [واغضض من صوتك] ونحو [ولا تمنن

تستكثر] ، وقد ورد فى التنزيل على لهجة تميم [ومن يرتدّ] ونحو [ومن يشاق الله][(١)] .

ويقول جرير وهو من تميم :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ويظهر أن هذه الظاهرة كانت من الظواهر التى اعترفت بها بشقيها اللغة النموذجية الأدبية ، ولم تعدْ بعد أن جاءت فى القرآن الكريم من ظواهر اللهجات . فهى فى أصلها من الظواهر التى كانت تفرق بين قبائل وسط الجزيرة وشرقيها و بين البيئة الحجازية ، ولكنها صارت فيما بعد صفة من صفات اللغة الأدبية المشتركة بين جميع القبائل .

كذلك مما قد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما روته كتب القراءات من أن حمزة والكسائى وخلفاً ، كانوا يقرءون [أصدق ، تصديق ، يصدفون ، فاصدع ، قصد ، يصدر] وما أشبه ذلك مما سكنت فيه الصاد وأتى بعدها دال ، كانوا يقرأون هذه الأمثلة بإشمام الصاد صوت الزاى . ومعنى إشمام الصاد صوت الزاى أن ينطق بها ظاء كتلك التى نسمعها من أفوام العوام فى مصر أى أن تكون ظاء غير لثوية .

والسر فى مثل هذا النطق هو مجاورة الصاد التى هى صوت مهموس للدال التى هى صوت مجهور ، فتأثر الصوت الأول بالثانى ، وأصبح مجهوراً مثله ، وحين نجهر بالصاد تصبح تلك الظاء المعروفة بين العوام فى مصر ، بل هى شائعة بين معظم الخاصة الآن فى بلادنا إذ ينطقون بالظاء غير لثوية .

فنحن نلحظ فى مثل هذه الأمثلة ميل بعض القراء إلى تأثر الصوت الأول بالثانى و إن لم يبلغ التأثر حد الإدغام .

---

(١) (ومن يرتد) فى سورة المائدة ، (ومن يشاق) فى سورة الحشر . على أن المدنيين نافعاً وأبا جعفر قد روى عنهما قراءة المثل الأول ومن « يرتدد » .

وإذا علمنا أن حمزة والكسائي وخلفاً ، ممن ينتمون إلى البيئة العراقية ، استطعنا أن ندرك بسهولة أن تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، قد شاع في هذه البيئة أكثر من غيرها ، لأن القراء من البيئة الحجازية يقرأون هذه الأمثلة بالصاد الخالصة . بل لقد جاء في بعض الروايات أن ظاهرة إشمام الصاد الزاي كانت شائعة في قبيلة طيء ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه . فقد كانوا يقولون « الزقر » بتفخيم الزاي بدلا من « الصقر » .

نستنتج إذن أن الحجازيين بوجه عام كانوا يلتزمون الإظهار ، ويحترزون من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة الدقة في النطق والتأني والتؤدة في الأداء ، بحيث يظهرون كل صوت ، ويعطونه حقه من جهر وهمس أو شدة ورخاوة .

وليس ينقض هذا الحكم ما عرف عن الحجازيين من عدم الهمز ، لأن للهمزة حكماً خاصاً يخالف كل أصوات اللغة ، مما سنعرض له فيما بعد .

— ٣ —

الهمـــز

تروى كتب الأدب أن أحد الرواة سأل رجلا من قريش قائلا : « أتهمز الفأرة ؟ » فلم يفطن المسئول لما أراد السائل وأجاب ساخراً : « إنما يهمزها القط » .

وقد أراد اللغوى أن يعرف ما إذا كان القرشيون يلتزمون تحقيق الهمزة في كلامهم .

وتكاد تجمع الروايات على أن التزام الهمز وتحقيقه من خصائص قبيلة تميم ، في حين أن القرشيين يتخلصون منها بحذفها أو تسهيلها أو قلبها إلى حرف مد .

على أنه قد روى أيضاً أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون فى :

رأس . بئر . لؤم

على الترتيب :

راس . بير . لوم

ويضيق المقام هنا عن تفصيل أحكام الهمزة كما روتها كتب القراءات ، فقد فُصلت لها أبواب مستفيضة حين تكون منفردة ، وحين تجتمع همزتان . ولقد تعرضت الروايات القرآنية لكل مثل منها فى القرآن الكريم ونسبت حكم الهمزة فيه من تحقيق أو غيره إلى بعض القراء .

ولا يكاد المرء يصل إلى حكم خاص يمكن نسبته إلى بيئة معينة ، نظراً لاختلاف القراء فى أحكام الهمزة اختلافا يطول شرحه . غير أننا نلحظ بوجه عام أن كتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر ونافعاً من رواية ورش ، قد تخلصا من تحقيق الهمزة . ولا غرابة فى ذلك فهما أشهر قراء المدينة ، ومن البيئة الحجازية التى اشتهر عنها عدم الهمز .

ولو أن « ابن كثير » اشترك معهما فى تلك الصفة لاستطعنا بسهولة أن نحكم على أن القراء قد التزموا ماعرف عن بيئتهم من الهمز أو عدمه . ولكن كما قررنا آنفاً قد خالف بعض القراء أحياناً فى قراءاتهم صفات اللهجات التى شاعت بين ظهرانيهم . ولئن خالف « ابن كثير » فى تسهيل الهمز ومال إلى تحقيقه وهو مكىّ ، لقد خالف عاصم فى الإمالة والإدغام رغم أنه كوفى .

نستطيع إذن أن نرجح تلك الروايات التى نسبت تحقيق الهمزة لتميم وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأن ننسب التخلص من الهمزة لمعظم البيئة الحجازية .

بقى أمر لا بد من علاجه هنا ، وهو كيف تأتى أن البيئة الحجازية التى

عرفت بالتأنى فى الأداء ، ولم يشتهر عنها إدغام أو إمالة ، أن تعمل على التخلص من الهمزة فى نطقها ؟ إذ التخلص من الهمزة نوع من الميل إلى السهولة والبعد عن التزام التحقيق فى النطق بالأصوات ؟

الحق أن التخلص من الهمزة لم يكن شائعاً فى كل القبائل الحجازية ، بل منها من كانوا يؤثرون تحقيقها . ويدل على هذا قراءة «ابن كثير» الذي التزم تحقيق الهمزة . هذا إلى أن للهمزة حكما خاصاً يخالف جميع الأصوات الأخرى ، لأنها صوت ليس بالمجهور ولا المهموس ، وهى أكثر الأصوات الساكنة شدة ، وعملية النطق بها وهى محققة من أشق العمليات الصوتية ، لأن مخرجها فتحة المزمار التى تنطبق عند النطق بها ثم تنفتح فجأة ، فنسمع ذلك الصوت الانفجارى التى نسميه بالهمزة المحققة .

لهذا مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منها فى النطق . فليس غريباً أن يتخلص منها أيضاً معظم الحجازيين ، وإنما الغريب أن يحققها قراء البيئة العراقية الذين عرف عنهم الميل إلى التسهيل من إدغام و إمالة ! على أن اللهجات لا تلتزم دائماً حالة واحدة فى كل صفاتها ، بل أحياناً تخرج عن تلك الظاهرة التى اختصت بها ، لظروف لغوية خاصة ، وحينئذ يكون واجب الباحث المدقق الكشف عن تلك الظروف الخاصة . وإذا نظرنا إلى اللهجات على أنها من المظاهر الاجتماعية ، وأنها تخضع فى قواعدها وأصولها لظروف المجتمع والبيئة ، لم يقلقنا وجود ظاهرة لغوية قد تبدو غريبة أو شاذة عما عرف عن لهجة من اللهجات .

فليست القوانين التى تخضع لها اللهجات كالقوانين الطبيعية فى الكون ، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ، بل يكتفى اللغوى عادة حين يحكم على صفات لهجة من اللهجات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها .

على أنه من الممكن أن ننسب تحقيق الهمزة إلى اللغة الأدبية النموذجية التى

أشرنا إليها آنفاً ، لغة الخاصة التى كانت تلتزم فى الخطب والشعر ، وعلى هذا فليس تحقيق الهمزة من صفات اللهجات العربية التى نريد أن نعرض لها هنا .

ويبدو أن هذا الرأى الأخير هو الراجح . فظاهرة الهمز من تحقيق أوتسهيل كانت فى أصلها من الأمور التى فرقت بين لهجات وسط الجزيرة وشرقيها وبين لهجات البيئة الحجازية . فلما نشأت اللغة النموذجية الأدبية قبل الإسلام اتخذت تحقيق الهمزة صفة من صفاتها ، وشاع هذا بين الخاصة فى جميع القبائل العربية . ولما جاء الإسلام وجد تحقيق الهمز صفة من صفات الفصاحة يلتزمها الخاصة من العرب فى الأسلوب الجدى من القول ، وإن ظلت فى نفس الوقت شائعة بين اللهجات البدوية كلهجة تميم ومن على شاكلتهم . ولهذا يعدّ تحقيق الهمز من أبرز الأمور التى اقتبستها اللغة النموذجية من غير البيئة الحجازية .

فاللغة النموذجية الأدبية وإن اتخذت معظم صفاتها من البيئة الحجازية قد تضمنت أيضاً بعض الصفات القليلة التى تنتمى لبيئة أخرى ، ومن بينها تحقيق الهمز الذى عرفت به تميم ، بل شاع عند أكثر البدو ، فقد كانوا يحققون الهمز ويعتزون بتحقيقه فى نطقهم . وقد روى عن عيسى بن عمر الثقفى أنه قال : « لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر » أى تحقيق الهمز . فهذا العالم النحوى كان يدرك تمام الإدراك أن تحقيق الهمز صفة من صفات تميم وأن هذه الصفة من أوضح الصفات التى اقتحمت حصون اللغة الأدبية المشتركة ، تلك اللغة التي اعتز بها هو وأمثاله من العلماء الأول . فبينما يرى الصفات الأخرى لتميم أقل مرتبة فى الفصاحة من نظائرها فى اللغة النموذجية ، يرى أن همز تميم هو الذى ساد بين الخاصة من العرب وأصبح لا ينتمى إلى تلك القبيلة بقدر ما ينتمى إلى اللغة النموذجية الأدبية .

والحجازيون وإن كانوا فى لهجات الخطاب يسهلون الهمز ، فقد التزموا تحقيقها فى الأساليب الأدبية من شعر أو خطابة ، أى كانوا يلجأون إلى تحقيق

الهمز كلما عنّ لهم أمر جدى يتطلب استعمال اللغة النموذجية الأدبية . هذا هو معنى ما جاء فى الجزء الأول من لسان العرب : « قال أبو زيد : أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون[1] ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا » .

فليس لهذا الاضطرار من معنى سوى أنهم كانوا يهمزون حين يلجأون إلى اللغة النموذجية وفى المجال الجدى من القول ، فحينئذ يخرجون عن عادتهم وسليقتهم فى تسهيل الهمز .

ولنا عود إلى حديث الهمز حين نتحدث عن لهجات الحضر ولهجات البدو .

أما كيف تخلصت لهجات الحجاز من الهمزة فيتضح مما روى عن قراءة أبى جعفر ونافع التى يمكن أن تلخص فيما يلى :

ا — إذا سكنت الهمزة وتحرك ما قبلها قلبت حرف مد مناسب لتلك الحركة مثل :

يؤمنون . بئس . فأذنوا

قرئت على الترتيب :

يومنون . بيس . فاذنوا

ب — الهمزة المتحركة وقبلها متحرك لها الأحوال الآتية :

١ — أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها ضم ، ويغلب فى هذه الحالة أن تبدل الهمزة واواً مثل :

يؤاخذ . الفؤاد . هزؤاً

قرئت على الترتيب :

يواخذ . الفواد . هزوا

---

(١) أى لا يهمزون . صفحة ١٤

٢ — أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها مكسور، وحينئذ تبدل الهمزة ياء مثل:

رئاء الناس . خاسئا

قرئتا على الترتيب :

رياء الناس . خاسيا

٣ — أن تكون الهمزة مضمومة وقبلها كسر و بعدها واو ، وحينئذ تحذف الهمزة و يضم ما قبلها ليناسب الواو مثل :

« مستهزئون » قرئت « مستهزون »

٤ — أن تكون مضمومة وقبلها فتح ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« ولا يطؤون » قرئت « ولا يطُون »

٥ — أن تكون مكسورة بعد كسر ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« متكئين » قرئت « متكين »

٦ — أن تكون الهمزة مفتوحة بعد فتح ، وحينئذ تسهل الهمزة بين بين[1] مثل :

أرأيتكم

(ح) الهمزة المتحركة وسكن ما قبلها ، تنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وتحذف الهمزة سواء كان هذا فى كلمة واحدة أو كلمتين مثل :

« والأخرى » قرئت « ولُخرى »

« من إلـه » « « من آـه »

وقد اشتهرت هذه القراءة عن ورش القارىء المصرى الذى تعلم فى المدينة .

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٨٤ الطبعة الثانية .

الفصل الرابع

عناصر اللهجات العربية وقبائلها

روت كتب اللغة والأدب مما ألف القدماء من علماء العربية ، صفات عدة للهجات القديمة ، ونسبت بعضا منها إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر اكتفت بالإشارة إليه على أنه مما كانت تقوله العرب .

وقد تناثرت تلك الروايات فى ثنايا الكتب ، وفى مناسبات شتى ، فأحيانا نراها فى جدل النحاة حين تعرض مسألة نحوية ، ويحاول بعض النحاة تخريجها على رأى قبيلة خاصة ، والبعض الآخر يتأولونها على رأى آخر روى عن قبيلة أخرى ، وكل من الفريقين يستمسك برأيه ويتعصب له . وقد نجد الإشارة لصفات اللهجات فى الروايات الأدبية ، أو حين التحدث عن قبيلة من القبائل العربية .

ولا بد للإحاطة بكل ما روى عن لهجات القبائل العربية من البحث والتنقيب فى بطون المؤلفات القديمة ، وجمع كل ما يمكن جمعه ، ثم ترتيبه وتبويبه والعمل على تحقيق تلك الروايات وإخراج الزائف منها .

ولسنا ندعى هنا أننا قد أحطنا بكل تلك الروايات كما رويت فى المؤلفات القديمة ، وإنما نرمى إلى علاج ما اشتهر من تلك الصفات علاجاً علميا يكشف الطريق أمام طالب اللغة العربية فى بحوثه المستقبلة . وعلى هذا فسنعرض هنا لأشهر ما روى عن اللهجات العربية القديمة من صفات .

— ١ —

ما يتعلق بالإعراب

روى النحاة فى المطولات من كتبهم عدة مسائل اختلف فيها الرأى بينهم وقد نسبوا هذا الخلاف الإعرابى إلى قبائل معينة على أنهـا لهجاتهم وما تستطيعه ألسنتهم .

ويمكن أن نلخص بعض تلك المسائل فيما يلى :

١ — ينصب الحجازيون خبر ليس مطلقا ، ولـكن بنى تميم يرفعونه إذا اقترن « بإلا » حملا لها على « ما » .

ثم يروى النحاة لهذا قصصاً ليس مصدرها فى الحقيقة إلا الصراع العلمى بين طائفتين منهم ، فقد زعموا أن الأصمعى قال : « كنا عند أبى عمرو بن العلاء يوما ، فجاء عيسى بن عمر الثقفى فقال : يا أبا عمرو ما شىء بلغنى عنك تجيزه ؟ قال ما هو ؟ قال بلغنى أنك تجـيز ليس الطيب إلا المسكُ ! فقال أبو عمرو : هيهات ، نمت وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، ولا تميمى إلا وهو يرفع ! ثم قال لليزيدى ولخلف الأحمر : اذهبا إلى أبى المهدى ولقناه الرفع فإنه لا يرفع ، ولأبى المنتجع بن نبهان التميمى ولقناه النصب فإنه لا ينصب . فذهبا إلى أبى المهدى فوجداه يصلى ، فلما قضى صـلاته التفت إليهما وقال : ما خطبكما ؟ قالا جئنا نسألك عن شىء من كلام العرب ، فقال هاتيا ، قالا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسكُ ! ؟ فقال تأمرانى بالـكذب على كبر سنى ؟ ! فأين الزعفران وأين الجاوى ؟ ! فقال خلف : ليس الشراب إلا العسلُ ، فقال : فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر . قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها . فقال : هذا

كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ الله ، فقال اليزيدى : ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله والعمل بها . فأعادها أبو المهدى بالنصب وقال لهما : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى . ثم أتيا أبا المنتجع فقال له خلف : كيف تقول ليس الطيب إلا المسكَ ؟ ! فقالها ورفع ، فجهدا به أن ينصب فأبى إلا الرفع . ثم رجعا إلى أبى عمرو بن العلاء وأخبراه الخبر وعيسى عنده لم يبرح ، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال له : ولك الخاتم بهذا ، والله فقت الناس » !

٢ — قسم النحاة « ما » النافية إلى حجازية وتميمية ، وقرروا أن خبر « ما » يكون منصوبا عند الحجازيين ، ومرفوعاً عند بنى تميم . وقد اشترط النحاة شروطاً لنصب خبر « ما » عند الحجازيين ، مما هو معروف فى المطولات من كتب النحو .

٣ — ينصب الخبر بعد « إن » النافية فى لهجة أهل العالية ، ويروى أنه سمع من بعضهم [إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية] .

٤ — بنو أسد يصرفون ما لا ينصرف ، ويقع منهم ذلك فيما علة منعه الوصفية وزيادة الألف والنون ، فيقولون [لست بسكرانٍ] .

٥ — لهجة تميم تنصب تمييز « كم » الخبرية مفرداً ، ولهجة غيرهم توجب جره وتجيز إفراده وجمعه . فبنو تميم يقولون : كم درهما أنفقت ! وغيرهم يقولون : كم درهمٍ أنفقت ! وكم عبيدٍ ملكت ! ولهذا كان قول الفرزدق [كم عمة لك يا جرير وخالة] موضع نقاش وجدل بين النحاة يمكن الرجوع إليه فى المطولات من كتبهم .

٦ — « لعل » تعمل الجر فى اسمها عند عقيل ، قال شاعرهم :

لعل اللهِ فضلكم علينا ...

٧ — وتعمل « متى » عمل « من » الجارة عند هذيل ، قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت　　متى لججٍ خضر لهن نئيج

هـذه هي بعض أمثلة مما روى النحاة في كتبهم ، ونسبوه إلى اختلاف اللهجات العربية . والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابي لا يمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم ، وحاول كل فريق أن يأتي بجديد في تلك القواعد الإعرابية التي ملكت عليهم مشاعرهم ، وصرفتهم عن كثير من البحوث القيمة في اللغة . فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة ، وإنما التزام الإعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر . وقد كان الإعراب من الظواهر اللغوية التي عني بها الخاصة من العرب في خطبهم وشعرهم ، وعدّ بينهم مما يفخر به الأديب ويمهر في مراعاته . أما في لهجاتهم ولغة التخاطب بينهم فلا نكاد نعلم شيئاً عن قواعد إعرابهم ، وعما التزموه في تحريك أواخر الكلمات أو إسكانها . فالإعراب كما نعرفه لم يكن إلا مسألة مواضعة بين الخاصة من العرب ، ثم بين النحاة من بعدهم ، ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب . ويدل على هـذا شعورهم بقواعده وقوانينه منذ العهد الجاهلي ، فإذا خرج أديب عن تلك القواعد عيب عليه هذا .

وإلا فكيف نتصور من الناحية الصوتية أن إنساناً يعجز عن نصب خبر « ما » أو نصب اسم « لعل » أو جر تمييز « كم » الخبرية ؟ !

فمراعاة الناحية الإعرابية كانت من صفات اللغة الأدبية ، بل لقد كون فيها عنصراً عظيم الأهمية ، عدّ منذ الجاهلية مقياساً من مقاييس الفصاحة .

ويظهر هذا الاهتمام بظاهرة الإعراب في تلك اللغة الأدبية ، من تلك الأمثلة التي يسوقونها للحن بعض الشعراء والكتاب . فقد رووا أن رجلا لحن في حضرة النبي فقال رسول الله : أرشدوا أخاكم . ولا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ إلا إذا كان ينطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لا تراعى

فى حياته العادية حين ينطلق على سجيته . كذلك سمع عمر بن الخطاب لحناً من الأعراب ، وكذلك على بن أبي طالب . وقد عاب العرب على النابغة الذبيانى وبشر بن أبى خازم الإقواء فى شعرهما . وليس الإقواء فى الحقيقة إلا لحناً فى فى الإعراب وخروجاً عن قواعده . ولم يستطع أحد أن يصارح النابغة ، وهو من خاصة الخاصة ، بهذا العيب ، حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه غناء قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتدى　　عجلان ذا زاد وغير مزودِ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا　　وبذاك حدثنا الغراب الأسودُ

ففطن لهذا وغيره إلى قوله [وبذاك تنعاب الغراب الأسود] .

كما عيب على الفرزدق قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع　　من الناس إلا مسحتا أو مجلفُ

وأمثلة هذا اللحن الإعرابى فيما سموه بعصور الاحتجاج كثيرة ، ملئت بها كتب اللغة والأدب ، وكلها تدل على قدر اهتمام القوم بناحية القواعد الإعرابية منذ العصر الجاهلى[1] .

— ٢ —

ما يتعلق بالناحية الصوتية

حين نعتمد على تلك الروايات المبتورة الناقصة التى رويت لنا متناثرة فى بطون كتب اللغة والأدب ، نجد أنفسنا أمام صفات صوتية نسبت لبعض القبائل دون تحقيق كاف فى الرواية والنقل . فلا عجب أن يتخللها لهذا ، بعض الخلط وبعض اللبس الذى لا سبيل إلى التخلص منه إلا بعد دراسة اللهجات الحديثة دراسة مستفيضة مبنية على أسس علمية صحيحة . على أننا حين نستعرض تلك

(١) أنظر قصة الإعراب صفحة ١٢٥ من كتاب « أسرار اللغة » للمؤلف .

الروايات ، أو بعبارة أدق ما اشتهر منها ، نستطيع أن نقسم القبائل العربية بصفة عامة إلى طائفتين ، يشترك أفراد كل طائفة فى صفات صوتية واحدة :

١ — فهناك قبائل عربية عاشت فى صحراء الجزيرة منعزلة ، مما أدى إلى اصطباغها بصبغة خاصة .

٢ — وهناك قبائل متحضرة عاشت فى بيئة حضرية قريبة من المدن العربية أو فى ديار المدن نفسها ، وتلك قد اتصفت بصفات صوتية تخالف صفات الأولى . وقد اتصلت هذه القبائل فى بيئتها الحضرية بلغات أجنبية أثرت فى لهجتها إلى حد ما . فالقبائل التى عاشت فى مدن الحجاز أو متاخمة لها ، والتى عاشت فى مدن اليمن المتحضرة ، وكذلك تلك التى اتصلت بعض الاتصال بمدن العراق ، نراها جميعاً ذات صبغة واحدة ، تخالف تلك التى انعزلت فى صحراء الجزيرة وباديتها .

وقد نجد بعض صفات قليلة مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويصعب فى بعض الأحيان تبريرها ، ولكن حين تتم معرفتنا بتنقلات تلك القبائل ، واتصالها بغيرها ، سنعرف السرّ فى هذا الاشتراك . فلعل من القبائل البدوية ما تأثر فى بعض النواحى ببيئة حضرية ، وكذلك العكس .

— ٣ —

عوامل التطور وعوامل الجمود

يعرض المحدثون فى علاجهم للهجات وتتبعها فى أزمنة مختلفة إلى الحديث عما يمكن أن يسمى بعوامل التطور ، وعوامل الجمود أو الاستقرار ، ويكادون يجمعون على أن لهجات البيئات البدائية ، تختلف عن لهجات البيئات الحضرية فى نسبة الخضوع لهذه العوامل . ففى كل بيئة لغوية ظروف تدفع إلى تطور الكلام وتغيره فى كثير من الظواهر ، وظروف أخرى تعمل على استقرار هذه

الظواهر وتحصنها فلا يطرأ عليها تغير أو تحور. غير أن الغلبة تكون دائماً لعوامل التطور، فلا تبقى اللهجة فى كل ظواهرها على حال واحدة بعد مرور قرن أو قرنين. هذا هو ما يفسر لنا اختلاف نسبة التطور فى اللهجات المتباينة، ففى بعض اللهجات نراه شديداً يصيب كل نواحى اللهجة وظواهرها، وفى البعض الآخر نرى التطور ضئيلا لا يكاد يعدو أموراً معينة فى هذه اللهجة.

فإذا نحن استعرضنا بيئات القبائل العربية على ضوء تجارب المحدثين من علماء اللغات توقعنا أن نرى شبهاً كبيراً بين ما يسمونه بالبيئات البدائية، و بين حياة البدو والقبائل البدوية. ففى القبائل البدوية التى لا تكاد تستقر على حال عوامل تسارع بلهجاتها إلى التطور والتغير:

(١) فالانعزال بين الجيل الناشىء وجيل الكبار حولهم لا يتيح الفرص الكافية لتلقى اللغة عن الآباء والأمهات وتكرر سماع الألفاظ والعبارات، مما يترتب عليه نقص فى التقليد ودقة المحاكاة. ففى مثل هذه البيئات قد تدعو ظروف الحياة ومشقة العيش إلى انشغال الآباء والأمهات عن أطفالهم فلا يتصلون بهم إلا لماماً. وهنا ينشأ الطفل بعيداً عن أهله بعض البعد، مستقلا عنهم بعض الاستقلال، فلا يسمع منهم إلا قليلا، ولا يتلقى عنهم إلا نادراً. وأساس النمو اللغوى هو المحاكاة وتكرار السماع. ولا يتقن الطفل تقليد لغة الكبار ونطقهم إلا بتكرر السماع منهم فى كل ساعة من ساعات اليوم. بل إن التقاليد فى بعض البيئات البدائية تأبى اتصال الطفل بأبيه اتصالا وثيقاً، فلا يكاد يتحدث معه، ويعدّ حديث الطفل أمام الكبار ذنباً لا يغتفر، فكأنهم يتصورون الطفل قد خلق لِيُرى لا لِيُسمع. فلا يسمع الطفل من الكبار حوله إلا قليلا، ولا يجد منهم من يصلح له نطقه أو يهديه فى كلامه، فينشأ هذا الطفل معتمداً على نفسه حيناً وعلى الصغار من أمثاله حيناً آخر، يقيس ما لم يسمع على ما سمع، وقد يخطىء فى هذا القياس ويذيع هذا الخطأ بين لداته من الأطفال، وينطق بالأصوات منحرفة

بعض الانحراف ، فلا يجد من يقوم له نطقه ، ويشب عليه دون شعور منه أو ممن حوله من الكبار . وهكذا نرى الجيل الناشىء قد اصطنع طريقة أخرى فى نطق بعض ألفاظه وعباراته وكون لنفسه خصائص تشيع بينهم وتصبح فيما بعد صفة جديدة متميزة لم تكن من قبل فى لهجة أهليهم وذويهم .

(٢) هذا إلى أن القبائل البدوية دائمة الرحيل والتنقل ، لا تكاد تستقر فى مكان حتى تلجأ إلى غيره فى طلب التجارة أو الكلأ ، فتتبدل الحال غير الحال والمناظر غير المناظر على هؤلاء الصغار . فهم فى الجنوب فى منطقة صخرية وفى الشمال فى أخرى رملية ، ولهم فى الجنوب جيران ذوو لهجات ونطق معين قد يخالف جيرانهم فى الشمال . فيترك كل هذا أثراً فى نطقهم ويكون له صدى قوى فى نمو لغتهم .

(٣) فإذا أضيف إلى هذا ما عرف عن البدو من قلة عنايتهم بالنطق وسرعتهم فى الأداء ، وجدنا التطور فى لهجات البدو يأخذ صوراً عدة فى زمن قليل . فليس بين البدو طبقات اجتماعية تقاس بمقاييس الحضر من رغبة فى تجويد النطق وتخير الألفاظ . فلا يكادون يتكلمون إلا بقدر ، ولا يعمدون فى كلامهم إلى مستوى خاص يناسب مقام الكلام .

ومع كل هذا أو رغم كل هذا فللبدو من حياتهم القبلية وظروفهم الاجتماعية ما يساعد على استقرار لهجاتهم :

(١) فهم يتعصبون لبعض صفات الكلام التى اشتهرت عنهم ويستمسكون بكل ما يميزهم من غيرهم . وإنما يكون هذا حين يشعرون بمثل هذه الصفات . فإذا عرفوا أن لهم نطقاً معيناً بالقاف أو الهمزة عرف عنهم واشتهروا به ، استمسكوا بمثل هذا النطق لا يحيدون عنه ولا يسمحون لأبنائهم بالحيدة عنه . ويشبه هذا ما نعرفه عن بعض جهات الصعيد فى مصر حين يقولون لأبنائهم : إن من يغير لهجته كمن يغير دينه — ومثل هذه العصبية لا تكون إلا حين يشعرون

بصفة معينة ، ويدركون الفرق بينهم و بين غيرهم فيها إدراكا تاماً . أما حين تكون الصفات غامضة عليهم ، دقيقة على إدراكهم فنراهم لا يكادون يعبأون بها ، بل يتركونها وشأنها تتغير فى أفواههم وعلى ألسنتهم دون عمد أو شعور بمثل هذا التغير أو التحور .

(٢) هذا إلى أن انعزالهم عن غيرهم وانطواءهم على أنفسهم و بغضهم لكل ما هو أجنبى عنهم ، لا يسمح بأى تطعيم يمكن أن يصيب لهجتهم من بيئة أخرى .

أما فى البيئة الحضرية فعوامل التطور إن وجدت ، ليس لها نفس القوة التى نراها عادة فى البيئة البدوية :

(١) فنى الحضر طبقات من الناس تقاس مراكزهم الاجتماعية بمقاييس لغوية فى بعض الأحيان . وتتطلب حياة الحضر العمل على تحسين النطق وتخير العبارات ، حتى ينال المرء ما يشتهى من طموح ومركز اجتماعى . فلا تكاد تتم مراحل نمو اللغة عند أطفال الحضر حتى يرون أنه من الضرورى لهم أن يعملوا على تجويد نطقهم ، وتحسين عباراتهم ، وتخير ألفاظهم كى يصلوا إلى مايطمحون إليه ويصبح لهم شأن فى مجتمعهم المتحضر . ولهذا لا يكاد ينحرف أحد منهم فى نطقه أو تقليده للغة الكبار حولهم . فينشأ الطفل الحضرى بين أحضان أهله مدللا ، يكثرون من الحديث إليه ، ويستمتعون بكل ما ينطق به ، ويراقبون فى متعة وسرور نمو كلامه ، ويصلحون ما يزل فيه أو ينحرف عنه . ويترتب على مثل هذه الظروف حالة من الاستقرار فى لهجة الكلام بين أهل الحضر تفوق نسبياً ما شهدناه بين البدو .

(٢) ومع هذا فنى الحضر ما يمكن أن يساعد على التطور كقبول أهله لكثير من العناصر الأجنبية التى تنزح إليهم ، واتصالهم بكل جديد يطرأ على الحياة الإنسانية — فللمخترعات الجديدة صداها فى ألفاظهم ، وللتجارة الأجنبية أثرها

فى كلماتهم ، فهم مستعدون للإعارة والاستعارة فى ألفاظ اللغة وأساليبها أكثر من استعداد البدو لمثل هذا . ولقد كانت مكة فى عصور ما قبل الإسلام مهداً لتجارة رائجة واسعة النطاق ، وكان ينزح إليها قوم من الأعاجم يؤسسون فيها بيوتاً تجارية عظيمة ، ويجلبون إليها منتجات من كل الأمم المعروفة حينئذ . ولا نستطيع أن نتصور كيف يمكن أن يتم مثل هذا دون أن يترك أثراً مّا فى لهجة مكة .

ولهذا كله لا ندهش حين نرى الروايات التى رويت عن لهجات البدو تتميز بخصائص تخالف تلك التى عرفت عن الحضر . كذلك لا ندهش حين نلحظ أن لهجة البدو بوجه عام كانت أسرع إلى التطور والتغير ، وأن لهجات البيئة الحجازية ، قد حافظت فى مجموعها على خصائص قديمة تنتمى إلى السامية الأولى .

— ٤ —

صفات اللهجة بين البدو والحضر

١ — الميل إلى الإمالة :

تحدثنا آنفاً عن طبيعة الإمالة من الناحية الصوتية ، وقلنا إنها المرحلة الثانية للصوت المركب الذى يسميه المحدثون Diphthong ، كما قررنا أنه قد تكون إمالة إلى الكسر فى حالة ai ، و إلى الضم فى حالة au. وقد وقفت القبائل البدوية عند مرحلة الإمالة ؛ ولم تتطور الإمالة فى ألسنتهم إلى الفتح كما حدث عند الحجازيين .

و إذا نسبنا الإمالة إلى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها فليس معنى هذا أن جميع هذه القبائل يميل بنسبة واحدة ، بل يظهر أن إمالة قبائل وسط الجزيرة

كانت تلك الإمالة الشديدة ، أمّا إمالة القبائل المتاخمة لمدن العراق فقد كانت إمالة خفيفة ، أى قريبة من الفتح .

هذا حين تكون الإمالة نتيجة أصل يائى أو واوى كما أشرنا آنفاً كإمالة نحو « باع ، قام » ، أما حين تكون الإمالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما فى إمالة نحو « كتاب » ، فتلك صفة كانت أكثر شيوعاً فى القبائل البدوية ، منها فى القبائل المتحضرة التى عنيت بتحقيق الأصوات ومنع تأثرها بعضها ببعض .

٢ — الميل إلى الضم أو الكسر :

مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفى المسمى بالضمة ، لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية . فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم . والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان ، لأنهما من أصوات اللين الضيقة (١) .

لهذا تحل إحداهما محل الأخرى فى كثير من الظواهر اللغوية . غير أن الكسر دليل التحضر والرقة فى معظم البيئات اللغوية ، فهى حركة المؤنث فى اللغة العربية ، والتأنيث عادة محل الرقة ، أو ضعف الأنوثة . ولا شك أن الحضرى أميل إلى هذا بوجه عام . هذا إلى أن الياء التى هى فرع عن الكسرة تعدّ العلامة الأساسية للتصغير فى لغتنا العربية . بل إن من المحدثين من يؤكد لنا أن الكسرة فى كثير من اللغات ترمز إلى صغر الحجم والرقة وقصر الوقت (٢) .

ومما نلاحظه أن اللغة العربية فى تطورها إلى اللهجات الحديثة مالت فى غالب الأحيان إلى التخلص من بعض ضماتها ، وإبدال الكسرة بها حين استقرت فى المدن والبيئات المتحضرة .

---

(١) أنظر كتاب اللغة ص ٣٨ .

(٢) أسرار اللغة صفحة ٨٠ .

ولسنا نعنى بهذا أن لهجات البدو قد خلت من الكسرات ، أو أن لهجات الحضر لا تعرف الضمات ! وإنما كل الذى نهدف إليه هو أنه إذا رويت لنا الكلمة بروايتين : إحداهما تشتمل على ضم فى موضع معين من هذه الكلمة ، والرواية الأخرى تتضمن الكسر فى نفس الموضع من الكلمة ، رجحنا أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمى إلى بيئة بدوية ، وأن المشتملة على الكسر تنتمى إلى بيئة حضرية . كذلك نرجح أن الروايتين أو الصيغتين كانتا تستعملان فى زمن واحد ولكن فى بيئتين مختلفتين . فليس إحداهما بالأصل والأخرى فرع عنها ، أو ليست إحداهما بمثابة التطور للأخرى ، بل إن الصيغتين قد وجدتا معا وعاشتا معا فى عصور ما قبل الإسلام . ويشبه هذا ما نسمعه فى بعض اللهجات المصرية من النطق بكلمات مثل : [زهق وطهق وصفر] مرة بالضم وأخرى بالكسر ، غير أنا نلحظ أن النطق بالضم يشيع فى البيئات البدائية وبين الجفاة الخشنين من الرجال ، فى حين أن النطق بالكسر نسمعه غالباً فى المدن وفى أفواه النساء بصفة خاصة .

فإذا استعرضنا ما روى لنا عن اللهجات العربية القديمة ، وجدنا قدراً كبيرا من الأمثلة التى تؤيد ما نذهب إليه هنا :

فهناك رواية تجمع عليها كتب اللغة وهى تلك الظاهرة التى تسمى بالمعاقبة الحجازية . ويفسرها علماء اللغة بقولهم إن الواو فى مثل « صوّام » ينطق بها ياء عند الحجازيين فيقولون « صيّام » . ويفهم من كلام النحاة وأصحاب المعاجم أن هذه الظاهرة كانت مطردة ، فكان الحجازيون يقولون : [صيّام ، نيّام ، صيّاغ ، قيّاد] بدلا من : [صوّام ، نوّام ، صوّاغ ، قوّاد] .

فإذا تذكرنا ما نعرفه من دراسة الأصوات وطبيعتها ، وجدنا أن « الواو » ليست فى الحقيقة إلا امتدادا للضم مع فرق طفيف فى وضع اللسان ، وأن « الياء » هى امتداد للكسر مع نفس الفرق الطفيف فى وضع اللسان . فكأن الحجازيين

كانوا يميلون إلى الكسرة ، فى حين أن غيرهم من البدو كانوا يميلون إلى الضم .

انظر أيضاً إلى الروايات الآتية التى وردت فى لسان العرب :

١ — بعض من فزارة كانوا يقولون : « كسايان » بدلا من « كساوان » . وفزارة من غطفان تلك القبيلة التى عاشت بالقرب من الحجاز وربما قد تأثرت بما شاع فيه .

٢ — كلمة « حيث » رويت فى صورة أخرى هى « حوث » ونسبت هذه الصورة الأخيرة لقبيلة طيء وقيل تميم ، وكلاهما من القبائل البدوية التى آثرت الضم فى كثير من الصيغ .

٣ — يقال « ما أعيج به » أى ما أعبأ به ، ولكن بنى أسد كانوا يقولون « ما أعوج » .

٤ — حكى عن بنى « سليم » وهم من القبائل الحجازية أنهم كانوا يقولون « مِنذ » بكسر الميم فى « مُنذ » .

٥ — « مكيل » اسم المفعول من كال يكيل ، وينطق به بنو أسد « مكول » .

٦ — المشهور هو « نما ينمو » ، ولكن حكى عن بعض بنى سليم أنهم قالوا « ينمى » ، وسئل جماعة من بنى سليم عن الواوى فلم يعرفوه .

٧ — المشهور الشائع فى اسم الموصول لجمع المذكر هو « الذين » ، وقد روى لهذه الصيغة نظير هو « اللذون » ، وينسبه بعض الرواة لهذيل وبعضهم ينسبه لعقيل . ويظهر أن نسبته لعقيل أدق أو أرجح لأنها من القبائل البعيدة عن البيئة الحجازية ، فهى أقرب إلى التأثر بلهجة تميم ومن على شاكلتهم . ويروى الرواة شاهداً من الشعر وهو :

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا

على أنّا لا نعتمد فى ظواهر اللهجات وخصائصها على لغة الشعر وأمثلته ،

فكما قلنا آنفا لقد نظم الشعر باللغة النموذجية المشتركة بين القبائل جميعاً ، ولا يصح لهذا أن يشتمل على الصفات الخاصة ببعض اللهجات . فلعل هذا البيت قد اشتمل فى أصله على « الذين » وقد غيره الرواة ليجعلوا منه شاهدا على أن « اللذون » قد سمعت من بعض القبائل .

٨ — يقال لنا أن بنى تميم يعربون « أمس » وعليه فيجوز فيها « أمسُ »، ولكن الحجازيين يلتزمون فيها حالة واحدة هى « أمسِ » .

ويظهر أن استقراء هذه الرواية قد اعتوره بعض النقص ، وأن الحقيقة هى أن تميما كانت تلتزم فى الكلمة حالة واحدة هى « أمسُ » بضم السين .

٩ — قرأ يعقوب وحمزة وهما عراقيان أو ممن تأثروا بالبيئة البدوية الكلمات (عليهم ، إليهم) بضم الهاء بدلا من المشهور الشائع فى البيئة الحجازية بكسرها . بل لقد روى فى القراءات القرآنية أن « قُبُلا » فى قوله تعالى « وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » على لغة تميم ، وأن القراءة « قِبلا » على لغة كنانة . كذلك قيل لنا إن قراءة « أئذا مُتنا » على لغة تميم ، وقراءة « أئذا مِتنا » على لغة الحجاز . كذلك قرئت الكلمة « سخريا » بضم السين وكسرها وروى لنا أن الضم على لغة تميم ، وأن الكسر على لغة قريش ، فى قوله تعالى : « اتخذناهم سخريا » .

١٠ — وأخيراً لعل من هذه الظاهرة ماروى عن بنى كلب وسمى « بالوكم » حيناً وبالوهم حينا آخر ، فقد قيل لنا إنهم يكسرون كاف الخطاب فى « عليكم » وهذا هو « الوكم » ، كما يكسرون ضمير الغيبة فى « منهم » وهذا هو الوهم .

وبنو كلب هؤلاء فرع من قضاعة ، ترددت مساكنهم بين تخوم الشام وما يقرب من بلاد العراق . فهل كان هذا لأنهم تأثروا بما انتشر فى تلك البقاع من لغات سامية كالآرامية والعبرية وكلاهما آثر الكسر فى مثل هذه الضمائر ؟

أو ربما يقال إن كسر هذه الضمائر كان صفة من صفات اللهجات الحجازية

وأن ضمها قد شاع فى لهجات البدو ، وأن النطقين قد عاشا معاً جنباً إلى جنب فى عصور ما قبل الإسلام . ثم إن اللغة النموذجية قد انتهجت النهج البدوى فى هذه الضمائر ، لأن المشهور الشائع فى نطقها هو أن تكون بالضم .

أما كيف يمكن أن بنى كلب قد تأثروا بلهجات الحجاز ، فذلك لأنهم عاشوا على حدود الشام أى على الطريق الذى كان الحجازيون يسلكونه دائماً فى تجارتهم مع بلاد الشام ، فبيئتهم ليست إلا امتداداً طبيعياً للبيئة الحجازية .

تلك هى بعض الروايات التى توضح لنا بجلاء ميل البدو إلى الضم وإيثار الحضر للكسر ، أى أن قبائل الحجاز بوجه عام كانوا يميلون إلى الكسر ، فى حين أن « تميما » ومن على شاكلتهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها كانوا يضمون . وهناك روايات أخرى كثيرة وردت فى لسان العرب وفى المخصص وتؤيد ما نذهب إليه هنا ، ولكن هناك أيضاً بعض الروايات التى تخالف فى مجموعها هذا الرأى ، والتى تحتاج إلى تحقيق مستقل أو تفسير خاص ، ولعلها تعزى إلى خطأ فى الرواية أو اختلاف فى معنى الصيغتين .

على أنه حين نتساءل عن أى الصوتين أيسر فى النطق أو أيهما الذى يحتاج إلى جهد عضلى أكثر ، نجد أن الضم هى التى تحتاج إلى جهد عضلى أكثر ، لأنها تتكون بتحرك أقصى اللسان ، فى حين أن الكسر تتكون بتحرك أدنى اللسان ، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه . وقد كنا نتوقع من أجل هذا أن يشيع الكسر في بيئة البدو حيث الميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، وبذل أقل جهد ممكن فى أثناء النطق متى تحقق الناطق أن مثل هذا الجهد سيحقق له الهدف من الكلام . ولكن الضم كما قلنا آنفاً صفة من صفات الخشونة التى يحرص عليها البدوى والتى يدرك أنها تميزه من غيره ، ولذلك استمسك بها وتعصب لها فى غالب الأحيان .

وقد حدث فى النادر من الأحيان أن نسى البدوى نفسه وانطلق على سجيته

فنطق بالكسر حيث كنا نتوقع منه الضم . هذا هو ما يمكن أن يفسر لنا تلك الروايات النادرة ، على افتراض صحتها ، التى جاء فيها الكسر منسوبا لقبيلة بدوية .

وليس يقتصر أمر اللهجات على الضم والكسر ، بل قد تروى الكلمة بصيغتين تشتمل إحداهما على الضم والأخرى على الفتح ، أو إحداهما على الكسر والأخرى على الفتح . وفى مثل هذه الرواية يجب أن نلجأ فى تفسيرها إلى ذلك القانون العام أو الظاهرة العامة التى نسميها بانسجام أصوات اللين فى الكلمة الواحدة Vowel - Harmony ، وهى ظاهرة من ظواهر التطور فى حركات الكلمات . فالكلمة التى تشتمل على حركات متباينة تميل فى تطورها إلى الانسجام بين هذه الحركات ، حتى لا ينتقل اللسان من ضم إلى كسر إلى فتح فى الحركات المتوالية . وقد برهنت الملاحظة الحديثة على أن الناطق حين يقتصد فى الجهد العضلى يميل دون شعور منه أو تعمد إلى الانسجام بين حركات الكلمات .

وللانسجام درجات بعضها أيسر من بعض : فتوالى الضم ثم الكسر ثم الفتح أشق من توالى ضمتين ثم الفتح ، أو توالى كسرتين ثم الفتح . وربما كان أيسر من هذا وذاك أن تصبح هذه الكلمة مشتملة على ضم ثم فتحتين .

ولسنا فى كل حال نتوقع أن يلتمس الناطق أيسر السبل ، وإنما نتوقع منه أن يقوم ببعض الانسجام أيًّا كانت درجته من اليسر .

وقد استطعنا على ضوء هذه الظاهرة أن نفسر بعض الروايات التى رويت عن اللهجات القديمة ، ووجدنا بوجه عام أن لهجات البدو أميل إلى هذا الانسجام من لهجات الحضر التى فيها تحقق الأصوات نتيجة التأنى والتؤدة فى النطق .

فالانسجام كظاهرة صوتية لا يقتصر أمره على لهجات البدو ، بل قد يوجد أيضاً فى بعض لهجات الحضر ولكن بنسبة أقل :

١ — فإذا قيل لنا إن الحجازيين كانوا يقولون « برأت من المرض » وسائر العرب يقولون « برئت » ، أمكننا بسهولة أن نتصور أن الأصل هو « برئت » ، وأن نوعاً من الانسجام بين الحركات قد أدّى إلى الصيغة الأخرى « برأت » .

ولاشك أن الراوى الذى سمع هذه الصورة من الحجازيين لم يسمعها فى العهود الجاهلية ، وإنما سمعها وقت تدوين اللغة أى بعد مرور ما يقرب من قرنين على ظهور الإسلام ، وفى خلال هذه الفترة قد تمّ مثل هذا التطور .

ففى ظاهرة الانسجام نستطيع دائماً أن نميز الأصل من الفرع ، وأن نتبين ما كانت عليه الكلمة وما صارت إليه .

٢ — ومما يروى لنا أن الكلابيين كانوا ينطقون بكلمة « تفاوت » بفتح الواو . ولكن القرآن الكريم قد استعملها بضم الواو ، مما يؤكد لنا أن الصورة القرآنية هى الأصل وأن الأخرى فرع لها .

والكلابيون ممن تأثروا بالبيئة الحجازية .

٣ — وأهل تهامة وهم أقرب إلى البيئة الحجازية كانوا يقولون فى «العَضُد» «العُضُد» بضمتين . وقد استعملت الصيغة الأولى فى القرآن الكريم ، مما يبرهن على أنها الأصل .

تلك هى أشهر الأمثلة التى رويت للانسجام فى البيئة الحجازية ، وهى إذا قيست بما روى عن البيئة البدوية تعدّ قليلة الأهمية :

١ — فقد روى عن تميم وأسد أنهم كانوا ينطقون باطراد كلمات مثل : [بعير ، شهيد ، زئير] بكسر الحرف الأول . وليس هذا فى الحقيقة إلا نوعاً من الانسجام بين حركات هذه الكلمات . وعلى هذا لا معنى لما يشترطه بعض اللغويين من أن الحرف الثانى فى مثل هذه الكلمات يجب أن يكون من حروف الحلق !! ويظهر أن الراوى قد سمع من تميم كلمات تصادف أن كانت مشتملة على حروف الحلق . وليست هذه الظاهرة التميمية إلا انسجاماً بين الحركات يشبه

ما نسمعه الآن فى بعض اللهجات الحديثة من نطق [كبير ، بعيد ، نظيف] بكسر أولها .

٢ — «سكارى وكسالى» كلمتان وردتا فى القرآن الكريم وقد ضم الحرف الأول فى كل منهما ، ولكن المعاجم العربية تحدثنا أن بنى تميم وأسد كانوا ينطقون بهما وقد فتح الحرف الأول منهما . ولا يمكن تفسير مثل هذا إلا على ضوء الانسجام بين الحركات فى كل من الكلمتين .

٣ — « سنفرغ لكم أيها الثقلان » ، قيل لنا إن هناك قراءة لكلمة « سنفرغ » بفتح الراء على لغة تميم .

٤ — « غشاوة » قرئت بفتح الغين على لغة ربيعة . ولكن ربيعة شعب عظيم يشتمل على عدة قبائل بعضها ممن تأثر بالحضر فى بلاد الحيرة وبعضها من البدو كبكر بن وائل . فإذا صحت هذه الرواية يمكن أن ينسب هذا النطق لقبيلة بدوية مثل بكر بن وائل .

٥ — هناك أمر مطرد تجمع عليه كتب اللغة وهو نطق قبيلة طيئ لأفعال مثل : [بقى ، فنى ، رضى] بفتح الحرف الثانى فى كل منها .

٦ — «مافتئت أذكره» ، قيل لنا إن بنى تميم كانوا يقولون فيها «مافتأت» فيفتحون التاء من هذا الفعل .

٧ — المشهور فى الفعل « مات » أن مضارعه يموت أو يميت ، ولكن بنى طيئ كانوا يقولون « يمات » .

٨ — المشهور فى الفعل « إخال» هو كسر همزة المتكلم ، ولكن بنى أسد كانوا ينطقون بها مفتوحة .

ولسنا ندعى بعد كل هذا أن ما سقناه هنا من مبادئ عامة ، تفسر لنا كل الروايات التى وردت فى المعاجم لكلمات رويت بحركات مختلفة . فبعض الروايات التى عثرنا عليها لا تزال تحتاج إلى تحقيق ، ولعل بحوث المستقبل تكشف لنا عما غمض علينا .

٣ — الميل إلى الأصوات الشديدة أو الرخوة :

مالت القبائل البدوية إلى الأصوات الشديدة فى نطقها ، وهو أمر طبيعى يلتئم مع ما عرف عن البدو من غلظة وجفاء فى الطبع . لأن هذه الأصوات سريعة النطق بها ، حاسمة ، ثم إن ما فيها من عنصر انفجارى ينسجم وسرعة الأداء عند الأعراب .

وبهذا يتميز نطقهم بسلسلة من الأصوات القوية السريعة التى تطرق الآذان كأنما هى فرقعات متعددة ، فى حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، إذ فيها من التؤدة والليونة ما ينسجم مع بيئتهم وطبيعتهم .

فالباء والتاء والدال والكاف ، وغيرها من الأصوات الشديدة ، قد نسمعها فى أفواه المتحضرين (على الترتيب) :

فاء . سينا . زايا . شينا

هذا إلى أن الأصوات الشديدة تحتاج إلى جهد عضلى أقل من نظائرها الرخوة . ولذلك نلحظ أن الطفل الصغير قد يلتمس الصوت الشديد بدلا من نظيره الرخو ، فيقول مثلا : « تتى » بدلا من « ستى » ، وكذلك البدوى الذى يقتصد من الجهد العضلى فى أثناء نطقه ، يميل فى كثير من الأحيان إلى قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد .

فإذا رويت لنا الكلمة بروايتين : فى إحداهما تشتمل الكلمة على صوت شديد وفى الأخرى على نظيره الرخو ، أمكن أن ننسب الصيغة المشتملة على الصوت الشديد إلى بيئة بدوية ، وأن ننسب الأخرى إلى بيئة حضرية . هذا إذا لم نعرف أى الصيغتين هو الأصل وأيهما هو الفرع . والطريق الوحيد لمعرفة الأصل والفرع فى مثل هذه الحال هو الرجوع إلى النصوص القديمة الموثوق بها . فإذا وردت الكلمة فى نص جاهلى ، أو نص منسوب إلى صدر الإسلام ، أو وردت فى القرآن

الـكريم ، دل هذا على أن صورتها التى ترد فى مثل هذه النصوص هى الأصل فى الأعم الأغلب ، وأن تطوراً ما قد أصاب الـكلمة فيما بعد حتى صارت على الصورة الأخرى التى سمعها الرواة فى عصر التدوين ، أى بعد ظهور الإسلام بنحو قرنين من الزمان . ومثل هذه الفترة من الزمن كافية لإحداث مثل هذا التطور .

نستعرض بعد هذا بعض تلك الروايات التى جاءت فى معاجمنا العربية مؤيدة لما نذهب إليه هنا :

١ — المشهور هو « عكوف الطير » ، وقد قيل لنا إن قبيلة عقيل تقول : « عكوب الطير » بالباء ! والفرق بين الفاء والباء هو أن الأولى صوت رخو نظيره الشديد هو ذلك الصوت الأوربى P ، ولـكن نظراً لفقدانه فى لغتنا العربية اعتبرت الباء المألوفة لنا بمثابة النظير الشديد للفاء العربية . وقبيلة عقيل كما نعرف من القبائل التى عاشت بالقرب من تميم وتأثرت بها ، فهى من قبائل البدو الذين آثروا الأصوات الشديدة .

٢ — جاء فى اللسان : « قال أبو حسان سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول : ما ذقت عدوفاً ولا عدوفة ، قال وكنت عند يزيد بن مزيد الشيبانى فأنشد بيت قيس بن زهير :

ومجنبات ما يذقن عدوفة يقذفن بالمهرات والأمهار

بالدال ، فقال لى يزيد صحفت أبا عمرو ، وإنما هى « عذوفة » بالذال ، قال فقلت له لم أصحف أنا ولا أنت ، تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال » .

نحن فى هذه الرواية أمام كلمة رويت بروايتين وهى « عدوفة » بالدال أو الذال ، وهما حرفان متناظران : الأول منهما شديد والثانى نظيره الرخو . وقد نسبت الصيغة المشتملة على « الذال » لشعب عظيم هو ربيعة وفيها البدو وفيها من تأثروا بحضر الحيرة كإياد والنمر . ولذلك نؤثر أن ننسب النطق بالذال لهاتين القبيلتين.

ولكن الغريب أن يرد فى مادة « دكر » أن الفراء يقول :

[و بعض بنى أسد يقولون « مدّكر » فيقلبون الدال فتصير ذالا مشددة . وقال الليث « الدّكر » ليس من كلام العرب ، وربيعة تغلط فى « الذكر » فتقول « دكر »] .

أما أن ينسب « الدكر » بالدال لربيعة فأمر هين ، لأن من قبائل ربيعة بكر بن وائل ، وهى المتوغلة فى البداوة ، فلعل الراوى قد سمع هذا النطق فيها . ولكن نسبة « مذّكر » بالذال لبنى أسد من الأمور التى يصعب تعليلها .

(٣) روى أن الأصمعى قال : إن « الخبيت » هو « الخبيث » ، وإن النطق بالتاء لغة خيبر . ولكن هذه القبيلة اليهودية من القبائل التى تأثرت بالبيئة الحجازية ، ولذا لم نكن نتوقع أن يروى عن لهجتها قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد. على أن هذه الرواية كانت موضع شك من الخليل ، كما اعتبرها بعض اللغويين تصحيفاً . جاء فى اللسان ما نصه :

[قال اليهودى الخيبرى :

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيت

وسأل الخليل الأصمعى عن « الخبيت » فقال له أراد « الخبيث » وهى لغة خيبر ، فقال الخليل لو كان ذلك لغتهم لقال « الكتير » ، وإنما كان ينبغى أن تقول إنهم يقلبون الثاء تاء فى بعض الحروف . وقال أبو منصور فى بيت اليهودى أيضاً أظن أن هذا تصحيف ، قال لأن الشىء الحقير الردىء إنما يقال له « الختيت » بتاءين ، وهو بمعنى الخسيس فصحفه وجعله « الخبيت »] .

وهكذا نرى أن الخليل لم يرقه أن يسمع أن قبيلة حجازية ينسب لها قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد .

---

(٤) جاء فى اللسان أن قبيلة طىء كانوا يقولون « اللَّصت » بدلا من « اللص » ، ويقولون « الطست » بدلا من « الطسّ » . ويؤيد هذه الرواية

ما ورد فى المخصص [١] : اللَّصت هو اللص فى لغة طيء، وجمعه « لصوت » وهم يقولون طسْت وغيرهم طسّ .

وقبيلة طيء متوغلة فى البداوة ، فلا غرابة أن يقلب فى لهجتها صوت « رخو » إلى نظيره الشديد . فالسين صوت رخو نظيره الشديد التاء ، والصاد صوت رخو نظيره الشديد هو الطاء التى إذا رُقّقت أصبحت تاء .

(٥) جاء فى المخصص [٢] : [قال ابن دريد الخزف ما عمل من الطين وشوى بالنار فصار فخاراً واحدته خزفة ، والخزب لغة فى الخزف يمانية .]

فهذا مثل آخر للفاء الرخوة حين تناظرها الباء الشديدة فى كلمة رويت بروايتين . ويمكن أن تنسب رواية الباء إلى قبيلة بدوية من قبائل اليمن المتعددة التى منها البدوى ومنها المتأثر بحضر اليمن .

(٦) جاء فى اللسان أن [« اللازب » و « اللاتب » بمعنى واحد ، وأن قبيلة قيس تقول طين لاتب]

فهذه مناظرة بين الزاى والتاء ، والأولى رخوة والثانية شديدة ، ولكنها مناظرة بين صوت مجهور وصوت مهموس ، مما يرجح أحد أمرين : إما أن صيغة « لازب » كان ينطق بها « لاسب » ، أو أن صيغة « لاتب » كان ينطق بها « لادب » . ومع هذا فقد نسب الصوت الشديد لقيس التى تأرجحت بين تميم والحجاز فتأثرت بهذه وتأثرت بتلك . ويبدو أنها هنا قد تأثرت ببيئة تميم البدوية .

(٧) جاء فى المخصص [٣] : فاضت نفسه خرجت تميمية . ولكن صاحب اللسان حين يتحدث عن هذا الفعل يذكر عدة روايات فيقول ما نصه [قال الفراء أهل الحجاز وطيء يقولون فاظت نفسه ، وقضاعة وتميم وقيس يقولون

---

(١) جزء ثالث صفحة ٧٨ .
(٢) جزء خامس صفحة ١٢٥ .
(٣) جزء ١٥ صفحة ٣٦ .

فاضت نفسه مثل فاضت دمعته . وقال أبو زيد وأبو عبيدة : فاظت نفسه بالظاء لغة قيس و بالضاد لغة تميم . وروى المازنى عن أبى زيد أن العرب تقول : فاظت نفسه بالظاء إلا بنى ضبة فإنهم يقولون بالضاد] .

فهذه مناظرة أخرى بين صوت رخو وهو الظاء ونظيره الشديد وهو الضاد ، ولـكن الرواة لا يكادون يستقرون على أمر فى نسبة الصيغتين . ويظهر من مجموع ما قالوا أن « الضاد » تنتمى إلى بيئة تميم البدوية ، وأن الظاء تنتمى لبعض من قيس ممن تأثروا بالبيئة الحجازية ، أو لأهل الحجاز أنفسهم كما يقول الفراء ، أى أن رواية أبى زيد هى أقرب الروايات إلى الصحة . ويؤيد ما نذهب إليه قول صاحب المخصص (١) حين تحدث عن « اضرورى » أى انتفخ بطنه من الطعام ، [إنه قد حكى عن أبى عمرو « اطرورى » بالطاء ، ورواية أبى زيد « اظرورى » بالظاء وأبو عمرو ثقة وأبو زيد أوثق منه ، وقد سألت عنه بعض فصحاء الحجاز فوافقوا أبا زيد] .

فهذه مناظرة أخرى بين الضاد والظاء ، وفيها تنسب الظاء لأهل الحجاز ، مما يرجح لنا ميل البيئة الحجازية المتحضرة للأصوات الرخوة .

ومن مظاهر اضطراب الروايات فى كتب اللغة والأدب أن تنسب صفة خاصة من صفات اللهجات لشعب عظيم يتكون من عدة قبائل ، ثم فى موضع آخر تنسب له صفة أخرى مناقضة للأولى .

ونحن نقف أمام تلك الروايات المتناقضة حيارى لا ندرى أيها نصدق ، و بأيها نأخذ ! ولـكننا إذا نظرنا إلى تلك المجموعة من القبائل وجدنا بعضاً منها قد تأثر ببيئة بدوية والبعض الآخر يبدو تأثره ببيئة حضرية . فعلينا فى مثل هذه الحالة أن ننسب الصفة إلى ما يناسبها من قبائل ذلك الشعب العظيم مهتدين بتلك القاعدة العامة التى قررناها ، وهى أن ظواهر اللهجات فى القبائل البدوية تخالف

---

(١) جزء خامس صفحة ٨٠ .

إلى حد كبير ظواهرها فى القبائل المتحضرة التى عاشت فى المدن . فمثلا تنسب الروايات صفة الشدة فى الصوت لليمن دون تعيين قبيلة فيها ثم فى موضع آخر تنسب صفة الرخاوة لقبائل يمنية أيضاً ، فواجب الباحث المدقق أن يقسم قبائل اليمن إلى بدوية وحضرية ، ثم ينسب الشدة للبدوية منها ، والرخاوة للحضرية .
وبذلك نستطيع بقدر الإمكان التوفيق بين تلك الروايات المتناقضة : —

(ا) فمثلا روى أن « السين » تقلب « تاء » فى لهجة اليمن ، فيقولون « النات » فى « الناس » ، و « لبات » بدلا من « لاباس » . ثم يروى الرواة شاهداً من الرجز :

يا قاتل الله بنى السعلاتِ عمرو بن يربوع شرار الناتِ
غــير أعفاء ولا أكياتِ

فنحن هنا أمام شعب عظيم من القبائل تنسب له صفة خاصة من صفات اللهجات وهى قلب صوت رخو إلى نظيره الشديد . فعلينا أن نبحث فى مثل هذه الحالة عن أى قبائل اليمن تلك التى مالت إلى البداوة أو عاشت قريبة من الصحراء ، فنجد أن أقرب قبائل اليمن إلى البـداوة قبيلتان مشهورتان هما : خثعم ، زبيد . وعليه فلا بأس من نسبة هـذه الصفة إلى هاتين القبيلتين بين قبائل اليمن .

أما المبرر الصوتى لانقلاب « السين » « تاء » فهـو هين واضح ، لأنهما يكادان يكونان متماثلين فى المخرج ، كما أن كلا منهما صوت مهموس ، ولم يبق إذن إلا أن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما به ينحبس النفس حتى إذا انفصلا انفصالا مفاجئاً سمع ذلك الصوت الانفجارى الذى نسميه بالتاء ، فى حين أنه فى حالة النطق بالسين نلحظ أن انحباس النفس لا يـكون محكما ، بل هناك فراغ ضيق بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ليتسرب منه الهواء .

(ب) كذلك روى أن من قبائل اليمن من ينطقون « بالجيم » شديدة

لا رخاوة فيها ، أى تماثل تلك الجيم الشائعة فى اللهجة القاهرية الحديثة . فإذا قارنا بين « الجيم » اليمنية والجيم الفصيحة كما وصفت فى القراءات وجدنا فرقاً من ناحيتين : الأولى أن « الجيم » اليمنية أكثر شدة ،والثانية أن مخرج «الجيم» اليمنية هو أقصى الحنك ، ولكن مخرج « الجيم » الفصيحة هو وسط الحنك .

فما حدث فى نطق اليمنيين « للجيم » هو انتقال المخرج إلى الوراء قليلا ، وانحباس النفس معها انحباساً كاملا ، رغم احتفاظ كلا الصوتين بصفة الجهر .

حقاً أن « الجيم » الفصيحة تعدّ صوتاً أقرب إلى الشدة منها إلى الرخاوة ، ولكن « الجيم » اليمنية قد كملت شدتها ، وذلك من صفات البيئة البدوية .

وقد نسبت هذه « الجيم » أيضاً لبعض قبائل طىء وهم كما نعرف من البدو الذين عاشوا فى بعض نواحى نجد .

وإذا كان علينا أن نتخير من قبائل اليمن من نرجح نسبة مثل هذه الصفة إليه ، لم نجد خيراً من قبيلتى : خثعم ، زبيد .

٤ — الميل إلى جهر الأصوات أو همسها :

فى مثل تلك الصحراء الشاسعة الخالية من مظاهر المدنية ، قد يفنى الصوت فى جو لا آخر له ، إذ يتحدث الناس غالبا فى العراء وقد افترشو الغبراء والتحفوا بالسماء ، وليس هناك من حائل يصد موجات الصوت أو يركزها ، بل تنساب الأصوات فى محيط من الفضاء تخفى فيه الأصوات فلا تكاد تبين أو تتضح .

ولا شك أن الأصوات المجهورة أوضح فى السمع ، تتلقاها الأذن فى مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة .

لهذا كان من المعقول ، بل ومن المشاهد ، أن البيئات المتمدينة التى تتحدث بين جدران المنازل ، والتى لا ترى داعيا لوضوح الصوت بنسبة أكبر مما يتطلبه السامع القريب ، تميل عادة إلى همس الأصوات .

ولقد دعت الحضارة منذ القدم ، بل ودعت آداب الإسلام إلى خفض الصوت ، مما ترتب عليه أن شاعت الأصوات المهموسة فى البيئة العربية المتحضرة: قال تعالى : « واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، وقال : «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى» ، وقال : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » ، وقال : إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ، فكل هذه الآيات الكريمة لتدعو الناس ولا سيما البدو منهم إلى خفض الصوت . وروى أن رجلا من بنى العنبر من تميم جاء إلى النبى وأخذ ينادى عليه بصوت مرتفع أجش فنزل قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

ومما لاحظه المحدثون من علماء الأصوات أن النساء بصفة خاصة يملن إلى همس الأصوات وهو ما يتفق وطبيعتهن .

« فالسين » عند الحضريين قد ينطق بها « زايا » عند البدو ، « والتاء » عند الحضريين قد ينطق بها « دالا » عند أبناء البدو . . . وهكذا . هذا إلى أن الأصوات المهموسة تتطلب جهداً أكبر فى التنفس ، مما لا يتفق وطبيعة البدوى الهادىء الوادع الذى يقتصد فى كل حركاته وسكناته . فما تحتاجه عبارة مثل « سكت شخص » من تنفس حين النطق بها أضعاف ما تحتاجه عبارة مثل « زرع رجل » ، لأن أصوات العبارة الثانية مجهورة ، فى حين أن كل الأصوات الساكنة فى العبارة الأولى مهموسة .

ولا شك أن البيئة الصحراوية التى تنتشر فيها الأصوات فى مسافات شاسعة لا يعوقها عائق ، ولا يحول دونها حائل ، تتطلب الميل إلى توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت ليصبح أكثر وضوحاً فى أذن السامع . لهذا نلحظ أن لهجات القبائل البدوية تميل إلى جهر بعض الأصوات ، فى حين أن غيرها من قبائل الحضر تبقى على همسها :

(ا) فمثلا روى عن هذيل أنهم يقلبون فى لهجاتهم « الحاء » « عيناً » ، فيقولون « اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض » ، أى اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض! و بلهجتهم روى أنّ ابن مسعود قرأ « عتى » فى « حتى » ، فأرسل إليه عمر رضى الله عنه أن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرىء الناس بلغة قريش!.
ومثل هذه الرواية عن عمر بعيدة الاحتمال لأنها تناقض التيسير فى القراءات القرآنية ، كما تخالف ما رمى إليه الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، إلا إذا أراد عمر أن ينهى ابن مسعود عن إرغام القرشيين على القراءة بغير ما يستطيعون ، وما تميل إليه ألسنتهم ، وذلك بإملاء لهجة من اللهجات عليهم كلهجة هذيل فى هذه القراءة .

وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الصوتية فحفحة هذيل .

على أننا نشك فى نسبة هذه الظاهرة لهذيل : وذلك لما نعرفه عن اتصال هذيل ببيئة الحجاز اتصالا روحياً تجلى فيما رواه صاحب كتاب الأصنام من أنه كان لهذيل صنم على الساحل يسمى « مناة » وهو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله : « ومناة الثالثة الأخرى » . وكانت قريش تقدس هذا الصنم مع هذيل ، كما كانت هذيل تقدس « هبل » صنم قريش . هذا إلى قرب مساكنهم من الحجاز واحتمال تأثرهم بلهجات تلك البيئة . بل إن التسمية نفسها لتحملنا على الشك فى وصف القدماء لهذه الظاهرة ، فكلمة « الفحفحة » إذا نظر إليها فى ضوء مصطلحات أخرى مثل الكشكشة والعجعجة ، نرى أن الحرف الثانى فى كل من هذين المصطلحين هو الحرف المقلوب إليه . وكان مقتضى هذا أن يكون معنى « الفحفحة » قلب العين إلى الحاء لا العكس . فلو أن هذه الظاهرة وصفت لنا على أنها قلب العين إلى الحاء لأمكن القول إن قبيلة هذيل المتأثرة ببيئة حضرية قد قلبت صوتاً مجهوراً وهو العين إلى نظيره المهموس وهو الحاء . فنحن بين أمرين : إما أن نفسر الفحفحة على أنها قلب العين إلى الحاء ، أو أن نغير نسبتها لهذيل

ونسبها لقبيلة أخرى بدوية مثل تميم .

(ب) نسب القدماء لتميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها « العنعنة » وهى قلب الهمزة المبدوء بها « عيناً » ! وأنشد يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل   لآخرة لا بد عن ستصيرها

وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة   ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد الشاعر فى البيت الأول « لا بد أن » ، وفى البيت الثانى « أأن ترسمت » .

وقد جاء فى رواية نسبت إلى الفراء قال :

إن بنى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف « أن » إذا كانت مفتوحة « عيناً » فيقولون :

أشهد عنّك رسول الله

فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة !

فنحن نرى من هذه الروايات أنها جميعاً تجمع على قلب الهمزة المبدوء بها إلى « عين » ، ثم قيد هذا فى رواية الفراء بأن تكون الهمزة مفتوحة ! ومثل هذا الاضطراب فى الرواية ليس له من سبب سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصاً ، وأن الأمر فى كل رواية لا يعدو أن يكون حكما خاصاً مبنياً على مثل خاص سمعه الراوى دون استقراء لباقى الحالات . فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون مفتوحة ليس له مايبرره من الناحية الصوتية . وإنما الذى يبدو أن يكون أقرب إلى الاحتمال هوأن هذه القبائل وكلها من البدو كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة فى السمع ، أيا كان موضعها من الكلمة ، وبأية حركة تحركت .

ويحسن إذن أن نعدّ هذه الظاهرة محاولة للجهر بالصوت؛ لأن الهمزة ليست

من الأصوات المجهورة أو المهموسة ، إذ مخرجها المزمار نفسه ، ولا عمل للوترين الصوتيين معها . وقد وصفناها قبلا بأنها من الأصوات الشديدة إن لم تكن أشدها ، وأن أهل البادية يحققونها فى لهجاتهم . فحين يبالغ فى هذا التحقيق ويراد أن تكون أوضح فى السمع ، يستبدل بها أحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجاً وصفة ، وأقرب أصوات الحلق إليها هو « العين » ؛ لأن « العين » صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة مخرجاً .

ويؤيد ما نذهب إليه أن هذه الظاهرة لا تزال شائعة فى بعض اللهجات الحديثة التى تتاخم الصحراء . وقلب الهمزة « عيناً » فى هذه اللهجات غير مقيد بالبدء بها ، أو كونها محركة بحركة خاصة .

ويظهر أن هذه الظاهرة لا تعدو أن تكون أقصى مراحل التحقيق للهمز . انظر إلى قول صاحب تهذيب اللغة(١) [ومن تحقيق الهمز قولك يا زيد من أنت كقولك « من عنت » ، فإذا عدلت الهمزة إلى التخفيف قلت يا زيد من أنت فكأنك قلت « مننت » لأنك أسقطت الهمزة من أنت وحركت ما قبلها بحركتها] .

ويدل هذا على أن تحقيق الهمز كانت له صور مختلفة ، فقد قال الأزهرى : « ومن تحقيق الهمز » ! أى أن هذا نوع معين من التحقيق وصفه لنا مكتوباً بالعين ، فكأن الهمزة حين يبالغ فى تحقيقها تصبح عيناً .

فلتسهيل الهمز مراحل : سقوطها من الكلام ، ثم قلبها إلى حرف مدّ ، ثم تسهيلها بما يسمى بين بين .

ولتحقيق الهمز مراحل : أن ينطق بها النطق المألوف لنا ، ثم أن ينطق بها شبيهة بالعين .

---

(١) جزء ١٨ صفحة ١٤٣ مخطوط .

وقد ذكرنا آنفاً أن الهمزة مالت إلى التسهيل فى اللهجات الحضرية ، ومالت إلى التحقيق فى اللهجات البدوية :

(١) فأهل المدينة كانوا يقولون « بدينا » بدلا من « بدأنا » ، وكانوا يقولون « لَحمر » بدلا من « الأحمر » .

(٢) وبينما يقول أهل الحجاز « جبريل » ، يقول بنو تميم « جبرئيل » .

(٣) وقراءة الكوفة « أئمة » بهمزتين ، فى حين أن أكثر القراء ولا سيما الحجاز بين منهم « أيِمّة » .

(٤) كانت عقيل البدوية تهمز [الجؤنة والمؤسى والحؤت] بدلا من النطق الشائع بغير همز .

(٥) « السؤدد » الشرف ، وقد تهمز وتضم الدال أى « السؤدُد » وهى لغة طيىء كما يقول الأزهرى .

(٦) هناك قصة يسوقها أصحاب المعاجم ، ويشتم منها أن النبى صلعم كان لا يهمز أحياناً . فقد جاء باللسان فى مادة « دفأ » ما نصه : [أدفأت الرجل إدفاء إذا أعطيته عطاء كثيراً ، والدفء العطية ، وأدفأت القوم أى جمعتهم حتى اجتمعوا ، ، والإدفاء القتل فى لغة بعض العرب . وفى الحديث أنه صلعم أتى بأسير يُرعد ، فقال للقوم اذهبوا به فأدفوه ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه رسول الله صلعم ، أراد الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب ، فحسبوه بمعنى القتل فى لغة أهل اليمن [1]] .

أما أن الرسول من قريش وأن لهجة قومه كانت تميل إلى تسهيل الهمز ، فهذا مما لا جدال فيه . ولكنا نتردد قليلا أمام هذه الرواية ، ونسائل أنفسنا أكان صلعم يلجأ أحياناً إلى الحديث بلهجات الخطاب ، أم كان يلتزم فى كلامه تلك

---

(١) ينسب صاحب المخصص هذه اللغة لجهينة .

اللغة النموذجية السامية التي ألفناها في الآثار الأدبية والقرآن الكريم ؟

يبدو أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمو بكلامه فوق المستوى العام لقومه ، فقد أوتي من الفصاحة في القول والبلاغة في الأسلوب ما لم يؤت غيره ، حتى يمكن أن يقال إنه كان في الذروة إذا قيس بمن حوله من فصحاء قريش ، فكان لا ينطق إلا بسحر القول وروائع البيان ، وكان مزوداً بفيض رباني جعله أقدر العرب على التعبير بما شاء تعبيراً سامياً تنزه عن صفات اللهجات ، وخلا من كل ما ينم عن بيئة معينة . فقد سيطر على اللغة الأدبية النموذجية سيطرة تامة ، وملك زمامها حتى أصبحت له وحده لغة سليقة ، لا يعمد إليها عمداً ولا يتكلف القول بها ، بل تنساب إليه عباراتها انسياباً ، وتواتيه منقادة إليه كلما هم بطلبها . فكيف مع هذا يروى عنه أنه صلعم قد نطق بقول فيه صفة من صفات لهجة قومه وهي تسهيل الهمز ؟

ولكن العظماء يتنزلون أحياناً إلى مستوى الناس في خطابهم ، ويتبسطون معهم في الحديث ، ويخاطبونهم على قدر مستواهم اللغوي ، وهو ما كان يقوم به صلعم في القليل من الأحيان حين يفد إليه جماعة من البدو ليكلموه ، ويشرح إلى العامة من الناس أمور دينهم ، حينئذ نستطيع أن نتصور أنه صلعم كان يعود إلى سليقته الأولى وهي لهجة قريش ، فيخاطبهم بصفاتها ، ويشتمل كلامه على بعض من خصائصها .

وليس يعقل أنه صلعم كان على علم تام بكل خصائص اللهجات العربية القديمة بحيث يكلم كل قبيلة بحسب لهجتها ، ولكنه لكثرة تجوابه وأسفاره كان يعرف القليل من صفات تلك اللهجات ، أو بعبارة أدق المشهور من تلك اللهجات . فإذا وفد عليه جماعة من قبيلة اشتهرت بأمر معين في لهجتها ، كان يلتمس شيئاً مما يعرفه عن تلك اللهجة ، ويخاطبهم بها تأليفاً لقلوبهم وتنزلا إلى مستواهم . ولا تكاد تعدو مثل هذه المعرفة عبارات مشهورة تستعمل في التحية

أو الترحيب ، أو كلمات معينة لا يعرفون غيرها فى لهجات كلامهم . لا نستطيع إذن أن نتصور أنه كان يعرف دقائق تلك اللهجات ، وخصائص كل لهجة معرفة الدارس لها ، الواقف على كل شئونها . فلم يكن هذا من مهمة الرسل ، ولم يكن هذا ينتظر منه مع وجود اللغة المشتركة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم والتى كانت القبائل تتطلع إلى مستواها ، ويعمل الخاصة منهم على إتقانها .

فإذا تصورنا أن الذين أتوا له بالأسير كانوا من العامة وأنه صلعم رأى أن يخاطبهم على قدر مستواهم ، فكيف تأتى أن يخاطبهم ، وهم من اليمن على رأى قوم أو من جهينة على رأى آخرين ، بصفة من صفات لهجة قريش ؟

إن الحادث وملابساته وما صحبه من المفاجأة برجل ذليل مسكين يرتعد فرقاً ، لما يجعل صاحب الرسالة ذا القلب الشفيق الرحيم ، يتأثر بمنظره وينطلق من فوره متحدثاً بسليقته الأولى التى ألفها ونشأ عليها قبل الرسالة وهى لهجة قريش ، فكأنما قد نسى فى مثل هذا المجال سليقته الثانية وهى اللغة النموذجية المشتركة .

أو يقال إن العظيم حين يريد التنزل إلى مستوى المخاطب لا يخاطبه بصفات من لهجة هذا المخاطب ، وإنما يخاطبه بصفات من لهجة هذا العظيم : ولتصوير هذا نفترض أن وزيراً مصرياً يزور بعض جهات الصعيد فى مصر ، وقد صادفه فى تجواله جماعة من الناس من أهالى تلك الجهات ، فأراد أن يتبسط معهم فى الحديث ، نراه حينئذ ينطق مثلا بالقاف همزة كما تعود هو النطق بها فى لهجة القاهرة ، رغم أنه يسمعهم ينطقون بها « جيما » غير معطشة . ولا يلجأ مطلقاً فى مثل هذا المجال إلى القاف الفصيحة التى قد تظهره بمظهر المتعالى عليهم ، أو البعيد عن مستواهم .

نخلص من كل ما تقدم إلى أن البدوى كان يميل فى نطقه إلى الأصوات المجهورة لأنها أوضح في السمع ، وتنسجم مع بيئته وطبيعته .

على أن الأمر ليس مقصوراً على المقارنة بين المجهور ونظيره المهموس فى نسبة الوضوح السمعى . فقد نجد صوتين مجهورين ولكن أحدهما أوضح فى السمع من

الآخر ، أو صوتين مهموسين وأحدهما أوضح فى السمع من المهموس الثانى ، هنا أيضاً نلحظ أن البدو بوجه عام يميلون إلى المجهور الأكثر وضوحاً ، أو إلى المهموس الأكثر وضوحاً . فإذا قارنا النون والياء وجدناهما مجهورين وعرفنا أن الياء أوضح فى السمع من النون . ولهذا لا ندهش أن تروى لنا الكلمة بالياء منسوبة لقبيلة بدوية ، وبالنون منسوبة للحضر . فكلمة « إنسان » قد روى لنا أنها نطق بها « إيسان » عند طيئ البدوية .

كذلك إذا قارنا بين صوتين مهموسين ووجدنا أحدهما أوضح فى النطق من الآخر ، تصورنا أن الكلمة حين تشتمل على المهموس الأكثر وضوحاً فى السمع تنتمى إلى بيئة بدوية مثل :

« تلثم » عند تميم ، وعند غيرهم « تلفم » بالفاء ؛ وكذلك « الأثافى » روى أن بنى تميم كانوا ينطقون بها « الأثاثى » .

ولا شك أن الثاء أوضح فى السمع من الفاء رغم أنهما مهموسان .

٥ — التأثر بالأصوات المتجاورة :

تحدثنا آنفا عن ظاهرة الأصوات المتجاورة وتأثير بعضها فى بعض ، وأن مثل هذا يشيع فى البيئات البدوية بصفة خاصة ، فى حين أن البيئة الحضرية تعمل على تحقيق الأصوات ، وتحول دون تأثرها بعضها ببعض فى أثناء النطق .

ولعلّ خير مثل يساق لتوضيح هذه الظاهرة ما روى لنا من أن « الميم » قد تقلب إلى « باء » حين تكتنفها فى الكلمة الواحدة أصوات مجراها الفم ، وأن « الباء » قد تقلب إلى « ميم » حين يكتنفها أصوات مجراها الأنف . وقد نسب الرواة هذه الظاهرة لقبائل معينة فى حديث طويل يتلخص فيما يلى : —

(١) روى أن بعض القبائل العربية كانوا يقلبون فى لهجاتهم « الميم » إلى « باء » و « الباء » إلى ميم ! وقد نسب الرواة هذه اللهجة إلى « مازن » من

ربيعة ، كما نسبت إلى بكر بن وائل وهى من قبائل ربيعة كذلك . ثم يروون قصة طريفة لا بأس من إيرادها هنا وهى :

« روى المبرد أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازنى إمام الصرفيين فى زمانه ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك . قال فقلت له : جعلت فداك ، أترد هذه المنفعة ، مع فاقتك وشدة إضاقتك !؟ فقال : هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بالله بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلمُ

فاختلف من كان بالحضرة فى إعراب « رجلا » ، فمنهم من نصبه ومنهم من رفعه ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب . فأمر الواثق بإشخاصه . قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه ، قال : ممن الرجل ؟ قلت من بنى مازن . قال : أى الموازن ، أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة . قلت مازن ربيعة . فكلمنى بكلام قومى وقال : « با اسمك » ؟لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ! قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجهه بالمكر ! فقلت بكر يا أمير المؤمنين ! ففطن لما قصدته وأعجب به . ثم قال : ما تقول فى قول الشاعر : أظلوم إن مصابكم رجلا ؟ أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين . فقال : ولم ذلك ؟ فقلت إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدى فى معارضتى ، فقلت هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم ، والدليل عليه أن الكلام يعلق إلى أن تقول : « ظلم » فيتم . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ فقلت : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين . قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ فقلت أنشدتْ قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترمْ عندنا   فإنا بخير إذا لم ترمْ

أرانا إذا أضمرتك البـلا د نجفى وتقطع منا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قال قلت قول جرير :

ثق بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالفجاح

قال : علىّ النجاح إن شاء الله تعالى ، ثم أمر لى بألف دينار وردنى مكرما. قال المبرد : فلما عاد إلى البصرة ، قال لى كيف رأيت يا أبا العباس ، رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً » .

نحن هنا أمام رواية غريبة لا تبررها القوانين الصوتية . فليس هناك لهجة من لهجات اللغات فى العالم تلتزم قلب كل ميم إلى باء والعكس ، لأنها عملية متناقضة لا مبرر لها . بل يكون من المغالاة أن نفترض أن لهجة من اللهجات تلتزم قلب أحد هذين الصوتين إلى الآخر .

حقاً أن هناك علاقة صوتية بين « الميم » و « الباء » إذ كلاهما صوت شفوى ، ولكن مثل هذه العلاقة وحدها لا يكفى مبرراً لمثل هذه الظاهرة . نعم أن من لهجات العالم ما تتضمن شيئاً من هذه الظاهرة ، وذلك حين نلحظ قلب « الميم » « باء » فى بعض المواضع ، أو « الباء » « ميما » فى مواضع أخرى ، ولكن هذا مقيد بوجود « الميم » أو « الباء » فى مواضع خاصة من الكلمات ، وأن يكتنفها أصوات خاصة تساعد على هذا الانقلاب .

فليست المسألة قاعدة مطردة فى كل « ميم » وفى كل « باء » .

فنحن فى تحقيق هذه الرواية بين أمرين :

١ — إما أن نشطرها شطرين : الشطر الأول وهو قلب الميم باء ، والشطر الثانى هو قلب الباء ميما ، ثم ننسب كل شطر إلى قبيلة خاصة أو لهجة خاصة .

٢ — أو ألا ننسب هذه الظاهرة لبيئة خاصة ، وإنما ننظر إليها على أنها مما يعرض للأصوات من تطور وتغير .

وعلى الرأى الأول وهو نسبة شطر من هذه الظاهرة إلى لهجة خاصة نرى

أن القبيلة التى يمكن أن يشيع فيها قلب « الميم » « باء » ، قبيلة من القبائل البدوية التى تميل إلى الأصوات الشديدة ، والتى لم تتأثر بعنصر أجنبى عن اللغة العربية ، لأن « الباء » تختلف عن « الميم » فى شيئين : أحدهما أن « الباء » صوت شديد ، وثانيهما أن مجرى النفس معها من الفم ، فى حين أن مجرى النفس مع « الميم » من الأنف ، وأنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين أى ليست بالشديدة ولا الرخوة .

أما الشطر الثانى وهو قلب « الباء » « ميما » فهو انتقال من صوت شديد إلى صوت متوسط هو أحد الأصوات المائعة « Liguids » ، وربما كان هذا مما ينسب إلى بيئة بدوية أخرى .

والموازن كما اتضح لنا من القصة السابقة ثلاثة : مازن ربيعة ، ومازن تميم ومازن قيس .

وعلى هذا يمكن أن ننسب لمازن ربيعة قلب « الباء » « ميما » ، وأن ننسب لمازن تميم أو قيس قلب « الميم » « باء » .

على أنه حتى فى هذا يجب ألا يُعدّ هذا الانقلاب بمثابة ظاهرة مطردة ، نجدها فى كل « ميم » وفى كل « باء » ؛ بل يكفى أن نقول إن مازن ربيعة كانوا يقلبون « الباء » « ميما » فى بعض المواضع ، وإنّ مازن تميم كانوا يقلبون « الميم » « باء » فى بعض المواضع أيضاً ، وبشروط خاصة فى كل من الحالين ، وإلا ترتب على اطراد مثل هذه الظاهرة أن نجد لهجة من اللهجات العربية خالية من الميمات أو الباءات !

وعلى الرأى الثانى وهو الراجح فيمكن أن نفسر هذه الظاهرة على أنها لا تختص بقبيلة ما ، وإنما قد صادف أن سمعها بعض الرواة من قوم من مازن [أيا كانت مازن هذه] فنسبها إليها ، ثم جرى المؤلفون بعده على هذا ، دون تحقيق أو نظر فى صحة هذه الرواية .

والحقيقة أن مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن ينسب إلى أية لهجة من اللهجات المنعزلة ، لا على أنها مطردة بل مقيدة بشروط خاصة .

وهذه الظاهرة ليست إلا نتيجة أخطاء الأطفال فى البيئة المنعزلة التى لا يجد فيها الطفل فرصة كافية لإصلاح أخطائه ، فيشب عليها وتصبح فيما بعد نطقاً جديداً فى جيله .

فلنتصور بيئة منعزلة اجتماعيا أو غير مستقرة على حال ، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه ، وذلك لانشغال الرجال بأمور الحرب أو السفر فى تجارة زمناً طويلا ، كما أن النساء منصرفات عن أبنائهن بشئون الحياة العسيرة الشاقة ، ولايجدن من الوقت مع ما هن فيه من مشقة وعسر ، ما يكفى للنظر فى شئون أطفالهن والتحدث إليهن حديثاً هادئاً وادعا يصلح من نطقهم ويرشدهم إلى طريق الصواب .

هنا نرى الأطفال ، ولما تكمل مراحل نطقهم ، يلازم بعضهم بعضا ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، ونرى الطفل الكبير فيهم يأخذ مكان الأم أو الأب فى تعليم الآخرين والتأثير فى نطقهم . فإذا شب هذا الجيل الجديد احتفظ فى لهجته ببعض أخطاء الطفولة التى تصبح فيما بعد عنصرا معترفا به فى لهجتهم ، وظاهرة من ظواهرها ، وتلك هى سنة التطور اللغوى . فما كان يعدّ بالأمس خطأ تنفر منه الآذان أصبح اليوم صوابا فى جيل جديد من المتكلمين .

وليست تقتصر أخطاء الأطفال على ما يتعلق « بالميم » « والباء » ، بل هى أعم من هذا وأشمل ، ولها ظواهر كثيرة تحدثنا عن بعضها آنفاً .

فما يعرض « للميم » أو « الباء » فى أخطاء الأطفال ليس إلا مثلا منها . ومما أيدته تجارب المحدثين من علماء الأصوات أن الأطفال بصفة عامة يميلون إلى قلب صوت من أصوات الفم إلى نظيره من أصوات الأنف فى بعض الأحيان ، كما أنه قد يحدث العكس عند الأطفال قبل أن تتم مراحل نمو لغتهم . لأن الطفل

فى نطقه يتلمس أيسر الطرق ، وما لا يكلفه جهداً عضلياً . وهو لهذا لا يميل إلى الجمع بين صوتين أحدهما مجراه الأنف « كالميم » و « النون » ، والآخر مجراه الفم كباقى الأصوات . ولهذا يميل إلى جعل مجرى الصوتين اللذين من هذا النوع ، إما من الفم فقط ، أو الأنف فقط .

لهذا قد نسمع بعض أطفالنا فى المراحل الأولى يقولون فى « تين » « نين » . فنى هذا المثال جهر الطفل أولا « بالتاء » فأصبحت « دالا » ، ثم جعل مجرى الدال من الأنف فصارت « نوناً » . كما قد نسمع بعض أطفالنا يقولون فى « موز » « بوس » ، فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو « الباء » . ومثل هذا يمكن أن يقال فى نطق بعض أطفالنا للكلمات الآتية :

دبّان ، جمل ، بلكونة

على الأوجه الآتية بالترتيب :

دمّان ، جبل ، ملقونة

فإذا شب الأطفال فى بيئة غير مستقرة ، ولم يجدوا من يصلح لهم مثل هذه الأخطاء ، فقد تصبح الكلمات الأخيرة مستعملة فى لغتهم مقبولة فى جيلهم ، تكوّن عنصراً جديداً فى اللغة .

فمن المحتمل أن بعض كلمات اللغة العربية التى اشتملت على « ميم » أو « باء » ، قد تعرضت لمثل هذه الظاهرة من أخطاء الجيل الناشئ فى قبيلة من القبائل . فلما جاء جامعو اللغة وسمعوا تلك القبيلة تنطق « بالميم » فى بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها « باء » ، ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة فى كل الكلمات ، وكذلك العكس حين سمعوا قبيلة تنطق « باء » فى بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بهذه « الباء » فى تلك الكلمات « ميما » ، ظنوا أن من القبائل العربية من يلتزمون قلب « الباء » « ميما » وهكذا .

وبمثل هذا الشرح يمكن أن ننظر إلى جميع الكلمات العربية المشتركة

المعانى والأصوات ، والتى لا فرق بينها سوى أن مكان « الميم » فى بعضها ، « باء » فى البعض الآخر ، أو أن مكان « الباء » فى بعضها ، « ميم » فى البعض الآخر . مثل :

قامطة = قاطبة . كمح = كبح

الطمش = الطبش . ثلبه = ثلمه

(ب) أما الظاهرة الثانية التى توضح تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض فهى ما سماه الرواة بالكشكشة أو الكسكسة .

فقد أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة سموها أحياناً بالكشكشة وحيناً آخر بالكسكسة . ثم اختلفوا فى تبيانها ، فقالوا مرة إنها قلب كاف المؤنثة شيناً أو سيناً فى حالة الوقف ، وفى موضع آخر قالوا إن هذه « الشين » أو « السين » لا تحل محل كاف المؤنثة ، وإنما تلحق بها فى حالة الوقف . وضربوا لهذه الظاهرة أمثلة من نثر وشعر فقالوا :

منشِ = منكِ . عليشِ = عليكِ

ورووا لشاعر هذا البيت مخاطباً به الظبية :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجاريتها :

ارجعى وراءشِ فإن مولاشِ يناديش

ثم زعم بعض الرواة أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث أم مذكر تقلب سيناً فى لهجة ربيعة فيقولون :

منسَ = منكَ

كما نسب بعض الرواة قلب الكاف مطلقاً إلى شين فى لهجة من لهجات اليمن . وقد سمع بعضهم فى عرفة يقول :

« لبيش اللهم لبيش »

وسموا هذه الظاهرة بشنشنة اليمن . ثم زعم الرواة فى مواضع أخرى أن الكشكشة فى لهجة ربيعة هى أن يقفوا على الكاف المؤنثة بزيادة « شين » فيقولون مثلا : « استجرتُ بكشْ » .

وقال آخرون إن ما ينسب إلى ربيعة هو « الكسكسة » فيقفون على الكاف مطلقاً بزيادة « سين » !! ونقل الحريرى أن « الكسكسة » لبكر لا لربيعة ، وقصرها على زيادة « السين » فى حالة المؤنثة فقط . وفى موضع آخر نسبت هذه الصفة لتميم أو أسد ... الخ .

ألا ترى معى أننا هنا أمام روايات متناقضة لما يبدو كظاهرة واحدة ؟ !

ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع أن نستخلص أموراً :

١ — يظهر أن «الكسكسة» التى تنسب لربيعة ليست إلا «الكشكشة» بالشين ، وقد رويت مصحفة ، فلا يعقل أن كلا من « الكشكشة » و « الكسكسة » يمكن أن ينسب إلى قبيلة واحدة هى ربيعة .

٢ — أن ظاهرة الكشكشة أو الكسكسة مقيدة بكاف مكسورة لما سنذكره فيما بعد .

٣ — ليست الكشكشة أو الكسكسة مقيدة بحالة الوقف ، وإنما تصادف أن الكاف فيما روى من أمثلة كانت فى آخر الكلمة أو الجملة .

٤ — لابد فى الكشكشة أو الكسكسة أن تحل « الشين » أو السين محل الكاف ، ليمكن أن تعد هذه الظاهرة من ظواهر اللهجات . إذ ليس هناك ما يبرر أن تتصل الكاف بصوت آخر فى حالة الوقف ، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحل صوت محل آخر ، لما سنذكره من الأسباب .

٥ — أن ما خيل للقدماء أنه « شين » ليس « شيناً » خالصة كتلك التى

تمهدها ، وما ظنوه « سيناً » ليس كالسين التى نألفها .

الآن وقد جردنا هذه الروايات مما قد لحق بها من تشو به ، علينا أن نشرح هذه الظاهرة على حقيقتها فى ضوء ما تقرره طبيعة الأصوات وقوانينها .

وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى قانون صوتى سموه « قانون الأصوات الحنكية » فى أواخر القرن التاسع عشر . وليس يعنينا هنا شرح هذا القانون شرحاً مسهباً ، و إنما ينبغى الإشارة إلى عنصر منه يلقى ضوءاً على ما نحن هنا بصدده . فقد لاحظوا أن أصوات أقصى الحنك « كالكاف » و « الجيم » الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية حين يليها صوت لين أمامى (كالكسرة) . لأن صوت اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك أو أصول الثنايا العليا . ولهذا وجدت بعض الكلمات الهندية — الأور بية التى كانت تشتمل على « الكاف » ، قد تطورت فيها هذه الكاف فيما بعد إلى صوت وسط الحنك الذى ينطق به كما ينطق الصوت الأول فى الكلمة الإنجليزية « Chicken » أى « تْشْ » . وهذا الصوت الذى قد يخيل إلى بعض السامعين أنه مكوّن من صوتين ، ليس فى الحقيقة إلا صوتاً واحداً كما برهنت التجارب الحديثة فى علم الأصوات ، ويسمى المحدثون هذا الصوت وأمثاله « Affricative » . ويتكون هذا الصوت الواحد من عنصرين : أولهما ينتمى إلى الأصوات الشديدة وهو ما يشبه التاء ، وثانيهما إلى الأصوات الرخوة وهو ما يشبه الشين .

وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء فى تلك الظاهرة التى سموها « الكشكشة » ، كما أنه هو نفس الصوت الذى لا نزال نسمعه فى بعض اللهجات الحديثة بمصر ، مثل لهجة بلدتى شرويدة وزنكلون وما حولهما من مديرية الشرقية ، حين ينطقون بمثل هاتين الكلمتين :

كلب ، كِتاب

ويبرر قلب الكاف إلى هذا الصوت أن يليها كسرة أم فتحة مرققة ، « أى صوت لين أمامى » يجتذب مخرجها إلى وسط الحنك . كذلك لا نزال نسمع هذه اللهجة فى بعض جهات العراق وفلسطين وسوريا ولا سيما بين البدو .

فالذين رووا هذه الظاهرة بين اللهجات العربية القديمة وقصروها على قلب كاف المؤنثة إلى « شين » كانوا أقرب الجميع إلى الصواب ، لأن الكسرة فى كاف المؤنثة هى العامل الأساسى فى هذا الانقلاب . أما جعلها فى آخر الكلمة وقصرها على كاف الخطاب فى حالة الوقف ، فليس له ما يبرره من الناحية الصوتية .

فالكشكشة التى شاعت فى بعض اللهجات العربية القديمة ليست إلا ظاهرة طبيعية شوهدت فى كثير من لهجات العالم ، وهى قلب الكاف التى يليها صوت لين أمامى ، أيا كان موضعها من الكلمة ، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك . وقد روى هذا فى غير كاف المؤنثة فى بعض الأشعار القديمة مثل :

علىَّ فيها أبتغى أبغيش بيضاء ترضينى ولا ترضيش
وتطَّبى ود بنى أبيش إذا دنوت جعلت تنئيش
وإن نأيت جعلت تدنيش وإن تكلمت حثت فى فيش
حتى تنقى كنقيق الديش

وقد جهد الرواة يتحايلون بالتأويل والتخريج ليبرروا قوله « حتى تنقى كنقيق الديش » أى كنقيق الديك ، لأن هذه الكاف ليست للمؤنثة !

وليست شنشنة اليمن إلا كشكشة ربيعة . ويجب نسبة هذه الظاهرة إلى القبائل اليمنية البدوية ، وإلى تلك القبائل من ربيعة التى توغلت فى البداوة كبكر بن وائل .

أما الكسكسة فهى أن تقلب « الكاف » حين تليها الكسرة أو الفتحة

المرققة إلى « تس » . ولا نكاد ندرى شيئاً مؤكداً عن بيئتها قبل الإسلام ، بل حين نبحث عنها فى اللهجات العربية الحديثة لا نكاد نعثر على أثر لها ، إلا فى لهجة نجد ، فقد سمعتُ بعض النجديين ينطقون كلمة « عسكرى » قائلين « عسْتْسَرى » .

والدليل على أن السبب الأساسى فى ظاهرة الكشكشة هو وجود كسرة أو فتحة مرققة بعد الكاف ، أننا لا نسمع الصوت « تْش » حين تكون الكاف مضمومة ، فلا يقول أصحاب هذه اللهجة من المصريين فى « كُمّ النور » مثلا « تْشُم النور » إلا إذا كسروا الكاف وقالوا « تْشِم النور » .

والذى يجعلنا نرجح أن ما سمعه الرواة ليس « شينا » وإنما هو « تْش » ، شيوع هذه الظاهرة فى اللهجات العربية الحديثة على صورة « تْش » . ولا يعقل أنها كانت فى اللهجات القديمة « شينا » ثم تطورت فى اللهجات الحديثة إلى « تْش » ، فليس مثل هذا مما يبرره التطور الصوتى . ولو قد روى لنا أن اللهجات القديمة كانت تنطق « تْش » ، ثم رأينا اللهجات الحديثة تنطق بها « شينا » ، لقبلنا هذا واعتبرناه تطورا .

وهكذا ترى أننا نلتمس من اللهجات الحديثة تفسيراً لبعض الظواهر فى اللهجات القديمة .

٦ — الميل إلى التفخيم أو الترقيق :

يبدو أن القبائل البدوية بوجه عام قد مالت إلى أصوات التفخيم ، واشتهر هذا عنهم فاستمسكوا بهذه الظاهرة فى نطقهم وتعصبوا لها ، فى حين أن القبائل الحضرية أو المتأثرة بالحضر قد آثرت الأصوات المرققة . ويتضح هذا مما روى لنا عن ظاهرة مشهورة سماها الرواة بالعجعجة ، كما يظهر هذا بجلاء فى معظم ما روى عن موقف كل من البيئتين حيال الأصوات المطبقة :—

ا — اشتهر بين صفات اللهجات العربية ظاهرة أطلق عليها القدماء اسم « العجعجة » ، وقالوا عنها إنها قلب الياء جيما .

وتعدّ هذه العملية الصوتية انتقالا بصوت لا هو بالشديد ولا الرخو ، أو فيه بعض الرخاوة وهو « الياء » ، إلى صوت آخر أميل إلى الشدة منه إلى الرخاوة وهو « الجيم » . ولعل هذه الظاهرة من صفات القبائل البدوية التى حرصت على تفخيم « الياء » فصارت « جيما » .

وقد نسب القدماء هذه الصفة إلى شعب عظيم هو قضاعة . ولكنا نعلم أن قضاعة قد تفرعت إلى سبعة أحياء .

بلى . جهينة . بنو كلب . عذرة . بهراء . بنونهد . جرم

وبين هذه الأحياء السبعة من تأثروا بالحياة الحضرية ، كما أن بينهم من عاشوا عيشة البداوة . وخير من يمكن نسبة هذه الصفة إليه من أحياء قضاعة :

جهينة أو جرم

فالعجعجة لم تكن فى الحقيقة صفة كل أحياء قضاعة ، وإنما يحتمل أنها كانت صفة هذين الحيين فقط .

وقد قيد الرواة عجعجة قضاعة بأن تسبق « الياء » « بالعين » !! وضربوا أمثلة لهذا مثل :

« الراعج خرج معج » أى « الراعى خرج معى » .

ويظهر أن « الياء » فيما ساقوه من أمثلة لم تكن فى نطق القضاعيين ياء مدّ ، بل كانت صوتا ساكنا ، أى أنه كان ينطق بها « الراعىْ » ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم .

وقد نسبت هذه الصفة أيضاً إلى « فقيم دارم » فى قبيلة تميم ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه من احتمال وجود هذه الصفة بين البدو من القبائل . ولم تقيد هذه الصفة بأى قيد حين نسبت إلى « فقيم دارم » ، فقد أنشد أبو زيد :

يا رب إن كنت قبلت حجتجْ فلا يزال ساجح يأتيك بجْ

وقال الحماسى :

خالى عويف وأبو علجْ المطعمان الضيف فى العشجْ

أما العلاقة بين الياء و الجيم من الناحية الصوتية فواضحة جلية ، لأن كلا منهما صوت مجهور ، ومخرجهما واحد ، و إنما تختلف الجيم عن الياء فى أن الأول صوت أقرب إلى الشدة منه إلى الرخاوة ، فى حين أن الياء من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين ، وليست بشديدة ولا رخوة أو فيها بعض الرخاوة .

وربما قد التجأت تلك القبائل إلى الانتقال بالصوت من صفة اليسر إلى صفة العسر قصد التفخيم فى الكلام ، وهو ما لا نستطيع تصوره إلا بين قبائل البدو .

علينا بعد هذا أن ننظر إلى ذلك القيد الذى قيدت به لهجة قضاعة ، وهو أن تسبق الياء بالعين ! !

فى الحق أنه ليس لهذا القيد ما يبرره من الناحية الصوتية ، اللهم إلا أن يقال إن كلا من العين والياء من الأصوات المتوسطة فى رأى علماء مخارج الحروف من العرب ، وتفخيم القول يقتضى أن يقلب أحدهما إلى نظير له شديد ، فكانت الجيم بدل الياء .

ولكن لم كانت العين وحدها دون باقى الأصوات المتوسطة الأخرى من ميم وراء ولام ؟ ! هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه الآن لنقص معرفتنا بكل طبائع اللهجات العربية القديمة .

(ب) أصوات الأطباق أصوات مفخمة ، لها رنة قوية فى الآذان ، مما يلائم طباع البدو وخشونتهم . فلا عجب إذن أن تشيع تلك الأصوات فى لهجات البدو ، وأن تأخذ فى الانقراض من ألسنة المتحضرين .

واللغة العربية بصفة عامة قد مالت فى تطورها إلى التخلص من أصوات

الإطباق ، أى الصاد . الظاء . الضاد . الطاء . إذْ نسبة شيوع هذه الأصوات فى الأسلوب القرآنى ضئيلة جداً . فنسبة شيوع الصاد ٨ مرات فى كل ألف من الأصوات الساكنة ، والضاد ٦ مرات ، والطاء ٤ مرات ، والظاء ٣ مرات ، فى حين أن صوتاً كالنون مثلا نسبة شيوعه حوالى ١١٢ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة .

وقد مالت اللهجات الحديثة إلى التخلص من هـذه الأصوات فى معظم المواضع . ولقد روى عن تميم أنهم كانوا يقلبون « السين » « صاداً » مع بعض الأصوات المفخمة كأصوات الإطباق ، وكذلك مع القاف والغين والخاء إذا كنّ بعد « السين » مثل :

سراط = صراط . سخر لكم = صخر لكم

سيقل = صيقل . سبغة = صبغة

ونحن حين نستعرض أشهر الروايات التى جاءت بالمعاجم عن موقف اللهجات القديمة من حروف التفخيم نراها تكاد تنحصر فى أمور ثلاثة :

١ — الصاد والسين : فقد روى أن بنى العنبر من تميم كانوا ينطقون بكلمة « الساق » قائلين « الصاق » . وبنو العنبر ممن توغلوا فى البداوة ، ومالوا إلى تفخيم الأصوات . فإذا قارنا هـذه الرواية بما روى فى مكان آخر عن كلمة « الصقر » ، وأن لها نطقاً آخر غير منسوب هو « السقر » ، أمكننا أن نقسم هذه الظاهرة إلى نوعين : النوع الأول هو أن بعض الكلمات كان ينطق بها بين البدو مشتملة على صوت تفخيم ، وينطق بها فى نفس الوقت بين الحضر مشتملة على نظيره المرقق . وقد عاش النطقان جنباً إلى جنب قبل الإسلام مثل : الساق والصاق . أما النوع الثانى فهو أن الكلمة لم يكن لها قبل الإسلام سوى نطق واحد ورد فى نصوص أدبية موثوق بها ، ثم تطورت بعد الإسلام وأصبح لها نطق آخر سمعه الرواة حين جمعوا اللغة . فالصقر هو النطق القديم لهذه الكلمة

ثم تطورت الصاد فى بيئة حضرية وأصبحت « سيناً » .

ولا شك أن ما ورد فى اللسان من قوله : [الصماخ من الأذن الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس تميمية ، والسماخ لغة فيه ... وصمخه صمخاً أصاب صماخه فعقره ، ولغة تميم الصمخ] ، يعتبر من النوع الأول ، أى أن « الصماخ » بالصاد كانت تستعمل فى بيئة بدوية ، جنباً إلى جنب مع « السماخ » بالسين فى بيئة حضرية .

أمّا ما روى عن الصراط والسراط ، فيظهر أن الأصل هو النطق بالصاد بدليل ورودها فى القرآن الكريم بالصاد ، ثم تطورت حتى شاع فيها نطق آخر بالسين . فليس الأمر كما ظن بعض الرواة من أن السين هى الأصل . جاء فى اللسان: [والسراط السبيل الواضح والصراط لغة فى السراط ، والصاد أعلى لمكان المضارعة وإن كانت السين هى الأصل ، وقرأها يعقوب بالسين . قال الفراء : ونفر من بنى العنبر يصيرون السين إذا كانت مقدمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صاداً] . ولسنا نوافق صاحب هذه الرواية على أن الأصل فى الكلمة بالسين ، ولكنا نوافقه على أن نطقها بالصاد أفصح ، لأنه الذى ورد فى القرآن الكريم ، وأخذ به معظم القراء . وكلام الفراء عن لهجة بنى العنبر صحيح فى جملته ، ولكنه لا يمت لهذه الكلمة بصلة ، بل ينطبق على مثل « الساق » و « الصاق » . أما قول صاحب اللسان بعد هذا : [إن النطق بالصاد لغة قريش الأولين التى جاء بها الكتاب ، وعامة العرب تجعلها سيناً] ، فيجب ألا يؤخذ دليلا على أن النطق بالصاد مما ينتمى للهجة قريش ، وذلك لأن ورودها فى القرآن بالصاد لا يقوم دليلا قاطعاً على أنها أيضاً لهجة قريش . فهناك فرق بين لهجة قريش و بين اللغة النموذجية المشتركة التى نزل بها القرآن الكريم ، ولكن الرواة قد درجوا على اعتبارهما شيئاً واحداً ، الأمر الذى نتردد فى قبوله الآن .

ويشبه هذا ما حدث لكلمة أخرى هى حسب رواية اللسان [وقد صخب بالكسر يصخب صخباً ، والسخب لغة فيه ربعية قبيحة] . فالأصل هو الصخب ثم تطورت الكلمة وصارت بالسين فى بعض قبائل ربيعة التى تأثرت ببيئة الحيرة ، ولكن النطق « بالسخب » قد اقتصر أمره على منطقة صغيرة وبين قوم مغمورين ، ولذلك عده الرواة قبيحاً ، أما النطق « بالسراط » فقد شاع بين القبائل ، وجاء جامعو اللغة فوجدوه مشهوراً مألوفاً بل وجدوا من القراء من يقرأ القرآن به ولذلك لم يجعلوه فى مستوى النطق « بالسخب » .

بقى بعد هذا أن نسوق ما جاء فى اللسان مبرهناً على أن « السين » قد ينطق بها صاداً حين يكتنفها أصوات معينة قال : [وصقوب الإبل أرجلها لغة فى سقوبها حكاها ابن الأعرابى قال : وأرى ذلك لمكان القاف ، وضعوا مكان السين صاداً لأنها أفشى من السين وهى موافقة للقاف فى الإطباق ليكون العمل من وجه واحد ، قال وهذا تعليل سيبويه فى هذا الضرب من المضارعة] . أليس هذا هو ما سميناه آنفاً بالمماثلة أو تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ؟ غير أنا لا نتفق مع صاحب اللسان حين يزيد على هذه الرواية قوله : [ومنه حديث علىّ عليه السلام أنه كان إذا أتى بالقتيل قد وجد بين القريتين حمل إلى أصقب القريتين إليه أى أقربهما ، ويروى الحديث بالسين] ، بل نرجح الرواية الثانية للحديث أى بالسين ، لأن صاحب الحديث من قريش فهو ممن تأثروا بالبيئة الحضرية أكثر من تأثره بالبدو .

٢ — الطاء والتاء : فقد كانت القبائل البدوية تؤثر الطاء أحياناً . جاء فى اللسان [وأفلطنى الرجل إفلاطا مثل أفلتنى ، وقيل لغة فى أفلتنى تميمية قبيحة] . وجاء فى المخصص[١] [وقد أبدلت الطاء من التاء فى « فعلتَ » إذا كانت بعد

---

(١) جزء ١٣ صفحة ٢٧٠ .

حرف من حروف الإطباق قال وهى لغة تميم قالوا « فحصطَ برجلك » يريدون فحصتَ] .

٣ — القاف والكاف : ويستخلص من روايات المعاجم أن البيئة البدوية كانت تؤثر القاف ، فى حين أن البيئة الحضرية قد آثرت الكاف . جاء فى اللسان قشط الجلّ عن الفرس قشطا نزعه وكشفه وكذلك غيره من الأشياء ، قال يعقوب : تميم وأسد يقولون قشطت بالقاف ، وقيس تقول كشطت ، وليست القاف فى هذا بدلا من الكاف لأنهما لغتان لأقوام مختلفين] . وجاء فى المخصص[(١)] [كشطت عن جلده وقشطت ، قال أبو عبيدة : وقريش تقول كشطت ، وتميم وأسد وقيس تقول قشطت] .

فموقف « قيس » من هذه الظاهرة غامض بعض الغموض ، ولكن المناظرة بين تميم وقريش فى رواية صاحب المخصص توضح لنا بجلاء أن المقارنة كانت بين بيئتين : إحداهما بدوية والأخرى حضرية ، وأن يعقوبا فى رواية صاحب اللسان قد قصد « بقيس » بعض القبائل الحجازية .

وقد بيّن لنا يعقوب فى كلامه أن هناك فرقاً بين نطقين عاشا جنباً إلى جنب فى بيئتين مختلفتين ، وبين أن يتطور نطق عن آخر أصلى . وهكذا نرى أن من الرواة القدماء من فطنوا إلى ما ندعو إليه هنا من التفرقة بين الكلمات التى تروى بروايتين ، فقد شاع لبعضها نطقان قبل الإسلام وفى صدر الإسلام واختصت البيئة البدوية بأحد النطقين ، واختص الحضر بالنطق الآخر وعاش النطقان فى زمان واحد ولكن فى بيئتين مختلفتين ولا ندرى الأصل منهما أو الفرع . وهناك كلمات أخرى ذات نطقين ولكن أحدهما يعتبر الأصل ، ويعتبر الآخر تطوراً له .

---

(١) جزء ١٣ صفحة ٢٧٧ .

— ٥ —

السرعة فى النطق

تميل القبائل البدوية إلى السرعة فى نطقها ، وتلمس أيسر السبل ، فتدغم الأصوات بعضها فى بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم السامع . ولا شك أن حياة السكينة والهدوء فى البادية لا تتطلب نشاطا كذلك الذى قد تحتاج إليه حياة الحضر ، لما بها من صخب وأمور دنيوية معقدة تدفع بالمرء إلى حلّ تلك المشاكل التى كثيراً ما تعترض الحضرى بحكم بيئته ، وخضوعه لنظام من الحكم متعدد القوانين . ولا يستطيع المرء أن يشق طريقه بنجاح فى حياة الحضر إلا بأن يظهر نشاطاً فى عمله ، وأن يلقى جهداً فى موارد رزقه . أما البدوى الذى يقنع بالقليل ، ويخلد إلى السكينة والهدوء فحياته مليئة بالتراخى ، وبما يشبه الكسل حتى فى نطقه . فهو يقتصد فى الجهد العضلى وفى التنفس ، ويميل إلى الاختصار فى القول ، لايكاد يبدأ الكلام حتى ينتهى منه . لهذا كله صبغت لهجات البدو بصفات صوتية خاصة تخالف لهجات الحضر .

ولذلك نلحظ فى البيئة البدوية أنه حين يلتقى صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، يتأثر أحدهما بالآخر ليصبح الصوتان إما مجهورين أو مهموسين . ويغلب على اللغة العربية أن يتأثر الصوت الأول بالثانى ، فإذا كان الأول مجهوراً والثانى مهموساً أصبح الصوتان مجهورين . فإذا روى لنا أن من اللهجات العربية لهجة يقول أصحابها فى « اجتمعوا » « اشتمعوا » ، أدركنا أن الأمر هنا لايعدو أن يكون قلب « الجيم » المعطشة إلى صوت مهموس ، وذلك لتأثرها « بالتاء » بعدها فأصبح الصوتان بهذا مهموسين . وإذا قيل لنا إن من القبائل من يقلبون « الصاد » حين يليها « دال » إلى « زاى » مطبقة كما فى « أصدق ، يصدفون » ،

علمنا أن المسألة لا تزيد على أن تكون تأثر الصوت الأول المهموس بالثانى المجهور فأصبح الصوتان مجهورين ، وهذا هو التأثر الرجعى . أما التأثر التقدمى وهو الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول فهو قليل الشيوع بين اللهجات العربية رغم أن النحاة قد جعلوه قياسياً فى صيغة « افتعل » ، حين تصاغ من بعض الأفعال التى فاؤها صوت مجهور أو مطبق : مثل ازدان واصطبر ... الخ[1]

ويكفى دليلا على قلة شيوع هذا النوع من التأثر ، أن النحاة قد قصروه على أفعال خاصة ، يعرضون لها دائماً فى كتبهم ، ولا تطرد هذه الظاهرة فى كل فعل فاؤه صوت مجهور . ومع هذا فقد روى لنا أن بعضاً من تميم يقولون فى « معهم » « محم » . ويدل هذا على أن تلك الطائفة من تميم قد أسكنوا أولا « العين » من كلمة « معهم » ، فالتقت العين والهاء ، وبما أن « العين » صوت مجهور « والهاء » صوت مهموس ، تأثرت العين بالهاء فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو الحاء ، وهذا تأثر رجعى شاع فى اللهجات العربية ، ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل تأثر الصوت الثانى وهو الهاء بالأول وهو الحاء تأثراً كاملا ، وفنيت الهاء فى الحاء وصارت الكلمة « محّم » ، وهذا هو التأثر التقدمى النادر فى اللغة العربية . فهذا المثال التقدمى الذى روى لنا عن بعض من تميم قد مر فى دورين : أحدهما شائع بين اللهجات والآخر نادر .

هذا وقد رويت لنا بعض لهجات غير منسوبة لأصحابها ، منها عرفنا أن التأثر التقدمى قد لعب دوراً هزيلا فى اللهجات العربية : فقد قيل لنا إن من القبائل العربية من كانوا يقولون فى « اجتمعوا » « اجدمعوا » ، وفى « الكعبة » « الجعبة » . فنى المثل الأول اجتمعت « الجيم » وهى مجهورة بالتاء وهى مهموسة فتأثر الصوت الثانى بالأول وأصبح الصوتان مجهورين ، وفى المثل الثانى اجتمعت

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١١٥ الطبعة الثانية .

اللام وهى مجهورة بالكاف وهى مهموسة ، فتأثر الثانى بالأول وأصبح الصوتان مجهورين .

وقد نسب الرواة صفة الشذوذ لمثل هذه اللهجات ، وأنكروا عليها الفصاحة ، لأن الغالب الشائع فى التأثر العربى هو ذلك النوع الذى نسمية بالتأثر الرجعى . والتأثر ، أيا كان نوعه ، مما يميل إليه البدو لأن فيه اقتصاداً فى الجهد العضلى .

على أن أظهر نتائج السرعة فى النطق ، هو سقوط بعض الأصوات من الكلمات فى أثناء النطق بها .

ويعدّ هذا أيضاً من مظاهر الاقتصاد فى الجهد العضلى ، أو إن شئت فسمه كسلا ، ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع ، ولا يخل بهدف الكلام وهو الفهم ، فقد ينطق البدوى دون تمهل فى نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر . وهو لا يحفل بهذا لأن كل ما يرمى إليه هو إفهام السامع ، وقد وصل إلى غرضه مع اقتصاد فى الجهد وبطريقة أيسر وأسرع . وهذا هو السر فيما روى لنا من ترخيم فى النداء ، وفى تلك اللهجة التى سماها القدماء قطعة طيء . ولا بأس ان نورد هنا طرفاً من تلك الروايات التى ظهر فيها سقوط بعض الأصوات نتيجة السرعة فى النطق : —

١ — روى أن قبيلة طيء كانت تميل إلى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون « يا أبا الحكا » ويريدون يا أبا الحكم . وهذه الصفة تشارك الترخيم فى أنها حذف آخر الكلمة ، إلا أن الحذف فى الترخيم وارد على آخر الاسم المنادى ، أما هنا فقد يرد على أى كلمة ، اسماً كانت أو فعلا ، منادى أو غير منادى . وقد روى القدماء البيت الآتى مثلا لقطعة طيء :

درس المنا بمتالع فأبان فتقادمت بالحبس والسوبان

(أى المنازل)

كما رووا قول الشاعر :

تضل منـــه إبلى بالهوجل في لجة أمسك فلاناً عن فلى

(أى عن فلان)

(٢) ذكر القدماء فى معايب اللخلخانية فى لهجة الشحر وعمان أنهم قد مالوا إلى حذف بعض الأصوات ، فكانوا يقولون فى « ما شاء الله » « مشالله »!

(٣) روى أن قبيلتى خثعم وزبيد من قبائل اليمن ، كانوا يميلون إلى حذف نون « مِن » الجارة إذا وليها ساكن فيقولون « خرجب مِلْمسجد » !

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بما جاوز الآمال ملأسر والقتل

(٤) روى أن بعضاً من ربيعة كانوا يسقطون نون « اللذين » و « اللتين » وعليه قول الفرزدق :

أبنى كليب إن عمى اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقول الأخطل :

هما اللتـــا لو ولدت تميمُ لقيل فخر لهمُـــو صميمُ

هذا ولا ندرى كيف وقعت مثل هذه الصفات اللهجية فى شعر الأخطل والفرزدق مع ما نعرف من حرص كل منهما على النظم باللغة النموذجية الأدبية ؟!

أليس من الممكن أن يكون بيت الفرزدق كما يلى :

أبنى كليب إن عمى اللذينْ قتلا الملوك وفككا الأغلالا

أى أن يروى الشطر الأول منتهياً بما يشبه نون الترنم ، ولا أظن أن الأذن الموسيقية تلحظ حينئذ انحرافاً فى وزن البيت .

كذلك يمكن أن يروى بيت الأخطل رواية أخرى تنسجم مع صفات اللغة الأدبية التى نظم بها الشعراء فى كل العصور ، ولا تشذ فى الوقت نفسه عن مقاييس الشعر العربى .

على أن هذه الصفة قد نسبت أيضاً إلى قبيلة بلحارث من قبائل اليمن .

(٥) نسب إلى قبيلة بلحارث حذف اللام والألف من « على » الجارة إذا وليها ساكن ، فيقولون (ركبت علْفرس) أى على الفرس .

(٦) روى أن بعضاً من ربيعة كانوا يقفون على المنصوب المنون بالسكون فبدل أن يقولوا « رأيت محمدا » يقولون « رأيت محمدْ » .

(٧) روى أن قبيلة طيىء كانت تؤثر الوقف على تاء جمع المؤنث السالم بقلبها « هاء » . وقد سمع بعضهم يقول : « دفن البناه من المكرماه » أى « البنات من المكرمات » !!

وليست هذه الظاهرة فى الحقيقة قلب صوت إلى آخر ، بل هى حذف الآخِر من الكلمة . وما ظنه القدماء « هاء » متطرفة هو فى الواقع امتداد فى التنفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ، أو كما يسمى عند القدماء ألف المد . وهى نفس الظاهرة التى شاعت فى الأسماء المؤنثة المفردة التى تنتهى بما يسمى بالتاء المربوطة ، فليس يوقف عليها بالهاء كما ظن النحاة ، بل يحذف آخرها ، ويمتد التنفس بما قبلها من صوت لين قصير (الفتحة) ، فيخيل للسامع أنها تنتهى بالهاء .

ولقد تطورت تاء التأنيث فى اللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال تفصيلها ، وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلى :

(١) الأصل فى علامة التأنيث هو التاء المتطرفة ، وقد ظلت على حالها فى الفعل الماضى وجمع الإناث فى اللغة العربية .

(ب) تطورت فى الأسماء المؤنثة المفردة إلى حال وسطى وهى : النطق بها تاء فى حالة الوصل ، وحذفها فى حالة الوقف .

(ح) الطور الثالث لهذه العلامة هو حذفها مطلقا وصلا ووقفا فى كل اسم مفرد مؤنث . وقد شاع هذا الطور الأخير فى معظم اللغات السامية كالعبرية وفى اللهجات العربية الحديثة . فحين نسمع كلمة مثل « الشجرة » فى لهجات

الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت « هاء » ، والحقيقة أنها حذفت من النطق ، وامتد التنفس مع صوت اللين قبلها فسمع كالهاء .

وعلى هذا فإذا روى لنا أن من القبائل من كانوا يقفون على هذه التاء المربوطة « بالتاء » ، مثل أولئك الذين سمع عنهم من قال « يا أهل سورة البقرتْ » فأجابه آخر « ما أحفظ منها آيتْ » ، فليس هذا إلا احتفاظاً بالأصل فى ظاهرة التأنيث .

وقد احتفظت بعض اللهجات العربية الحديثة بهذا الأصل . وامتداد التنفس الذى يخيل للسامع أنه هاء متطرفة هو فى الحقيقة ما سماه القدماء بهاء السكت .

وإننا حين نستعرض أحكام هاء السكت كما شرحها النحاة ، نراها تنحصر فى الوقف على الكلمة التى تنتهى بصوت لين طويل كما فى مثل « البناه والمكرماه » ، أو صوت لين قصير كما فى الوقف على الاسم المفرد المؤنث بعد حذف تاء التأنيث منه ، وكما فى الوقف على الفعل المجزوم بحذف حرف العلة ، وما الاستفهامية .

والغالب الشائع فى اللغة العربية أن تلحق هاء السكت أصوات اللين القصيرة (أى الحركات) بشرط أن تكون جزءاً من بنية الكلمة . وعلى هذا لا تلحق هاء السكت حركة الإعراب ، لأنها لا تلازم صورة واحدة كحركات البناء[١] .

نرى كل هذا فى البيئة البدوية ولا نكاد نعثر على مثله فى البيئة الحضرية التى تتطلب الدقة فى معظم مظاهرها الاجتماعية ومن بينها اللغة . فالحضرى يعنى بتخير لفظه ، وحسن أدائه ، ويعمد إلى نطق كل صوت دون تداخل بين الأصوات . فالمجهور يظل مجهوراً ، والمهموس يحافظ على همسه ، لأن من مظاهر التحضر اللباقة فى القول وحسن النطق ومراعاة قواعده ، وذلك هو ما شاع فى البيئة الحجازية على العموم ، وفى مكة بصفة خاصة .

فلا غرابة أن وصفت قريش بالفصاحة ، ونسب إليها الإحكام فى النطق وحسنه . ولا غرابة أيضاً أن اتخذت اللغة العربية التى نظم بها الشعر ، ونزل بها

---

(١) انظر تفاصيل الوقف فى كتاب « أسرار اللغة » للمؤلف صفحة ١٤٢ .

القرآن الكريم ، كثيراً من صفاتها الصوتية من البيئة الحجازية ، أو بعبارة أدق من لهجة قريش ، فتكونت منها اللغة النموذجية التى اعتزت بها كل القبائل ولا سيما الخاصة منهم ، وحافظوا على كل أثر أدبى كتب بهذه اللغة .

وليس معنى هذا أن الصفات الصوتية لهذه اللغة الأدبية هى نفسها الصفات الصوتية للهجة قريش ، وإنما تشترك معها فقط فى الكثير منها .

وتختلف اللغة الأدبية عن لهجة قريش فى القليل من الصفات الصوتية ، كتحقيق الهمزة الذى لم يكن شائعاً بين الحجازيين ولكنه يعدّ أصلا فى اللغة النموذجية التى رويت لنا بها أشهر القراءات ، وقرأ بها أشهر القراء ، وتلقاها الرواة فى عصور التدوين معتزين بآثارها فخورين بخصائصها ، فوضعوا لها القواعد الدقيقة ، وجعلوها الأساس الذى يبنى عليه ويقاس عليه ، وعدّوا ما عداها شاذا .

ولكنهم لسوء الحظ قد خلطوا فيما بعد بين هذه اللغة وما سمعوه من قبائل بدوية تعودت أن تفد إلى مدن العراق ، وتعوّد الرواة أن يرحلوا إليهم . وقد كان الرواة فى الأخذ عن تلك القبائل متأثرين بفكرة خاطئة وهى أن كل ما كان يروى عن البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجرى يحتج به ويرجع إليه .

— ٦ —

(لهجات متناثرة)

رويت لنا بعض صفات صوتية للهجات متناثرة فى شبه الجزيرة . وبعض هذه اللهجات منسوبة إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر لا نعرف لها صاحبا ، بل قد رواها الرواة مجهولة النسب ، مبتورة حينا ومشوهة حيناً آخر . فلا عجب أن قد اعترى تلك اللهجات فى تفسيرها كثير من التحريف أو التصحيف .

وسنعرض هنا طرفاً من هذه اللهجات ، دون أن نحاول تحقيق نسبتها إلى قبائلها ،

وإنما سنكتفى بشرحها وتحليلها على ضوء ما يقرره علم الأصوات اللغوية :

أولا : المشهور فى حرف المضارعة للفعل الثلاثى أن يكون مشكلا بالفتح فى كل الحالات ، بهذا جاء القرآن الكريم ، وهذا هو المألوف فى اللغة النموذجية الأدبية . غير أن الرواة يؤكدون لنا أن كثيراً من القبائل تنطق بحرف المضارعة حين يكون « تاء » أو « نونا » أو « همزة » ، مكسوراً فيقولون مثلا « تِعْلم » . وقد جاء فى اللسان(١) : [قال أبو عمرو : و تِعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب . وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون « تَعلم » بالفتح ، والقرآن الكريم عليها . قال وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلا « تِعلم » بالكسر] .

ويبدو من كلام اللغويين أن جميع العرب يلتزمون الفتح حين يكون حرف المضارعة « ياء » فيما عدا قبيلة بهراء التى عرفت لهجتها بكسر هذا الحرف مع الياء أيضاً ، وقد سميت هذه الظاهرة بتلتلة بهراء . وبهراء هذه قبيلة فى قضاعة وكانت مساكنهم متاخمة لحدود الشام ، فهل تأثرت فى هذه الظاهرة بما جاورها من لغات كالآرامية والعبرية اللتين اطرد فيهما كسر حرف المضارعة ؟

على أن الرواة كعادتهم يأبون إلا أن يسوقوا لنا شواهد من الشعر حتى فى مثل هذه الظاهرة التى تنتمى إلى اللهجات ولا تمت للغة الشعر بصلة . فقد قالوا إن أحد الشعراء يقول :

لو قلت ما فى قومها لم تيثم يفضلها فى حسب وميسم

فبدلا من أن يقول « تأثم » كسر حرف المضارعة ، ثم سهلت الهمزة فصار الفعل « تيثم » . ومع هذا لا يصح مثل هذا البيت أن يكون شاهدا على تلتلة بهراء لأن حرف المضارعة هنا « تاء » وليس « ياء » !

---

(١) جزء ٢٠ صفحة ٢٨٣ .

هذا مثل آخر يدل على أن الرواة كانوا يتخبطون أحياناً فى وصف لهجات العرب لنا .

ويظهر أن حركة حرف المضارعة قد خضعت فى اللهجات إلى قانون صوتى ، وأنه كان لطبيعة فاء الكلمة أثر فى شكل حرف المضارعة . فحين كانت فاء الكلمة من حروف الحلق ، مال حرف المضارعة إلى الفتح ، أما فى غير ذلك فقد التزم الكسر فى معظم اللهجات .

وحين نستعرض اللهجات العربية الحديثة نرى معظمها يلتزم كسر حرف المضارعة ، مما يبرهن على أن هذا هو الذى شاع فى معظم اللهجات القديمة أيضا . على أننا نلحظ أن بعض اللهجات الحديثة تؤثر الفتح حين تكون فاء الكلمة من حروف الحلق .

ولهذا كله نرجح أن الأصل فى شكل حروف المضارعة هو ما شاع فى لهجات الحجاز من الفتح فى كل الحالات . وقد انحدر هذا الأصل إلى هذه اللهجات من السامية الأولى ، ثم تطور إلى كسر فى معظم اللغات السامية ، غير أن تطوره فى لهجات العرب لم يشمل حالة « الياء » لأن الياء المشكلة بالكسر نادرة الشيوع فى النطق العربى[1] . ولأن الياء مع الكسر أشق منها مع الفتح ، مما قد يتعارض مع حكمة التطور إلى الكسر . لذلك احتفظت معظم القبائل التى تطور فى لهجتها شكل حرف المضارعة ، بفتحه حين يكون « ياء » .

أما بهراء فأغلب الظن أنها تبعت اللغات السامية المجاورة لها .

ثانيا : نسب الرواة لقبيلة حمير أنها كانت تقلب اللام فى أداة التعريف « ميما » ، ورووا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخاطب بعض الحميريين « ليس من امبر امصيام فى امسفر » ، وسموا هذا طمطمانية حمير .

ونسب الرواة أيضاً إلى قبائل سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار أنهم

---

(١) أنظر أسرار اللغة للمؤلف صفحة ١٧٨ .

كانوا يقلبون « العين » فى الفعل « أعطى » إلى « نون » فيقولون « أنطى » ، وقد قرئ « إنا أنطيناك الكوثر » ، وقد سمى الرواة هذه الظاهرة بالاستنطاء .

وفى كل من هاتين الظاهرتين قد قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف . وقد تقدم القول إن قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف ، أو العكس ، أمر معترف به فى معظم اللهجات ، وإنه فى الغالب نتيجة أخطاء الأجيال الناشئة ، حين يحاولون التوفيق بين مجرى الأصوات ، فيجعلونها إما من الفم أو الأنف فقط .

ولكننا حين نستعرض الأمثلة التى رويت لنا بصدد هاتين الظاهرتين لا نكاد نعثر على مبرر صوتى قوى ، كذلك الذى لاحظناه من قبل فى مثل نطق أطفالنا لكلمتى :

« دبّان » و « بلكونة » حين يقلبونهما إلى « دمّان » و « ملتونة » . فكيف تأتى إذن أن قلبت لام التعريف إلى « ميم » وهما لا يختلفان فى المجرى فحسب ، بل وفى المخرج أيضاً ؟؟ وكذلك كيف تأتى أن قلبت العين إلى نون فى « أعطى » مع اختلافهما فى المجرى والمخرج أيضاً ؟؟

لهذا كله نرجح أن الرواية مبتورة أو ناقصة ، ولا يستطاع الحكم على مثل هاتين الظاهرتين من مثل أو مثلين رددهما الرواة .

وليس هناك ما يمكن أن يبرر هاتين الظاهرتين سوى اشتراك « اللام والميم والنون والعين » فى الصفة ، فكل من هذه الأصوات صوت مجهور متوسط لا هو بالشديد ولا بالرخو . على أنه إذا أمكن أن نتلمس أسباباً أخرى فى طمطمانية حمير ، فمن العسير أن نبرر استنطاء هذيل فى فعل واحد من بين أفعال اللغة . وليس فى مجاورة العين للطاء أمر غير عادى ، فقد رويت هذه المجاورة فى كثير من الأمثلة ومع هذا فلم ينسب لها استنطاء . فلم اختصت « أعطى » بهذه الصفة ، فى حين أنها لم تنسب لأية كلمة اشتقت من المواد الآتية :

« عطش ، عطس ، عطل ، عطر ، عطن ، عطف » ؟ !

ويظهر أن الأمر لم يكن مقصوراً على الفعل « أعطى » ، بل يتعلق بنطق كل « عين » سواء وليها « طاء » أو صوت آخر . فلعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نطقاً أنفميا ، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين ممتزجة بصوت النون وليست فى الحقيقة نونا ، بل هى « عين » أنفميّة [(١)] . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة فى الفعل « أعطى » فأشكلت عليهم ، ولم يصفوها لنا على حقيقتها .

أما فى حالة طمطمانية حمير فإن أداة التعريف فى اللغات السامية قد رويت حيناً « باللام » كما فى العربية ، وحيناً آخر « بالنون » كما فى العبرية . فقد أجمع المستشرقون على أن أداة التعريف العبرية كانت فى الأصل « هَنْ » . واستدلوا بتشديد أوائل الأسماء المعرفة فى اللغة العبرية على إدغام نون « هَنْ » فى الحروف الأولى من الأسماء ، بشرط ألا تكون حروف حلق . فليس بغريب بعد هذا أن تروى أداة التعريف فى بعض اللهجات السامية « بالميم » كما فى طمطمانية حمير ، لأن العلاقة الصوتية بين « اللام والنون والميم » واضحة جلية : فهى أكثر الأصوات شيوعاً فى اللغات السامية ، كما أنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . ولهذا كانت من أسبق الأصوات فى نطق الطفل . فهذه الأصوات الثلاثة أصوات قديمة سبقت فى نطق الإنسان الأول غيرها من الأصوات ، وقد استغلت فى ظواهر لغوية متعددة ، فهى أحياناً تعبر عن النفى وأحياناً تفيد التعريف . فهى مجموعة متميزة بين أصوات اللغة يحل بعضها مكان بعض ، وقد تنقلب جميعها إلى أصوات لين طويلة .

ثالثاً : صوت اللين المركب الذى يسميه المحدثون « **Diphthong** » ، قد مر

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٦٣ .

فى اللغة العربيـة فى أدوار ثلاثة : « ai » أو « au » ، ثم تطور الأول إلى : e والثانى إلى : o وأخيراً صار الاثنان : a .

ففى الأفعال المعتلة الآتية :

بان . كان . رمى . سما

بدأت أولا على الصور الآتية بالترتيب :

بَيْنَ . كَوْنَ . رَمَيْ . سَمَوْ

Samau Ramai Kauna Baina

ثم صارت :

بَيْنَ . كَوْنَ . رَمَى . سَمُوْ

Samo : Rame : Ko : na Be : na

ثم صارت جميعها بألف لين خالصة كما نعهدها الآن . على أن القبائل قد اختلفت فى هذا ، فمنها قبائل احتفظت بالطور الأول ، وأخرى وصلت إلى الطور الثانى ووقفت عنده ، أما الطور الأخير فهو أحدثها وأفصحها لـكثرة شيوعه بين القبائل المشهورة ، ولأنه الصفة التى شاعت فى اللغة الأدبية النموذجية ، وهذا هو السر فى الروايات الآتية :

روى أن قبائل بلحارث وخثعم وكنانة تلزم المثنى الألف ، وعلى هذه اللهجة قول القائل :

« قد بلغا فى المجد غايتاها »

وروى أيضاً أنهم كانوا يقلبون كل ياء بعد فتحة ألفاً فيقولون فى « جئت إليك » « جئت إلاك » . وقد قال الشاعر « طاروا علاهن فطر علاها » ، أى « عليهن وعليها » .

وهذه اللهجة هى الطور الثالث لصوت اللين المركب ، ولهذا تعدّ من أحدث

مظاهر اللهجات العربية . إذ يظهر أن الأصل فى المثنى التزام الياء ، ثم تطور هذا

إلى الإمالة التي لا تزال شائعة فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، وأخيراً صار المثنى بالألف [١] .

وقد اتخذت اللغة النموذجية أحوال المثنى من لهجات مختلفة ، ثم خصص النحاة حالة الياء بالنصب والجر ، وحالة الألف بالرفع .

ولقد قررنا قبلا أن اللغة النموذجية قد اتخذت بعض صفاتها من لهجات متعددة . لهذا نرجح أن أحكام المثنى كما رويت لنا فى اللغة الأدبية النموذجية ترجع فى الأصل إلى أكثر من لهجة واحدة .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى لهجة « فزارة » و بعض « قيس » حين يقفون على الألف المتطرفة بالياء فيقولون فى « الهدى » « الهُدَىْ » . فلهجة فزارة هى الطور الأول ، أما الطور الثانى فهو الإمالة ، وأخيراً أصبحت الكلمة كما نعهدها الآن بألف اللين الخالصة ، وهو أفصح الجميع وأكثرها شيوعاً بين القبائل .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن قبيلة هذيل كانت تقول « عَصَىّ » بدلا من « عصاى » ، علمنا أن الأمر لا يعدو أن قبيلة هذيل التزمت الطور الأول لصوت اللين المركب ولم يتطور فيها .

وبهذا يمكن أن نفسر قول شاعرهم :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهموا ‌ ‌ فتُخُرِّموا ولكل جنب مصرعُ

ويظهر أن الوقف على أصوات اللين المتطرفة ، كان عسيراً على اللسان العربى ، قليل الشيوع فى معظم اللهجات العربية ، فقد روى أن بعضاً من تميم كانوا يقفون على مثل كلمة « الهدى » قائلين « الهدَوْ » ، و بعض من قبيلة طيىء كانوا يقولون « الهدَأْ » بالهمزة . ولعلّ هذه هى اللهجة التى يشير إليها الأزهرى صاحب تهذيب اللغة فى قوله حـ ١٨ ص ١٤٠ [ومنها همزة الوقف فى آخر الفعل لغة لبعض العرب نحو قولهم للمرأة « قولىءْ » وللرجلين « قولأْ » وللجميع « قولؤْ » ، وإذا وصلوا

(١) أنظر الخصائص الجزء الأول صفحة ٤١٢ .

الـكلام لم يهمزوا ، و يهمزون « لأ » إذا وقفوا عليها] .

فإذا أضيف إلى هذا ما نعرفه من وقوف معظم القبائل على ما آخره صوت لين بهاء السكت ، أدركنا بسهولة كيف فرت معظم اللهجات العربية من الوقوف على أصوات اللين طويلها وقصيرها .

رابعاً : اختلاف موضع النبر :

تخضع اللغات إلى قواعد خاصة فى موضع النبر من الـكلمة أو الجملة . والنبر هو الضغط على مقطع من المقاطع بحيث يتميز عن غيره من مقاطع الـكلمة و يزداد وضوحه فى السمع (١) .

ولم يعن المتقدمون بالبحث فى مواضع النبر العربى ، و إنما هى إشارات رووها فى ثنايا كتبهم نستطيع منها الحـكم على أثر النبر فيما يعرض لبعض اللهجات من ظواهر صوتية . وقد اختلفت مواضع النبر فى اللهجات العربية الحديثة اختلافاً يجعلنا نرجح أن اللهجات القديمة قد اختلفت أيضاً فى هذا . وحين نعتمد على قراءة المجيدين فى العصر الحاضر . ونحاول استنباط مواضع النبر فى قراءتهم ، نستطيع أن نتبينه فى واحد من مواضع ثلاثة :

إما أن يكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، أو على المقطع الذى قبل الأخير بشروط معينة أيضاً ، فإذا لم تتوفر شروط هذا أو ذاك كان النبر على المقطع الثالث حين نعدّ المقاطع من نهاية الـكلمة .

ومثال الموضع الأول « المستقر » حين نقف على قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » ، « نستعين » حين نقف عليها فى قوله تعالى : « إياك نعبد و إياك نستعين » .

ومثال الموضع الثانى :

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٩٧ .

يكتبُ بحرٌ أصغرُ

فى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير وهو على الترتيب .

تُ ، بَحْ ، غَ

ومثال الموضع الثالث وهو القليل الشيوع فى اللغة العربية كما نسمعها من أفواه القراء فى عصرنا الحاضر :

ضربَ ، اشتهرَ ، اجتمعوا

فى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الثالث من الخلف وهو على الترتيب :

ضَ ، تُ ، تَ

على أن هناك موضعاً رابعاً للنبر نادر الشيوع ، يقع على المقطع الرابع حين نعدّ المقاطع من نهاية الكلمة . ونلحظ هذا فى كلمات مثل :

عربةٌ ، بلحةٌ ، رقبةٌ

فى مثل هذه الأمثلة يكون النبر على المقاطع الآتية على الترتيب :

عَ ، بَ ، رَ

والذى نلحظه بوجه عام هو أن اللهجات العربية تميل فى حالة الوقف إلى نقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، فحين نقف على الأمثلة الآتية :

يكتبُ ، خالدٌ ، مستفهمٌ

نلحظ أن النبر ينتقل من المقاطع الآتية :

تُ ، لِ ، هِ

إلى المقاطع التى قبلها وهى :

يكْ ، خَا ، تَفْ

وذلك لأن من يريد الوقف لا ينتظر بنطقه حتى ينتهى من جميع المقاطع ،

بل يبتر غالباً المقطع الأخير أو جزءاً منه ، من آخر كلمة فى جملته . وقد ترتب على هذا تلك الظاهرة التى سماها القدماء الوقف بالسكون ، ففى الكلمات المنونة يحذف تنوينها ، والكلمات المحركة الآخر سواء كانت تلك الحركة حركة إعراب أو بناء ، تحذف حركتها ، فالقبائل بصفة عامة تقف على الكلمات الآتيـة :

خالدٌ ، معلمٌ ، ينزلُ

هكذا :

خالدْ ، معلمْ ، ينزلْ

ونلحظ فى حالة الوقف انتقال موضع النبر إلى المقطع الذى قبله فى معظم الحالات . على أن معظم القبائل قد اختصت المنون المنصوب بحكم خاص ، وهو الوقف عليه بالألف ، إلا قبيلة ربيعة التى اشتهر عنها الوقف عليه بالسكون أيضاً .

وقد روى لنا أن بعض القبائل قد التزموا فى لهجاتهم حكماً خاصاً فى حالة الوقف مثل :

(ا) روى أن قبيلة الأزد من القبائل اليمنية كانت تقف على الكلمات المنونة بحركة من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون : جاء خالدو ، رأيت خالدا ، مررت بخالدى .

وعلى هذا فلا شك أنهم كانوا يبقون النبر فى موضعه فى حالة الوقف ، وهو فى كل من الأمثلة الثلاثة المتقدمة « لِ » فى خالد .

(ب) — كما نستنتج أن قبيلة سعد بن بكر كانت تبقى النبر فى موضعه أيضاً فى حالة الوقف ، ولكنهم مع هذا كانوا يحذفون التنوين . ولم يكن من الممكن حذف التنوين وإبقاء النبر فى موضعه إلا بتشديد الحرف الأخير من الكلمة ، وإلا خالف هذا ما عرف عن نسج المقطع الأخير من الكلمات العربية حين يكون منبوراً . فشرط المقطع الأخير حين يقع عليه النبر أن يكون أحد نوعين :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن

أو :

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان

ففى حالة الوقف على مثل « خالد » بالسكون ، مع بقاء النبر فى موضعه، يجب أن تصبح الكلمة على أحد وجهين : إما (خالدّ) أو (خاليد) .

وقد اتخذت لهجة سعد بن بكر الوجه الأول وهو « خالدّ » فى حالة الوقف، وذلك حين يكون المقطع الذى قبل الأخير متحركا ، أما إذا كان ساكنا فالنبر لا يتغير موضعه فى حالة الوقف فى أية لهجة من اللهجات . ولهذا روى أن لهجة سعد بن بكر تقول (هـذا بكْرْ) فى حالة الوقف ، كما هو الشائع فى اللهجات الأخرى .

هذا وقد روى أن قبيلة سعد بن بكر لا يلتزمون لهجتهم هذه فى حالة الوقف على ما آخره همزة مثل » رشأّ » ، لأن تضعيف الهمزة ثقيل على السمع ويحتاج إلى جهد عضلى كبير ، أو لعل السبب الحقيقى هو أن كلمة « رشأ » على صيغة لا يتغير معها موضع النبر حين يوقف عليها بالسكون ، فموضع النبر من هذه الكلمة فى حالتى الوصل والوقف هو المقطع « رَ » وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الوقف بالتضعيف ، ولم يرو عن أحد من القرّاء ، إلا ما نسب لعاصم فى قوله تعالى « وكل صغير وكبير مستطرّ » ، وما نسب لأبى عمرو « وتواصوا بالصبرّ » ، كما قرأ سلاّم « والعصرّ » .

ويظهر أن هذه القبيلة قد التزمت فى معظم الأحيان نبر المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقف عليها ، مما أدى إلى تضعيف الحرف الأخير .

وهناك قبائل أخرى يضغطون على المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقف عليها ، وأولئك هم الذين يقفون بما سماه النحاة الوقف بالنقل . ففى مثل الوقف على بكر وعمرو ، ينقلون حركة الراء إلى الساكن قبلها ويقولون « هذا بكُرْ » ومررت

بكرْ الخ ... وقد ترتب على التزام نبر المقطع الأخير فى لهجتهم شيئان : أولهما ما سمى بالنقل ، وثانيهما تضعيف الحرف الأخير . فأولئك الذين يقفون بالنقل كانوا فى الغالب يضغطون فى نفس الوقت الحرف الأخير من الكلمة . ولعلّ النطق الصحيح لهذه القبائل هو أنهم كانوا يقولون « هذا بكُرّ » ، ولم يفطن النحاة لهذه الصفة وظنوها الوقف بالنقل فقط .

ومما يؤيد ما نذهب إليه تلك الرواية التى رويت عن أبى عمرو فى وقفه على قوله تعالى « وتواصوا بالصبِرّ » . وقد ذكرها النحاة مرة فى الوقف بالتضعيف ، ومرة أخرى حين أشاروا إلى الوقف بالنقل ، مما يدل على أن الوقف بالنقل يستلزم أحيانا التضعيف ، ولكن ليس كل وقف بالتضعيف يتضمن نقلا ، إلا فى لهجة « لخم » و بعض من « طيء » أولئك الذين يلتزمون النقل ولو كان الحرف الذى قبل الأخير متحركا . وقد مثل النحاة للهجة لخم وطيء أولا بقول الشاعر :

من يأتمر للخير فيما قصدهُ ... تحمد مساعيه ويعلم رشدهُ

وثانيا بقول القائل :

« والكرامة ذات أكرمكم الله بَهْ » .

ويظهر أنهم كانوا يشددون الهاء فى كل من « قصدهّ ، رشدهّ ، بهّ » ، لأن النقل يصحبه فى الغالب تضعيف .

على أن ما يسميه النحاة وقفا بالنقل ليس فى الحقيقة إلا تخلصاً من التقاء الساكنين حين يقعان فى آخر الكلمة . فبعض القبائل قد سيطرت عليها عادة التخلص من التقاء الساكنين سيطرة تامة إلى حد أن التزموه أيضاً حين يكون الساكنان فى آخر الكلمة (١) .

(حـ) اختلفت القبائل العربية فى أحكام الفعل المضعف ، أى الذى فيه العين واللام من نوع واحد ، مثل « ردّ ، عدّ » . وليس لهذا الاختلاف من

---

(١) انظر أسرار اللغة صفحة ١٤٧ .

سر ، سوى اختلاف موضع النبر بين هذه القبائل .

وقد نظر النحاة إلى مثل هذا الفعل من وجهين : أولا حين يكون مجزوما ، وثانياً حين يتصل بضمير رفع :

١ — رووا لنا أن لهجة الحجازيين تلتزم فك الإدغام فى حالة الجزم فيقولون « لم يردد » ، فى حين أن بنى تميم يبقون الإدغام ويقولون « لم يردّ » . وعدّ النحاة كلا من الوجهين جائزاً صحيحاً .

أما السرّ فى التزام الحجازيين فك الإدغام فهو أنه يترتب على الجزم عادة نقل النبر من موضعه إلى المقطع الذى قبله ، لأن الجزم يختصر أواخر الكلمات . ففى قولنا « يكتبُ » نلحظ أن النبر على المقطع « تُـ » ، ولكن إذا جزم الفعل كما فى مثل « لم يكتبْ » ، انتقل النبر إلى المقطع « يكْ » . وعلى هذا كان من الواجب فى حالة جزم الفعل « يردُّ » أن ينتقل النبر من المقطع « رُدْ » إلى المقطع « يَـ » لتصبح الكلمة لم « يَرُدْ » ، ولكن التباس هذا الوضع بوضع الفعل المعتل العين ، والحرص على إظهار تضعيف الفعل ، جعل العرب من الحجازيين يفكون الإدغام ليجمعوا بين أمرين : نقل النبر إلى الوراء بسبب الجزم ، وإظهار تضعيف الفعل

وهكذا جاء الوضع « لم يردُدْ » . ولهذا عاد الحجازيون إلى الإدغام حين بقى النبر فى موضعه ، مثل « لم يردّوا » .

أما بنو تميم فلم ينقل النبر فى لهجتهم بسبب الجزم وبهذا بقى الإدغام . فكانوا يقولون فى حالة الوقف « لم يَرُدّ » ، أما فى الوصل فكانوا يحركون الدال الثانية بحركة لالتقاء الساكنين ، سواء كانت تلك الحركة فتحة أو ضمة أو كسرة على اختلاف بين النحاة . وربما كان هذا من المواضع القليلة التى يتخلص فيها من التقاء الساكنين بتحريك الثانى منهما .

نخلص من كل هذا إلى أن فك الإدغام عند الحجازيين فى مثل « لم يردد »

ليس له سرّ ، سوى نقل النبر من موضعه ، فلما جيء بالأمر من هذا الفعل كان من المعقول أن يأتى على هذا الوضع « ارْدُدْ » ، فى حين أن الأمر عند بنى تميم هو « رُدّ » .

أما تلك اللهجة التى رويت عن « عبد القيس » واختص بروايتها الكسائى فهى أنهم كانوا يقولون فى حالة فعل الأمر « أُرُدّ » ، « أُغُضّ » . ومن المحتمل هنا أن يكون هذا الوضع من أنواع القياس الخاطىء ، رغبة فى اطراد الصيغ والأوضاع فى اللهجة الواحدة . وبهذا قد قاس بنو عبد القيس الفعل الأمر هنا ، على الأمر من الفعل الثلاثى الصحيح الذى يلتزم فيه البدء بهمزة الوصل .

٢ — أما فى حالة اتصال الفعل المضعف بضمير الرفع فقد أجمع النحاة على وجوب فك الإدغام فى الكثرة الغالبة من اللهجات العربية . وربما لم يكن هذا إلا عن طريق قياس أمثال « ردّ » على الأفعال الصحيحة ، وبهذا يقال « رددت » كما يقال « ضربت » . وإذا أمكن قبول قول النحاة إن لام الفعل الصحيح قد سكنت حين اتصاله بضمير الرفع لكراهة توالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة ، فليس من المقبول أن يلتزم هذا فى مثل « ردّ » الذى لا يترتب على اتصاله بضمير الرفع أن يتوالى أربع متحركات .

فالسرّ إذن فى فك الإدغام ، هو القياس على الفعل الصحيح لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فما روى لنا من أن ناساً من بكر بن وائل كانوا يقولون « ردّتُ » ، قد جاء على الأصل . وقد ترتب على اتصال الضمير بالفعل فى لهجة بكر بن وائل ، انتقال النبر إلى الأمام ، من المقطع « رَدْ » إلى المقطع « دَ » . وانتقال النبر إلى مثل هذا المقطع قد يطيل صوت اللين فيه فيصبح « دا » . ولهذا جاءت بعض الروايات بأن لهجة قيس عيلان تزيد ألفاً بعد المدغم قبل الضمير ، فيقال « مدّاتُ » . وإذا نطق مثل هذا الوضع الأخير بالإمالة ، نتج ذلك الوضع الذى التزمته معظم اللهجات العربية الحديثة والذى نلحظه فى لغة كلامنا .

هذه إشارات منها نرجح أن القبائل العربية لم تلتزم فى لهجاتها قانوناً واحداً لمواضع النبر من الكلمات . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا الكشف عن صفات أخرى للنبر فى اللهجات العربية القديمة . وليس اختلاف مواضع النبر فيها بالأمر الغريب ، بل هو طبيعى . وإننا لنشهد الآن آثاره فى اللهجات الحديثة ، فوضع النبر فى لهجة الصعيد يختلف عن موضعه فى لهجة القاهريين وسكان الوجه البحرى ، لا فى لهجات الكلام فحسب ، بل حتى فى النطق بالعربية الفصيحة أيضاً .

— ٧ —

أشهر القبائل فى اللهجات العربية

حين نستعرض أسماء القبائل التى ذكرت فى رواية اللهجات ، نراها تشمل طائفة كبيرة من القبائل العربية المشهورة فى التاريخ والأدب . على أن روايات اللهجات قد خلت فى كثير من الأحيان من ذكر أسماء قبائل معينة إليها تنسب اللهجة . وقد تفاوتت القبائل فى نسبة اللهجات إليها ، فمنها قبيلة نسبت إليها صفة واحدة وأخرى نسبت إليها صفات عدة . وربما كان أشهر القبائل فى روايات اللهجات قبائل ثلاث هى : تميم وهذيل وطىء ، وكلها من القبائل التى نسب الرواة لها الفصاحة وإجادة القول ، واحتجوا بأقوالهم وأخذوا عنهم فى رواياتهم عصر تدوين اللغة . ولكن الغريب أن نلحظ أن هذه القبائل الثلاثة كانت من أقل القبائل نصيباً فى الشعراء الجاهليين ، إذ لم ينسب إلى واحدة منها شاعر من شعراء الطبقة الأولى ، وإنما نسب إليها شعراء مقلون ، روى عنهم القليل من الشعر الجاهلى . فقد نسب لتميم : « أوس بن حجر ، والأسود بن يعفر ، والبرّاق بن روحان ، وسلامة بن جندل ، وعلقمة بن عبيدة ، وعمرو بن الأهتم » .

ونسب لقبيلة هذيل من الشعراء الجاهليين : « المنتحل بن عويمر ، وعامر ابن حليس ، وخويلد بن خالد ، وأبو ذؤيب الهذلى » .

ونسب لقبيلة طيء : « حاتم الطائى ، وإياس بن قبيصة ، وأبو زبيد الطائى ، والطرماح بن حكيم » .

والروايات الأدبية التى رويت لنا عن العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام ، تمثل لنا كما أشرنا آنفا لهجة واحدة منسجمة الصفات ، قد ترفعت عن معظم صفات اللهجات التى رويت لنا ، فقد خلت من العنعنة والكشكشة والعجعجة ونحو ذلك ، مما نفر منه خاصة العرب قبل الإسلام وبعده . وقد اتخذت تلك اللغة الأدبية معظم صفاتها من لهجة قريش مع ما استحسنه خاصة العرب من صفات اللهجات الأخرى . فهى إذن مزيج من عدة صفات نسبت إلى قبائل عدة ، ولكنه مزيج منسجم القواعد والأصول ، نراه فى أسلوب القرآن الكريم ، كما نراه فى الآثار الأدبية الأخرى من شعر ونثر صحت روايته وتحققت . وكما يسرت القراءات على العامة من العرب نطق القرآن الكريم بما تستطيعه ألسنتهم وبما يوافق لهجاتهم ، كان من الطبيعى أيضاً أن ينطقوا الآثار الأدبية نطقا يوافق ألسنتهم وما جبلوا عليه من لهجات ، لأن تلك الآثار الأدبية وإن كتبت بلغة الخاصة ، شاع تداولها بين العامة ، وتغنوا بها واعتزوا بما اشتملت عليه من جمال الأسلوب والمعانى . فلم تكن فى تداولها وقفا على الخاصة من العرب ، بل كان يتلقفها العامة أيضاً بشغف كبير ، ويرددونها فى أغانيهم ومجالسهم ، وإن لم يفهموا الكثير منها .

وإذا تصورنا تلك القبائل المتعددة اللهجات ، تردد الآثار الأدبية فى أغانيها ومسامراتها ، أدركنا بسهولة أن لا بد من وقوع بعض الاختلاف فى النطق . فلما جاء عصر تدوين اللغة وأخذ الرواة عن قبائل عدة ، جاءتهم أشعار الشاعر الواحد بروايات عدة فى بعض النواحى . هذا هو معنى قول ابن هشام فى شرح

الشواهد : [كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ومن هنا كثرت الروايات في بعض الأبيات] .

ولنضرب هنا بعض الأمثلة التي توضح ما نرمي إليه :

تصور معى أن رجلا من القبائل التي تميل إلى الإدغام وتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، ينشد قول امرىء القيس :

و إذ هي تمشي كمشي النزيـ ـف يصرعه بالكثيب البهر

فلا شك أننا سنسمعه منه :

وإذ هي تمشي كمجي النزيـ ـف يظرعه بالكثيب البهر

أى أنه سيقلب الشين فى « مشى » إلى جيم شديدة التعطيش ليجعلها مجهورة كالياء . كما أنه يشم « الصاد » صوت الزاى فتصبح تلك « الظاء » المعروفة بين العوام فى مصر ، لأن الراء التى تليها صوت مجهور . بل قد ينطق بهذا البيت رجل ممن اشتهر بالعجعجة فنسمع منه كلمة « كمشى » « كمجّ » ، أى يقلب كلا من الياء والشين ، جيما .

وتصور أيضاً أحد العامة فى قبيلة من تلك التى تؤثر الإدغام ولا تحقق الأصوات ، ينطق بقول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فلا شك أنه سيتلمس أيسر الطرق للنطق بتلك الكلمة « مستشزرات » ، التى اتخذها علماء البيان مثلا للتعقيد اللفظى ، ويقول « مستزّرات » ، بادغام الشين فى الزاى ، بل وربما قال « متزّرات » ، بادغام السين فى التاء أيضاً .

كذلك حين نتصور رجلا من أصحاب الكشكشة ينشد بيت امرىء القيس :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

فلا شك أنه سيقول :

أغرتْش منى أن حبتْشِ قاتلى وأنتْشِ مهما تأمرى القلب يفعل

ولا يترتب على هذا إخلال بوزن البيت ، كما قد يتبادر للذهن ، على الأقل في هذا البحر بالذات .

بل ويقول أيضاً في مطلع معلقة امرىء القيس :

قفا نبتشِ من ذكرى حبيب ومنزل

فإذا أنشد بدوى ممن يميلون إلى الإدغام قول امرىء القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزّانِ

فسنسمع منه الفعل [يخزْن] [يغزن] بالغين لا بالخاء .

أو قول النابغة :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذبُ

فسنسمع منه كلمة [أكذب] [أجذب] ، بجيم خالية من التعطيش .

أو قوله :

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتبُ

فسنسمع الفعل [يعتب] [يحتب] ، بالحاء لا بالعين .

أو قول طرفة بن العبد :

كالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمتحضر
ثم لا يخزن فينا لحمها إنما يخزن لحم المدّخر

فسنسمع البيتين هكذا :

كالجوابى لا تنى مدرعة لقرى الأضياف أو المحتضر
ثم لا يغزن فينا لعمها إنما يغزن لعم المدخر

ثم تصور شاعراً كزهير بن جناب وقد ربى فى قبيلة كلب من قضاعة ، أولئك الذين اشتهروا « بالوهم » « والوكم » ، قد نظم قصيدته الحماسية التى يقول فيها :

أبى قومنا أن يقبلوا الحق فانتهوا إليه وأنياب من الحرب تحرق

فلما وصل إلى قوله من هذه القصيدة :

فما برحوا حتى تركنا رئيسهم   يعفر فيـه المَضْرَحيّ المذلق

سمعنا قومه ينشدون هذا البيت بكسر الهاء فى رئيسهم .

* * *

تلك هى أمثلة قليلة ، مما قد تصنعه اللهجات فى الآثار الأدبية ، ومما قد يترتب عليه اختلاف فى روايات البيت الواحد ، بل وقد يترتب عليه نشأة مترادفات وهمية للمعنى الواحد .

الفصل الخامس

— ١ —

اختلاف الدلالة والبنية فى اللهجات

الدلالة :

روت لنا المعاجم العربية مئات من الكلمات التى اختلفت معانيها بعض الاختلاف تبعاً للهجات المتباينة . ولم يحاول أصحاب هذه المعاجم تنظيم مثل هذه الكلمات على أساس علمى يلقى ضوءاً على تطور المعانى بين اللهجات ، وعلى الحياة الاجتماعية فى القبائل ، بل كان كل همهم هو سرد الكلمات ونسبة بعضها فقط إلى بيئاتها . فكانوا يقولون مثلا :

١ — وثب بمعنى جلس حميرية ، و بمعنى قفز عدنانية .

٢ — الشائع فى معنى السِّرحان والسِّيد هو « الذئب » ، ولكن قبيلة هذيل تستعملها بمعنى « الأسد » .

٣ — الشائع فى معنى « الكُتَع » هو ولد الثعلب ، ولكن معناه فى اليمن ولد الذئب .

بل إن المعاجم لتؤكد لنا أن بعض القبائل قد اشتهرت بكلمات معينة واختصت بها دون غيرها من سائر القبائل الأخرى مثل :

١ — « الَّلج » معناه عند طيء وقيل أيضاً هذيل ، السيف .

٢ — « غنج على شنج » معناها عند هذيل ، شيخ على جمل .

٣ — نِفاح المرأة زوجها ، يمانية .

(٤) الهرْج معناه القتل عند الحبشة .

وقد وردت كل الأمثلة السابقة فى لسان العرب لابن منظور .

ويروى صاحب المخصص أمثلة أخرى منها :

١ — العيش معناه الطعام عند اليمن (١) .

٢ — السدفة الضوء عند تميم والظلمة عند قيس (٢) .

* * *

ولا شك أن حصر كل تلك الكلمات وتنظيمها ، والنظر إليها على ضوء ما يقرره البحث الحديث الذى يسمى عند الأوربيين Semantics ، سيطلعنا على نواح من اللهجات جليلة الشأن ، بل ويفسر لنا أيضاً كثيراً من الأمور الغامضة علينا كصلات القبائل بعضها ببعض ، ونظام حياتهم قبل الإسلام .

وليس يتسع المقام هنا لمثل هذا البحث ، فنرجو أن تحققه بحوث المستقبل .

البنية :

قد تبين لنا من بحث الصفات الصوتية المختلفة بين القبائل أنه قد يترتب على معظمها تغيير فى بنية الكلمات ، وتلتزم القبائل هذا التغيير فى مواضعه ولا يستطيعون غيره إلا مع كثير من التكلف والعنت . والعربى فى لغة تخاطبه يطلق نفسه على سجيتها ، وينطق كما تعود فى بيئته ، فتبرز فى نطقه تلك الصفات التى أشرنا إليها آنفاً .

وتغير بنية الكلمات نتيجة تغير صوت من أصواتها ، يعدّ فى معظم الأحيان تغييراً طفيفاً لا يصعب معه التعرف على الكلمة فى صورتها الأصلية ، أو بعبارة أدق فى صورتها الأكثر شيوعاً ، والأفصح استعمالا .

ولئن نسب القدماء بعض الروايات لقبائل معينة ، لقد أهملوا ذكر القبائل

(١) جزء ٤ صفحة ١١٩ .

(٢) جزء ٩ صفحة ٤١ .

فى كثير من رواياتهم . فهناك أوضاع مختلفة للكلمة الواحدة رووها على أنها كلها صحيحة جائزة ، فى حين أنه من السهل اليسير الحكم على تلك الأوضاع بأنها تنتمى إلى أكثر من لهجة من لهجات العرب . وقد ملئت معاجم اللغة بكلمات جوزوا فيها أكثر من وضع واحد أو صيغة واحدة . ولنضرب مثلا لما جاء فى معظم المعاجم العربية ، حين الإشارة إلى كلمة « أصبع »[1] فقد روى فيها عشر لهجات هى :

إِصْبَع ، إِصْبِع ، إِصْبُع ، أَصْبَع ، أَصْبِع
أُصْبُع ، أُصْبَع ، أُصْبِع ، أَصْبُع ، وأخيراً أُصْبُوع .

ويظهر أن بعض هذه اللهجات كان من اختراع الرواة أمثال :

إِصْبُع ، أُصْبِع

لأن الانتقال من كسر إلى ضم أو العكس ، مما كانت العرب تنفر منه بصفة عامة . وعلى هذا يمكن إرجاع الباقى من لهجات هذه الكلمة إلى ثلاثة أنواع من القبائل :

قوم يؤثرون البدء بالهمزة مفتوحة ، ولكنهم يختلفون فى حركة الباء فبعضهم يؤثر ضمها ، والآخرون يؤثرون كسرها ، فقبيلة كانت تقول « أَصْبُع » وأخرى تقول « أَصْبِع » ، ثم تطورت لهجة كل منهما إلى « أَصْبَع » ، للانسجام بين الحركات فى الكلمة .

وهناك قبائل كانت تؤثر البدء بالهمزة مكسورة ، ولهجة هذه القبائل كانت « إِصْبَع » ثم تطورت إلى « إِصْبِع » للانسجام بين الحركات أيضاً .

أما القبائل الأخيرة ، فقد آثرت فيما يظهر ، ضم الهمزة فجاءت لهجتها

---

(١) قال أستاذنا على الجارم بك : ولا يصح فى الرأى ان قبيلة واحدة تنطق بكلمة الأصبع إلا على صورة واحدة ، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات وعن نسبة كل لهجة إلى قبيلتها . وهذا بحث شريف خليق بعناية اللغويين » مجلة مجمع اللغة صفحة ٣٢١ جزء أول » .

الأصلية « أُصبَع » ، ثم تطورت لانسجام الحركات إلى « أُصبُع » . ولعل هذه اللهجات الأخيرة كانت من اللهجات التى تقف بالتضعيف ، أى أنها تجعل النبر على المقطع [بُع] . ونبر المقطع الأخير يؤدى إلى أحد وجهين إما تضعيف العين أو إطالة حركتها ، مما أدى إلى الصورة الأخيرة وهى « أصبوع » .

هذه هى آراء سريعة ، نرجح احتمالها فيما يتعلق بكلمة [أصبع] . أما الذى لا يحتمل الشك فهو أن ما صح من هذه اللهجات العشر ، ينتمى إلى لهجات مختلفة بعضها أفصح من بعض .

ولا بأس أن نسوق هنا بعض الروايات التى جاءت فى المعاجم مشيرة إلى اختلاف البنية باختلاف اللهجات .

جاء فى اللسان :

١ — مضى الأمر وأمضى ، والثانية تميمية .

٢ — فتنته المرأة وأفتنته ، الأولى حجازية والثانية نجدية .

٣ — « حزنه » لقريش ، أحزنه لتميم .

٤ — عُقر الدار أصلها ، حجازية ، وبالفتح عند أهل نجد .

وجاء فى المخصص :

١ — « هلك » يستعمل متعديا عند تميم [(١)] .

٢ — الأيِّم هو الثعبان عند هذيل ، وفى الحجاز بالتخفيف ، وفى تميم أيْن [(٢)] .

ويمكن أن نلخص العوامل التى دعت إلى اختلاف بنية الكلمات فى اللهجات العربية القديمة فيما يلى :

١ — قبائل تميل إلى صوت لين خاص ، وهذا لا يكون إلا فى الاختيار بين الكسرة والضمة ، لأن كلا منهما صوت لين ضيق [(٣)] .

---

(١) جزء ٦ صفحة ١٢٧ . (٢) جزء ٨ صفحة ١٠٩ .

(٣) أنظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

وعلى هذا إذا روى لنا أن فعلا من الأفعال الثلاثية الصحيحة جاء من باب « ضرب ونصر » ، رجحنا أن إحدى القبائل كانت تنطق به من باب «ضرب» ، وأخرى كانت تنطق به من باب « نصر » . وأمثال هذه الأفعال كثيرة فى المعاجم العربية . وقد أشرنا آنفاً إلى أن القبائل البدوية كانت تميل إلى الضم ، فى حين أن القبائل المتحضرة كانت تميل إلى الكسر .

٢ — الميل إلى نسج خاص فى مقاطع الكلمة . فبعض القبائل تؤثر المقاطع الساكنة على المقاطع المتحركة ، ومن هذه قبيلة « تميم » التى روى عنها أنها كانت تؤثر تسكين وسط الكلمة المتحرك . جاء فى اللسان إن مثل : خُمُر جمع خمار ، فرش جمع فراش ، رسل جمع رسول ، ينطق بها عند تميم بتسكين الوسط أى خمْر ، فُرْش — الخ .

ويذكر فى موضع آخر أن تسكين « فخذ » وأمثالها مثل « كبد وعضد ورجل » والفعل « كرم وعلم » للتخفيف ،وهى لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم . وإلى هذه القبيلة يمكن أن ننسب تلك اللهجة التى تجوّز تسكين عين الفعل الماضى الثلاثى ، فيقولون فى « كَتَبَ » « كَتْبَ » .

والحقيقة أن معظم اللهجات العربية تنفر من توالى المقاطع المتحركة ، ولكنها تختلف فى نسبة هذا النفور . فإذا روى لنا أن كلمة « فخذ » يجوز فى نطقها « فخِذ » ، « فخْذ » ، أدركنا أن الصيغة الثانية لقبيلة مثل تميم تلك التى تؤثر المقاطع الساكنة .

٣ — سبق أن أوضحنا أن القبائل المتحضرة بوجه عام تميل إلى تحقيق كل أصوات الكلمة ، وإعطاء كل صوت حقه فى النطق ، فى حين أن القبائل البدوية تميل إلى تأثر الأصوات بعضها ببعض . ومثل هذا يؤدى إلى اختلاف بنية الكلمة الواحدة بين هذين النوعين من القبائل ، وفيما تقدم من الأمثلة القدر الكافى . كذلك سبق أن شرحنا أن بعض القبائل تؤثر صفات خاصة

للأصوات الساكنة ، فبعضها يؤثر الأصوات الشديدة المجهورة ، وآخرون يؤثرون الأصوات الرخوة المهموسة ، ومرجع كل هذا البيئة الاجتماعية .

٤ — العامل الأخير الذى يعد أهم العوامل فى تغيير بنية الكلمات بين اللهجات المختلفة هو أخطاء الأجيال الناشئة وما يترتب عليها :

(ا) فقد يصعب على الطفل تقليد الكبار فى نطقهم لكلمة من الكلمات ثم يهمل أمر هذا الطفل فينشأ على الخطأ وتصبح الكلمة ذات صورة جديدة فى لهجته .

(ب) كذلك قد يخطىء الطفل فى سمع الكلمة فيرتب أصواتها ترتيباً مختلفاً ، وتصبح فيما بعد ذات وضع مختلف عن الكلمة الأصلية .

(ج) قد يقيس الطفل قياساً خاطئاً فيشتق وضعاً جديداً غير معروف فى لهجة آبائه ، ثم يصبح هذا الوضع معترفاً به بين أبناء جيله .

إلى غير ذلك من مظاهر أخطاء الأطفال وما يميلون إليه فى النطق(١) .

ولا يظهر مثل هـذا إلا فى البيئات المنعزلة التى أهمل إصلاح أخطاء الأطفال فيها .

٥ — ويمكن أن يضاف إلى كل ما تقدم عامل آخر كان السبب فيما روى لنا من اختلاف فى بنية الكلمات . وهذا العامل هو احتمال خطأ الرواة فى النقل ولا سيما بعد تدوين اللغة ، ذلك الخطأ الذى سماه القدماء بالتصحيف .

واختلاف بنية الكلمات قد يكون طفيفا ، لا يصعب معه التعرف على علاقة الكلمات بعضها ببعض . أما الكلمات التى رويت مختلفة البنية ، فبعضها جامد وذلك كأمثال « أصبع ، وفخذ » ، وغير ذلك من الأسماء الجامدة التى اختلف نطقها بين القبائل ، لعامل من العوامل السالفة الذكر ، كما أن منها كلمات اختلفت صيغ الاشتقاق فيها ، فمثلا تشتق معظم القبائل مؤنث الصفات المنتهية بالألف

---

(١) كتاب الأصوات ١٤٦ .

والنون الزائدتين مثل « سكران » ، على وزن سكرى ، ثم يروى لنا أن قبيلة أسد ، قد شاع فيها اشتقاق مؤنث هذه الصفة ، بتاء التأنيث فيقولون فى مؤنث سكران : سكرانة . كذلك اتفقت الروايات على أن اسم المفعول من فعل أجوف مثل [باع] هو [مبيع] ، ولكن عرفت قبيلة تميم بأنها لا تفرق بين الفعل الأجوف والصحيح فى اشتقاق هذه الصيغة ، فهم يقولون [مبيوع] ، [مديون] بدلا من مبيع ومدين .

ومن السهل تعليل تلك الظاهرة التى شاعت فى أسد وتميم ، بالقياس الخاطىء الذى يلعب دوراً هاماً فى خصائص اللهجات ، فقد قاسوا اشتقاق المؤنث من سكران ، على اشتقاقه من معظم الصفات الأخرى ، لأن الكثرة الغالبة فى الصفات العربية تؤنث بالتاء . وليس بغريب أن يقاس على اشتقاق الكثرة اشتقاق القلة .

وكما قد يقول الطفل بيننا [أحمرة] بدلا من حمراء ، قياساً على معظم الصفات قال الطفل الأسدى سكرانة بدلا من سكرى . ثم صار خطأ الأطفال لهجة معترفا بها بين قبيلة أسد . وكذلك قاس الطفل التميمى صيغة اسم المفعول من الأجوف على صيغته من الصحيح ، لأن الأفعال الصحيحة هى الكثرة الغالبة فى اللغة .

وعلى هذا ، إذا روى لنا اختلاف فى بنية الكلمات عند الاشتقاق ، فعلينا أن نحاول نسبة كل وضع من أوضاع الكلمة الواحدة ، إلى قبيلة خاصة ، أومجموعة من القبائل . وبذلك تتحدد خصائص كل لهجة وتتميز اللهجات بعضهامن بعض ، فهناك اشتقاق المؤنث من المذكر ، وهناك اشتقاق الجمع من المفرد ، وهناك الأسماء الخمسة واختلاف بنيتها بين القبائل ، وهناك اشتقاق المضارع من الماضى ، إلى غير ذلك مما نلحظ اختلاف اللهجات فى وضعه الاشتقاق .

رأى القدماء فى اختلاف البنية :

لعل أظهر علماء العربية فى بحث هذا ، هو « ابن جنى » فى كتاب « الخصائص » الجزء الأول ، إذ عقد فصولا أربعة [1] سمى الأول : « باب فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا » ، والثانى « باب فى تركب اللغات » ، والباب الثالث « فى الأصلين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه » أما الرابع فسنشير فيما بعد إلى ما جاء فيه . وقد وفق ابن جنى فى بعض ما قال فى هذه الفصول الأربعة ، ولكنه لم يوفق فى البعض الآخر . فقد زعم فى الفصل الأول أن الفصيح قد يجمع بين لهجتين فى كلامه ، ثم ضرب أمثلة من الشعر لا تكفى حجة لما يدعى ، فلعلها من ضرورات الشعر . وفوق هذا لم يبين لنا ابن جنى ما عنى بكلام الفصيح ؟ ألغة تخاطبه بين أبناء قبيلته تلك التى تخضع لصفات خاصة مميزة عن غيرها من القبائل ، أم كان يعنى لغة الأدب والشعر ، وهى اللغة النموذجية التى اكتسبت معظم صفاتها من لهجة قريش ؟

ونحن نؤثر أن ننسب لكل لهجة صفات خاصة بها ، وليس من المرجح أن يجتمع فى اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان فى أمر واحد ، وكل ما فى الأمر أن المرء من خاصة العرب قد يلتزم شيئاً فى لغة تخاطبه بين أبناء عشيرته ، فإذا عمد إلى بيئة الأدب فنظم الشعر أو خطب الناس فى المواسم والأسواق ، فإنه قد يلجأ إلى صفة مغايرة للهجة قبيلته ، لأن للغة النموذجية خصائص قد تخالف خصائص كثير من لهجات الكلام ولغات التخاطب .

وقد روى ابن جنى أمثلة لكلمات مختلفة البنية مثل :

بغداد = بغدان = مغدان . طبرزل = طبرزن . أيم = أين .

رغوة اللبن = رَغوته = رِغوته = رُغاته = رِغاوته = رُغايته .

---

(١) صفحات ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧٨ على الترتيب .

الدَّروح = الدُّروح = الذَّريح = الذَّرّاح = الذُّرَّح = الذُّرنوح الذُّرَحرح الخ .

ومن السهل الحكم على أن مثل هذه الكلمات المختلفة البنية تنتمى إلى لهجات متعددة ، وقد ينتمى بعضها إلى لهجة واحدة ، ولكن فى جيلين مختلفين من أبناء هذه اللهجة . وقد اختتم ابن جنى هذا الفصل بقصة رويت عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر فقال أحدهما الصقر بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزقر ! !

وليس من المعقول أن هؤلاء الرجال الثلاثة من أبناء لهجة واحدة ، بل إنهم ينتمون إلى لهجات متعددة . وقصة ابن جنى لهذا تقوم حجة عليه لا له . وقد نلتمس العذر لابن جنى لأنه ممن لا يفرقون بين لهجة وأخرى فى الاستعمال ، ويرون جميع اللهجات صحيحة يحتج بها ، وقد عقد فصلا خاصاً بهذا فى الخصائص سماه [باب اختلاف اللهجات وكلها حجة] .

ثم انتقل ابن جنى فى الفصل الثانى إلى ما سماه (تركب اللغات) ، فزعم أن قبيلة كانت تقول قنَط يقنِط ، وأخرى تقول قنِط يقنَط ، ثم تداخلت اللغتان فقال من قال (قنَط يقنَط) .

على أن ابن جنى لم يحدثنا عن كيف تتداخل اللغات ، ولا عن الدوافع التى قد تدعو لمثل هذا التداخل .

ويظهر أن ابن جنى قد مال إلى الناحية الصناعية البحتة فى تفسيره أفعالا مثل (قنَط ، يقنَط) و (نعِم ، ينعُم) و (فضِل ، يفضُل) وأمثالها مما أعيا القدماء تعليله فى ضوء تلك المقاييس التى وضعوها لأبواب الثلاثى .

ولكن ابن جنى كان موفقاً كل التوفيق حين عرض فى هذا الفصل إلى قانون المغايرة ، الذى اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته فى الاشتقاق . فقد

قال ما نصه : [وقد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع] ثم قال : [و إنما دخلت يفعُل فى باب فعَل يفعِل ، من حيث كانت كل واحدة من الضمة والـكسرة [1] مخالفة للفتحة] .

وليس تداخل اللغات الذى زعمه ابن جنى إلا نوعاً من الصناعة لا تبرره تلك الأمثلة التى رواها . و إنما الواجب أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ، ماضيها ومضارعها ، ثم تبوب وتنسق و ينظر إليها على أنها تنتمى إلى لهجات متعددة . فإذا قيل إن المراد بتداخل اللغات استعارة بعضها من بعض ، واستعارة اللغات بعضها من بعض أمر معترف به بين المحدثين من علماء اللغات ، قلنا إن اللغات قد تستعير الـكلمات لا الصيغ ، وليس هناك من مبرر يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل منها ، من قوله (نعِم ينعَم) إلى (نعِم ينعُم) ! !

ومما يؤيد ما نذهب إليه أننا نلحظ فى اللهجات الحديثة ، أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين ، قد يلتقيان و يصادق أحدهما الآخر زماناً طويلا ، وكل منهما يلتزم لهجته ، وما نشأ عليه ، فإذا تأثر أحدهما بالآخر ، وأخذ يقلده فى لهجته لسبب من الأسباب ، تـكلم كل منهما بعد مران طويل ومخالطة مستمرة لهجة واحدة . أما أن تمتزج اللهجتان و ينشأ منهما لهجة ثالثة ، فلبس مما يقره المحدثون من الباحثين فى اللغات [2] .

وقد ذكر ابن جنى فى هذا الفصل بعض القصص التى تقوم حجة عليه لا له . فمن ذلك ما روى عن أبي حاتم قال : [قرأ علىّ أعرابى بالحرم طيبى لهم وحسن مآب ، فقلت : طو بى . فقال : طيبى . قلت : طو بى . قال طيبى ؛ فلما اشـتد علىّ قلت : طوطو . فقال : طى طى] .

وقد تعرض ابن جنى فى الفصل الثالث إلى كلمات رويت مختلفة البنية ،

---

(١) أنظر كتاب الاصوات صفحة ٣٧ .
(٢) إلا فى حالة الغزو .

وذلك بأن اختلف ترتيب الأصوات فيها مع اتحاد معناها . وقد فرق ابن جنى بين هذه الكلمات ، فجعل بعضها مقلوباً عن نظائرها ، والبعض الآخر كلمات مستقلة بعضها عن بعض وكل منها أصل مستقل بذاته .

ومثل للكلمات المقلوبة عن نظائرها بمثل (امضحل) فهى مقلوبة عن (اضمحل) ، ومثل (اكرهف) مقلوبة عن (اكفهر) ، ولكنه قال إن كلا من (جذب وجبذ) أصل مستقل بذاته وليس أحدهما مقلوب الآخر .

والحقيقة أن مثل هذه الكلمات متى كانت تنتمى للغة واحدة ؛ يجب أن ينظر إليها على أن بعضها أصل والبعض الآخر مقلوب عنه ، ولا معنى للتفرقة بينها . وتكاد هذه الظاهرة تشترك فى معظم لغات العالم التى اشتملت على كلمات متحدة المعنى والأصوات ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف . وهذه الظاهرة هى فى الأصل من أخطاء السمع بين الكبار ، أو من أخطاء الأطفال ؛ ثم صار الخطأ صواباً .

وأخيراً تعرض ابن جنى فى الفصل الرابع إلى أن بعض الكلمات قد تختلف بنيتها ، وذلك بأن يستعمل أحد الحرفين المتقارين مكان صاحبه ، ثم ضرب أمثلة لهذا مثل :

طبرزل : طبرزن . دهمج : دهنج . خامل : خامن . بنات مخر : بنات بخر .

ومثل هذه الكلمات يمكن أن تنتمى إلى لهجات متعددة ؛ أو إلى لهجة واحدة ولكن فى جيلين مختلفتين من أبنائها .

على أن ابن جنى لم يحدثنا فى هذا الفصل عن معنى تقارب الصوتين ، ووجه الشبه بينهما من الناحية الصوتية . وقد ملئت المعاجم العربية بهذا النوع من الكلمات ، وسنفرد فصلا مستقلا لما جمعناه منها .

أبواب الثلاثى :

وربما كان أظهر المواضع التى توضح اختلاف البنية فى اللهجات ، هو اشتقاق مضارع الفعل الثلاثى من الماضى .

وقد جاءتنا كتب النحاة بعلاج مضطرب لما سموه بأبواب الثلاثى ، خلصوا منه إلى أن تلك الأبواب سماعية ، ولا تكاد تخضع لقاعدة مطردة ، بل كل ما يمكن عمله بصددها هو استنباط قواعد غالبة شواذها كثيرة جداً . ولعمرى كيف تصور القدماء أن لغة منسجمة مطردة كاللغة العربية يمكن أن تتضمن كل هذه الأبواب فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى ، فى حين أنهم يرون أن جميع الصيغ الأخرى للفعل تلتزم حالة واحدة مطردة فى جميع المواضع .

يجب إذن أن ننظر إلى أبواب الثلاثى كما رواها النحاة ، على أنها تنتمى إلى أكثر من لهجة واحدة ، وأن الذى رووه ، إن هو إلا مزيج من لهجات عدة ، لأن أساس الفهم فى أية لهجة من اللهجات هو الخضوع لقاعدة مطردة نادرة الشذوذ .

والذى نستطيع أن نتصوره هو أن كل لهجة من اللهجات ، أو مجموعة منها قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى على هيئة خاصة ، لا تشذ عنها إلا فى النادر . فأبواب الثلاثى تنتمى إلى عدة لهجات ، كل منها كانت تلتزم باباً أو بابين من بينها ، ويؤيد ما نذهب إليه اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى فى كل اللغات السامية الأخرى شقيقات اللغة العربية .

ولن نحاول هنا فصل تلك الأبواب بعضها عن بعض ، ونسبة كل منها إلى قبيلة خاصة أو مجموعة من القبائل ، لأن هذا يتطلب جمع كل ما ورد فى المعاجم العربية من أفعال ثلاثية ، والبحث فيها بعد تبويبها وتنظيمها فى مجموعات متناسقة . على أننا قد جمعنا كل ما ورد فى القرآن الكريم من أفعال ثلاثية صحيحة غير

معتلة ، ماضيها ومضارعها ، لنرى ما يمكن أن تكون قد خضعت له قراءة حفص ، التى لا نشك فى أنها تمثل لهجة واحدة منسجمة مطردة فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى .

ورد فى كل القرآن الكريم من الافعال الثلاثية الصحيحة مستعملة فى الماضى مرة وفى المضارع مرة أخرى (نحو ١٣٤ فعلا) ، وقد تركنا تلك الأفعال التى استعملت فى الماضى فقط أو المضارع فقط .

وحين استعرضنا تلك الأفعال التى جاءتنا فى قراءة حفص فى الماضى مرة والمضارع مرة أخرى ؛ اتضح لنا أنها لا تشتمل على ذلك الباب الذى سماه النحاة (فعِل يفعِل) ؛ بل لقد خلت أيضاً من ذلك الباب الذى سموه (فعُل يفعُل) ؛ إلا فعلين اثنين هما : « كبُر يكبُر ، وبصُر يبصُر » فى مثل قوله تعالى : [كبرت كلمة تخرج من أفواههم] وقوله [فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون]

ولا شك أننا نلحظ فى مثل هذا الفعل معنى من معانى المبالغة ، أو شدة فى الحدث ، يرجح عندنا أن مثل هذه الصيغة متفرعة عن [فعَل] ، وأنه لا يُلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة فى معنى الحدث الذى تتضمنه الصيغة الأصلية [فعَل] . فليست إذن من أبواب الثلاثى ، بل يجب أن ينظر إليها على أنها فرع مستقل ، زاد معناه بتحول الصيغة الأصلية [فعَل] إليه .

أما باقى الصيغ الثلاثية التى وردت فى القرآن الكريم ، فهى أحد وجهين لا تخرج عنهما وهما : [فعَل] ، [فعِل] .

والصيغة الأولى هى الأكثر شيوعاً فى الأسلوب القرآنى ، لأن به حوالى ١٠٧ فعلا ماضياً صحيحاً صيغته [فعَل] ، وحوالى ٢٤ من صيغة [فعِل] .

والقاعدة التى خضعت لها قراءة حفص فى اشتقاق المضارع من هذه الأفعال ، هى المغايرة التى أشرنا إليها آنفاً . فصيغة [فعَل] فى الماضى يناظرها صيغة [يفعِل] أو [يفعُل] فى المضارع ، لأن الفتحة كما قال ابن جنى تقابل الضمة

أو الكسرة . إذ الفتحة صوت متسع ، فى حين أن كلا من الضمة والكسرة صوت ضيق [١] . أما صيغة [فعِل] فى الماضى فقد قابلها دائماً [يفعَل] فى المضارع ، لم يشذ عن هذا فعل من الأفعال التى جاءت فى قراءة حفص .

تلك هى القاعدة التى يمكن استنباطها من أفعال القرآن ، وهى واضحة جلية لا تعقيد فيها ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك .

أما تلك الأفعال التى وردت من صيغة [فعَل] فى الماضى و « يفعَل » فى المضارع ، فقد دعا إليها عوامل صوتية فى بنية الفعل نفسه ، وذلك أن عين الكلمات أو لامها من أصوات الحلق ، تلك التى تؤثر فى كل اللغات السامية ، الفتحة على غيرها من الحركات .

وقد فطن الأقدمون من علماء اللغة إلى ميل الأصوات الحلقية إلى الفتحة ، وأقرهم على هذا المستشرقون . وقد ظهر هذا الميل بصورة أوضح فى اللغة العبرية . أما السر فيه ، فهو أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلق ، تحتاج إلى اتساع فى مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا ، وتلك هى الفتحة . ولم يشذ عن هذه القاعدة بين أفعال القرآن الكريم إلا أفعال قليلة هى :

نكح ينكح ، نزع ينزع ، رجع يرجع ، بلغ يبلغ ، قعد يقعد ، زعم يزعم ، نفخ ينفخ ، وأخيراً قنط يقنط .

وكان حق مضارع الأفعال السبعة الأولى أن يكون بالفتح ، وأن يكون مضارع الفعل الأخير بالكسر أو الضم .

وقد أثار الفعل « قنَط يقنَط » دهشة بين القدماء ، و بدأوا يتأولونه على أنه من تداخل اللغات .

والحقيقة أن اللهجة الواحدة يجب أن تخضع لقاعدة مطردة فى الكثرة الغالبة

---

(١) كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٣٧ .

من صيغها ، ولكن قد يتخللها القليل من الصيغ التى تسمى عادة بالشاذة .

وفى مثل هذه الحالة يجب أن تدرس هذه الصيغ على انفراد ، وأن يبحث عن مصدرها أو سر شذوذها .

ويغلب أن يعزى هذا الشذوذ إلى انحدار الفعل من لهجة أخرى لها قواعد أخرى تخضع لها .

وليس معنى هذا استعارة الصيغة ، وإنما معناه استعارة الفعل بصيغته . ولهذا نرجح أن الأفعال :

[نزع ينزع . نكح ينكح . رجع يرجع . قنط يقنط . نفخ ينفخ . بلغ يبلغ . قعد يقعد . زعم يزعم .]

تنتمى إلى لهجة أخرى غير اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم .

وربما كان يعبر عن معانى هذه الأفعال قبل استعارتها فى لهجة القرآن الكريم ، بمثل الأفعال الآتية على الترتيب :

قلع يقلع . تزوج يتزوج . عاد يعود . . . الخ

أو أن هذه الأفعال فيما عدا [قنط يقنط] قد غلبت عليها المغايرة لظروف لغوية خاصة باستعمالها .

ولا بأس بعد هذا من أن نورد الأمثلة القرآنية من أفعال بابها « فعَل يفعِل » :

عقل يعقل . ظلم يظلم . عرف يعرف . فرض يفرض . عزم يعزم . ضرب يضرب . حرص يحرص . ربط يربط . قبض يقبض . سبق يسبق . بطش يبطش . كسب يكسب . ملك يملك . حلف يحلف . لبس يلبس . كذب يكذب . صبر يصبر . صدف يصدف . صرف يصرف . نبذ ينبذ . غلب يغلب كنز يكنز . نفر ينفر . سرق يسرق . حمل يحمل . قدر يقدر . كشف يكشف خسف يخسف . فصل يفصل . غفر يغفر ، ختم يختم . فتن يفتن . قذف يقذف عدل يعدل . نقم ينقم . قسم يقسم . هلك يهلك . نكص ينكص . نزل ينزل .

وها هى ذى الأفعال التى بابها « فعَل يفعُل » :

خلف يخلف . كتم يكتم . مكث يمكث . عمر يعمر . حسد يحسد . نكث ينكث . سكن يسكن . سلك يسلك . شكر يشكر . طرد يطرد . نظر ينظر . ترك يترك . سجد يسجد . حشر يحشر . مكر يمكر . درس يدرس . عبد يعبد . بسط يبسط . خرج يخرج . حكم يحكم . حضر يحضر . ذكر يذكر . فسق يفسق . نقض ينقض . نصر ينصر . دخل يدخل . خلق يخلق . رزق يرزق . قتل يقتل . كتب يكتب . كفر يكفر .

أما الأفعال التى جاء مضارعها مفتوح العين بسبب حرف من حروف الحلق فهى :

ذهب يذهب . نفع ينفع . لعن يلعن . فعل يفعل . بعث يبعث . قطع يقطع . طبع يطبع . فتح يفتح . جحد يجحد . نصح ينصح . سحر يسحر . خشع يخشع . جمع يجمع . رفع يرفع . ذبح يذبح . جعل يجعل . صنع يصنع . ظهر يظهر . جهر يجهر . زهق يزهق . شرح يشرح . منع يمنع .

وها هى ذى الأفعال التى لا شذوذ فى أمثلتها القرآنية والتى جاءت من باب « فعِل يفعَل » :

نفد ينفد . عجل يعجل . شرب يشرب . رحم يرحم . سمع يسمع . شهد يشهد علم يعلم . حسب يحسب . عمل يعمل . فشل يفشل . بخل يبخل . عهد يعهد . ركب يركب . ثقف يثقف . حبط يحبط . خطف يخطف . سخط يسخط . سخر يسخر . لبث يلبث . ضحك يضحك . عجب يعجب . حفظ يحفظ . كره يكره . طعم يطعم . فرح يفرح .

من كل هذا نستطيع أن نرجح أن اللهجات العربية القديمة قد خضعت لقواعد مختلفة فيما يتعلق باشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى . ولعل من القبائل

من كانوا يؤثرون صيغة « فعِل يفعَل » ، أو لعل منها من كانوا يقولون « فَعُل يفعَل » إلى غير ذلك من الاحتمالات التى ستكشف عنها بحوث المستقبل .

وكل الذى نستطيع أن نؤكده هنا ، هو أن كل لهجة كانت تخضع لقواعد خاصة بها ، لا تحيد عنها إلا فيما تستعيره من لهجات أخرى . وقد لاحظنا فى كل ما تقدم من تغيير فى بنية الكلمات أن التغيير طفيف ، لم يمنعنا من التعرف على أكثرها شيوعاً وأفصحها استعمالا[1] .

---

(١) انظر استيعاب هذا البحث فى أسرار اللغة صفحة ٣٣ .

الفصل السادس

الترادف والاشتراك اللفظي والتضاد

— ١ —

المترادفات

شهد القرن الرابع الهجرى خلافاً بين علماء اللغة فى فكرة الترادف ، منهم من ينكرون الترادف فى ألفاظ اللغة ، ويلتمسون فروقاً دقيقة بين معانى الكلمات لا تخلو فى بعض الأحيان من التكلف والتعسف ، ومنهم من ينادون بالترادف أو يعترفون بوقوعه فى الألفاظ ، وبعض هؤلاء المؤيدين لفكرة الترادف ، يغالون فى رأيهم إلى حد أن سمحوا بمئات الكلمات للمعنى الواحد فى بعض الأحيان .

وقد لخص السيوطى فى كتابه المزهر رأى هؤلاء وهؤلاء . ويبدو من كلام السيوطى أن رواة اللغة وجامعيها كانوا فى القرن الثانى الهجرى يسلمون بقضية الترادف ولا يرونها محلا لنزاع أو جدل ، فقد روى أن أبا زيد سأل أعرابياً : ما المحبنطئ ؟ قال هو المتكأكئ ، قال أبو زيد وما المتكأكئ ؟ قال هو المتآزف ! قال وما المتآزف ؟ فسئم الأعرابى من مساءلته وقال له : أنت أحمق !!

من هذا نرى أن عالماً جليلا كأبى زيد الأنصارى كان لا يرى غضاضة فى أن يعبّر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ ، بل كان فيما يظهر يؤمن أن الأعرابى قد يحتفظ فى ذاكرته بألفاظ عدة للتعبير عن معنى واحد .

على أن بعض العلماء فى أواخر القرن الثالث الهجرى بدأوا يلتمسون فروقاً بين الكلمات التى عدّها من سبقوهم من المترادفات مثل « ثعلب » . ثم جاء

القرن الرابع الهجرى ونشب الجدل بين علمائه : فانتصر ابن فارس لرأى شيخه « ثعلب » وأنكر الترادف ، كذلك أنكره معه أبو علىّ الفارسى . ولكنّ ابن خالويه وآخرين كانوا يؤمنون بفكرة الترادف ، ويعتزون بما جمعوه من كلمات كثيرة ذات معنى واحد . وكثر بعد هذا العصر أنصار الترادف ، وإن مال بعضهم إلى الاعتدال فى حصر الكلمات المترادفة . فالإمام الرازى كان يرى وجوب تقييد الترادف بعدم التباين فى المعنى وبعدم الإتباع ، فليس من الترادف : « السيف والصارم » ، لأن فى الثانية زيادة فى المعنى ، وليس منه « عطشان نطشان » ، لأنه لا معنى للكلمة الثانية . ولكنه مع هذا اعترف بفكرة الترادف ونعى على الاشتقاقيين تعسفاتهم .

كذلك يروى أن التاج السبكى قال : لا معنى لإنكار الترادف ، والقول إن الإنسان من النسيان ، وإن البشر من البشرة .

بل إن من هؤلاء المؤيدين لفكرة الترادف من قسم هذه الظاهرة إلى فرعين ، فقد ذكر السيوطى « أن ألكيا قال : هناك ألفاظ متواردة مثل : سبع وأسد وليث ، أما الترادف ففى العبارات والجمل مثل : أصلح الفاسد ولمّ الشعث ورتق الفتق » .

ونحن لا يعنينا هنا إلا البحث فى الكلمات ، ولا ننظر إلا إلى ما سماه فى تقسيمه بالألفاظ المتواردة ، وهى التى اصطلح معظم العلماء على تسميتها بالمترادفات .

وكان الأصفهانى ينكر الترادف فى اللهجة الواحدة ، ويعترف به فى لهجتين مختلفتين . وهذه وجهة نظر سليمة تتجه إلى ما يتجه إليه المحدثون فى نظرتهم إلى الترادف .

أما هؤلاء المؤيدون لفكرة الترادف فكانوا يرون أن الاستعمال يؤيدهم ، فمثلا : « لا ريب » لا تعنى شيئاً أكثر من « لا شك » . وكان ابن خالويه يفخر بأنه يعرف خمسين اسماً للسيف ، وعشرات فى أسماء الأسد ، كما ألف لنا

الفيروز بادى كتيباً فى أسماء العسل .

أما الذين أنكروا الترادف فكانوا يفرقون بين معانى الألفاظ ، فيقولون مثلا : [جلس وقعد] يختلفان بعض الاختلاف ، لأن فى « قعد » معنى ليس فى « جلس » ، ألا ترى أنا نقول : قام ثم قعد ، وأخذه المقيم المقعد ، ثم نقول : كان مضطجعاً فجلس . فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس ! وكانوا يصفون تلك الكلمات الكثيرة التى قيل عنها إنها أسماء للجمل ، أو للثعبان ، أو للأسد ، أو للعسل ، بأنها صفات يُلحظ فى كل منها أمر معيّن . تلك كانت حجة أبى على الفارسى فى جدله مع ابن خالويه ، فقد روى عن أبى على الفارسى أنه قال : [كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ قال أبو علىّ هذه صفات] .

ويروى أصحاب الترادف قصصاً وأحاديث للبرهنة على رأيهم ، منها :

١ — أن أبا هريرة لقى النبى صلعم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ . فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال : « آلمدية تريد ؟ » ، فقيل له نعم . فقال أو تسمى عندكم سكينا ؟ . ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ ! .

على أننا نتردد فى قبول هذه القصة لأن كلمة « السكين » وردت فى سورة يوسف وهى مكية ، أى كانت موضع مدارسة وحفظ قبل الهجرة وبعدها ، ولا تغيب عن ذهن أحد من المسلمين الذين اتصلوا بالرسول وتأدبوا بأدبه . والقصة فيما يظهر قد تمت وقائعها فى المدينة لأن أبا هريرة أسلم فى السنة الثامنة للهجرة . ولا نستطيع أن نتصور أن رجلا مثل أبى هريرة وهو من هو فى رواية الحديث ، والاتصال بالنبى ذلك الاتصال الوثيق ، لم يكن على علم بما نزل من سور مكية

كانت تحفظ وتُدرس ويتعبد بها بين المسلمين فى المدينة .

هذا إلى أن أبا هريرة كان من « دوس » وهى بطن من قبيلة بلحارث التى عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة ، وكان أهلها على اتصال بالبيئة الحجازية قبل الإسلام ، فكيف غاب عنه مثل هذا اللفظ الشائع هناك .

٢ — كذلك يسوقون قصة أخرى أجمعت عليها كتب الأدب وهى : أن رجلا من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة ، خرج إلى ذى جدن من ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه . فلما رآه الملك اختبره فقال له : « ثب » يريد اقعد . فقال الرجل : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح ودقت عنقه . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب فى كلام نزار الطمر « أى الوثوب إلى أسفل » . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من دخل ظفارِ حمّر « أى من دخل مدينة ظفار اليمنية فليتكلم الحميرية » ! ويستدلون من هذا على أن « وثب وقعد » يعبران عن معنى واحد ، وتشير إليهما المعاجم على أنهما مترادفتان ! .

وهنا تبدو مبالغة أصحاب الترادف ، لأن البيئتين مختلفتان ، وشرط الترادف كما يقول الأصفهانى أن يكون فى بيئة واحدة كما سنرى .

٣ — كُتُب النبىّ صلعم إلى القبائل قد اشتملت على كلمات لم تكن مألوفة بين قومه . ويتخذ أصحاب الترداف من هذه الكتب دليلا على وقوع الترادف فى اللغة ، لأن الكلمات التى استعملها صلعم كانت لها نظائر فى لهجة قريش . فهى مع نظائرها تعتبر من المترادفات . ومن ذلك كتابه لوائل بن حجر أحد ملوك حمير : [إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب (١) .. الخ] .

وعلى هذا فى رأى أصحاب الترادف أو الذين غالوا فيه ، أن الأقيال والوزراء

(١) القيل فى لهجة اليمن كالوزير فى العهود الإسلامية ، والعباهلة الذين استقر ملكهم ، والأرواع السادات ، والمشابيب الأذكياء .

مترادفتان ، وأن الأرواع والسادات مترادفتان أيضاً وهكذا ... فإذا تذكرنا أن من شروط الترادف أن تنتمى الكلمات المترادفة إلى بيئة واحدة ، استطعنا بسهولة استبعاد هذا النوع من الكلمات .

أدلة الترادف لدى المحدثين :

يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف فى أى لغة من لغات البشر ، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض تلك الكلمات المترادفة . ولكنهم يشترطون شروطاً معينة لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً : —

١ — ومما يشترطونه الاتفاق فى المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً ، على الأقل فى ذهن الكثرة الغالبة لأفراد البيئة الواحدة . ويكتفى اللغوى الحديث بالفهم العادى لمتوسطى الناس حين النظر إلى مثل هذه الكلمات . فإذا تبين لنا بدليل قوىّ أن العربىّ كان حقاً يفهم من كلمة « جلس » شيئاً لا يستفيده من كلمة « قعد » ، قلنا حينئذ ليس بينهما ترادف .

٢ — الاتحاد فى البيئة اللغوية ، أى أن تكون الكلمتان تنتميان إلى لهجة واحدة أو مجموعة منسجمة من اللهجات . ولذلك أعجبنا برأى الأصفهانى الذى أشرنا إليه آنفاً . يجب إذن ألا نلتمس الترادف من لهجات العرب المتباينة ، فالترادف بمعناه الدقيق هو أن يكون للرجل الواحد فى البيئة الواحدة ، الحرية فى استعمال كلمتين أو أكثر فى معنى واحد ، يختار هذه حيناً ، ويختار تلك حيناً آخر ، وفى كلتا الحالين لا يكاد يشعر بفرق بينهما إلا بمقدار ما يسمح به مجال القول .

ولم يفطن المغالون فى الترادف إلى مثل هذا الشرط ، بل اعتبروا كل اللهجات وحدة متماسكة ، وعدّوا كل الجزيرة العربية بيئة واحدة . ولكننا نعتبر

اللغة النموذجية الأدبية بيئة واحدة ، ونعتبر كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئة واحدة .

٣ — الاتحاد فى العصر : فالمحدثون حين ينظرون إلى المترادفات ينظرون إليها فى عهد خاص وزمن معين ، وتلك هى النظرة التى يعبرون عنها بكلمة Synchronic ، لا تلك النظرة التاريخية التى تتبع الكلمات المستعملة فى عصور مختلفة ، ثم تتخذ منها مترادفات ، وهذه النظرة الأخيرة هى التى يسمونها Diachronic . فإذا بحثنا عن الترادف يجب ألا نلتمسه فى شعر شاعر من الجاهليين ثم نقيس كلماته بكلمات وردت فى نقش قديم يرجع إلى العهود المسيحية مثلا . هـذا هو ما جعل ابن خالويه وأمثاله يرون للسيف ونحوه أسماء عدة . فالمتنبى حين استعمل « الصارم والبتار والهندى واليمانى » ، لم يكن يعمد إلى كلمة « الهندى » وفى ذهنه صفات خاصة تتصل ببيئة الهند التي صنع فيها ، ولم يكن يعمد إلى كلمة « الصارم » وفى ذهنه اعتبار آخر لا يراه فى كلمة أخرى كالبتار مثلا .

٤ — ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ الآخر : فحين نقارن بين « الجَثل والجفل » بمعنى النمل ، نلحظ أن إحدى الكلمتين يمكن أن تعتبر أصلا والأخرى تطور لها ، فإذا كان الأصل هنا هو الكلمة الأولى قلنا إن « الجفل » صيغة حضرية نشأت فى بيئة تراعى خفوت الصوت والتقليل من وضوحه ، أما إذا كانت الثانيـة هى الأصل رجحنا أن « الجثل » قد نشأت فى بيئة بدوية تميل إلى الأصوات الأكثر وضوحاً فى السمع . وسنورد فيما بعد مجموعة كبيرة من أمثال هـذه الكلمات التى يعدّها المحدثون مترادفات وهمية . « فالجثل والجفل » ليستا فى الحقيقة إلا كلمة واحدة . وهكذا يتبين لنا مغالاة أولئك الذين اعتبروا مثل هذه الكلمات من المترادفات .

فإذا طبقت هذه الشروط على اللغة العربية ، اتضح لنا أن الترادف لا يكاد يوجد فى اللهجات العربية القديمة ، وإنما يمكن أن يلتمس فى اللغـة النموذجية

الأدبية . ففى القرآن الكريم الذى نزل بهذه اللغة ، والذى نطق به الرسول للمرة الأولى ، نرى الترادف فى بعض ألفاظه . ولا معنى لمغالاة بعض المفسرين حين يلتمسون فى كل لفظ من ألفاظه شيئاً لا يرونه فى نظرائه من الألفاظ الأخرى . ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات الكريمة التى تبرهن على وقوع الترادف فى كلمات القرآن :

١ — « تالله لقد آثرك الله علينا »	:	وأنى فضلتكم على العالمين .
٢ — حتى إذا حضر أحدكم الموت	:	حتى إذا جاء أحدكم الموت .
٣ — بعث فيهم رسولا	:	فأرسلنا فيهم رسولا .
٤ — البلد	:	القرية .
٥ — مثواهم جهنم	:	فإن الجحيم هى المأوى .
٦ — فلا تأس على القوم الكافرين	:	ولا تحزن عليهم .
٧ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم	:	ثم جاءوك يحلفون بالله .
٨ — إلى الله بارئكم	:	قل الله خالق كل شىء .

ويظهر أن السرّ فى إنكار الترادف ، أن أصحاب هذا الرأى كانوا من الاشتقاقيين الذين أسرفوا فى إرجاع كل كلمة من كلمات اللغة إلى أصل اشتقت منه ، حتى الأسماء الجامدة والأسماء الأجنبية عن اللغة العربية ، أبوا إلا أن يجعلوا لها أصلا اشتقت منه . فنراهم يقولون إن « إبليس » مشتق من كيت ، « جهنم » مشتقة من كذا !!!

ويقولون إنما سمى الإنسان إنساناً لأنه ينسى ، وسمى الشيطان شيطاناً لسبب تلمسوه هم واخترعوه !

ولعلّ ابن دريد فى كتابه الاشتقاق ، هو المسئول الأول عن هذه المدرسة ، فقد حاول إرجاع جميع أسماء القبائل والأمكنة المشهورة إلى أصل اشتقت منه أو سميت من أجله . فكان يقول إن قضاعة إما من قولهم انقضع الرجل عن أهله إذا بعد

عنهم ، أو من قولهم تقضع بطنه إذا أوجعه ! !

ثم جاء ابن فارس فبلغ بهذا الاشتقاق إلى الذروة ، وألف معجمه الذى سماه مقاييس اللغة ، واضعاً نصب عينيه أن يجمع أكثر ما يمكن جمعه من كلمات يمكن أن تشتق لها أصول .

فإذا قلت لهم إن « القمح والبرّ » كلمتان مترادفتان ، فربما قالوا لك : إن « القمح » من قمحَهُ أى استفه ، ولكن البرّ من أصل آخر معناه الصلة والخير . ! !

هذا إلى أن بعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف كانوا من الأدباء النقاد الذين يستشفون فى الكلمات أموراً سحرية ، ويتخيلون فى معانيها أشياء لا يراها غيرهم ، فهم قوم شديدو الاعتزاز بألفاظ اللغة ، يتبنون الكلمات ويرعونها رعاية كبيرة ، ينقبون عما وراء المدلولات ، سابحين فى عالم من الخيال يصور لهم من دقائق المعانى وظلالها ، ما لا يدركه إلا هم ، ولا يقف عليه إلا أمثالهم . وفى كل هذا من المبالغة والمغالاة ما يأباه اللغوىّ الحديث فى بحث الترادف .

فإذا أبعدت عن المترادفات تلك الكلمات التى تحايل عليها من أثبتوا الترادف ، وخلقوا بينها مماثلة فى المعنى ، كما أنه إذا أبعدت تلك الكلمات التى لم ترد فى نص لغوى صحيح النسبة ، وجدنا أنفسنا أمام عدد معقول من المترادفات فى اللغة العربية .

ويجدر هنا أن نشير إلى أهم الأسباب التى ولدت الترادف فى كلمات اللغة العربية :

(١) إيثار بعض القبائل لكلمات خاصة تشيع بينها وتكاد تكون مجهولة فى القبائل الأخرى ، كما لاحظنا فى الروايات التى أشرنا إليها آنفاً مثل :

١ — شلحاء = السيف عند أهل الشَّحْر .

٢ — فقح الشىء = سفه عند أهل اليمن .

٣ — نِفّاح المرأة زوجها يمانية .

٤ — إبل ضحضاح بمعنى كثير عند هذيل .

وتولد مثل هذه الكلمات ترادفاً فى اللغة العربية على أساس أن الجزيرة العربية كلها بيئة لغوية واحدة . أما حين نطبق عليها شروط المحدثين فى الترادف فإنها تستبعد من بين الكلمات المترادفة .

(ب) استعارة كلمات من لهجة من اللهجات ، أو لغة من اللغات ، بسبب الغزو أو الهجرات ، أو الاحتكاك بين القبائل ، فيصبح للمعنى الواحد أكثر من كلمة واحدة ، وفى هذه الحالة لا تتساوى نسبة الكلمتين فى الشيوع ، بل ينظر إلى الكلمة المستعارة نظرة أرقى وأسمى فى الاستعمال ، وذلك لأنها انحدرت من قوم أرقى فى الناحية الاجتماعية أو السياسية ، أو لأنها أخف على السمع وألطف فى الجرس .

وقد أجمع الرواة على أن قريشاً كانت تتخير من كلمات القبائل فى مواسم الحج والأسواق ، ما خف على اللسان وحسن فى السمع ، حتى لطفت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم :

كالحرير مع السندس والاستبرق ، وكاليمّ مع البحر . وقد ذكر صاحب شفاء الغليل أن [الأسطول بمعنى سفن القتال ، مما استعارته العرب وقد وقع فى أشعارهم بعد العصر الأول . وأن البنـد بمعنى : « العلَم » تكلمت به العرب قديماً . وأن « الجؤذر » معرب ، وتكلمت به العرب قديماً .] .

هذا إلى الفردوس مع الجنة ، والصراط مع الطريق والسبيل . قال الجاحظ فى البيان والتبيين : أهل المدينة نزل فيهم ناس من الفرس فعلقوا بألفاظهم فيسمون السوق البزار .

(ج) هناك صفات تفقـد عنصر الوصفية مع مرور الزمن وتصبح أسماء لا يلحظ الكاتب أو الشاعر ما كانت عليه ، فيؤدى هذا إلى الترادف . ونحن نلحظ هذا بصفة خاصـة ، فى تلك الكلمات العربية التى تعبر عن أشياء ذات

اتصال وثيق بالبيئة البدوية ، والحياة الاجتماعية فيها .

وفيما روى للجمل والسيف والعسل من كلمات عربية كثيرة ، خير شاهد على ما نقول ، ولا سيما حين يراعى مفهومها بين الناس فى عصر معيّن . فالسيف كان يمانياً وكان هندياً وكان لكل من النوعين سمات خاصة تميز هذا من ذاك ، ولكن مثل هذه السمات قد تنوسيت وأصبح الشاعر فيما بعد يستحلّ لنفسه استعمال كل من اليمانىّ والمهند ، ولا يعنى بهما سوى المعنى العام المفهوم من كلمة السيف .

(د) من الكلمات ما تشترك معانيها فى بعض الأجزاء ، وتختلف فى البعض الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة فى جزء من سطوحها ، أو مشتركة فى جزء من السطح فقط . فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعانى أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة . لأن المعانى لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاماً أو يصبح العام خاصاً .

فإذا قارنا بين الكلمة [هلك] فى العربية ، وجدنا معناها فى العبرية لكل نوع من الذهاب ، فى حين أن معناها فى العربية قد تحدد فأصبح مقصوراً على نوع واحد من الذهاب وهو [الهلاك] ، وقد أدّى مثل هذا التطور إلى الترادف بين الموت والهلاك .

(هـ) المجازات المنسية قد تولد نوعاً من الترادف فى الكلمات ، فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالا مجازياً ، يطول العهد عليه ، فيصبح حقيقة . وهنا نرى كلمات مستعملة بمعانيها الأصلية الحقيقية ، جنباً إلى جنب مع تلك التى أخذت معانيها عن طريق المجاز .

والمعانى الأصلية الحقيقية ، هى المعانى الحسية ، التى يتفرع عنها عادة عن طريق المجاز ، ما يشيع من معنويات . فالرحمة مثلا قد اشتقت من [الرحِم] موضعِ الولد ، والمكان الذي يلد الأبناء والأخوات ، فتنشأ بينهم صلة من الحب

والعطف . فلعل الرحمة فى الأصل هى عملية النسل من الأرحام ، ثم استعملت فى قديم الزمان عن طريق المجاز فى الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد . وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازى ، حتى أصبح حقيقة ، وبهذا نشأ الترادف بينها و بين كلمة مثل (الرأفة) .

لا نريد بعد هذا أن ننساق مع بعض العلماء حين عددوا فوائد المترادفات للكاتب والشاعر والخطيب ، لأن مثل هذا البحث قد يخرجنا عما نهدف إليه فى هذا الكتاب ، و إنما نريد الإشارة إلى ذلك النوع من الكلمات التى ظنها بعض العلماء من المترادفات ، فى حين أن اختلاف الصورة بينها ، ليس إلا ظاهرياً ، وأنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات .

وليست هذه الكلمات بمترادفات حسب المعنى الدقيق للترادف . وقد مثل القدماء لقليل من هذه الكلمات ، دون أن يشرحوا لنا العلاقة الصوتية بينها . لهذا قمت بجمع عشرات من تلك الكلمات ، أوردها هنا مبوبة مع شرح العلاقة الصوتية بينها ، وكيف تطورت إلى صور متعددة .

الشدة والرخاوة

١ — الهمزة والهاء :

هلبت السماء القوم مطرتهم مطراً متتابعاً : ألبتْ السماء دام مطرها .

أته بالحجة : الهتّ سرد الكلام ، والهتات الكثير الكلام .

الأزّ ، رمى السلح : هزّ سلحه استطلق .

الأصر العطف : الهصر عطف شىء رطب .

أزّ : هزّ . الألس اختلاط العقل : مهتلس العقل مسلوبه .

الأَبْش الجمع : الهَبْش . يأشَّ : يهش .
أضَّه كسره : هضَّه وطئه فشدخه . أضّ كسر : هضّ .
أراق : هراق . أزم القوم استأصلهم : هزم .
بدهه بأمر : بدأه به . درأ الرجل خرج لجأة : دره هجم وطلع .

٢ — الهمزة والعين :

بدأ الله الخلق خلقهم : بدعهم . الحبأء : الحباع .
دنع الصبي خضع وذلّ ولؤم : الدنىء . شنأه كرهه : شنيع كريه .
الأزر التقوية : التعزير . ألك الفرس اللجام : علكه .
الأَتْمُ زيتون البر : العُتْمُ .

٣ — الباء والميم :

كمح الدابة : كبحها . الطَّبْش الناس : الطمش .
رأيته عن كثب : رأيته عن كثم . ثلَبَه : ثلمه . اطبأنّ : اطمأن .
المبخور : المخمور .

٤ — الباء والفاء :

ناقة زفون : زبون . إفّانه : إبّانه . الفُسكل : البُسكل .

٥ — الضاد والظاء :

عظّته الحرب : عضته .
ظجّ : صاح فى الحرب صياح المستغيث وبالضاد فى غير الحرب .
فاظ مات : فاضت روحه .

٦ — الدال مع الذال أو الزاى :

دشّ الرجل سار : دشّ . الدغدغة : الزغزغة .
فشرّذ بهم : فشرذ بهم (قراءة) .

٧ — الجيم والياء :

شجرات : شيرات .

٨ — التاء مع السين :

اتخذ : استخذ .

الجهر والهمس

١ — الدال والتاء :

المدّ : المت .
هرد اللحم أنعم إنضاجه أو طبخه حتى يهرأ : الهرْت الطبخ البالغ .
فدغه شرخه : فتغه . فدرَ الفحل : فتر .

٢ — الذال والثاء :

بثّ الخبز نشره وفرقه : البذ من التمر المنتثر . الجثّ القطع : الجذ .
الملْث الوعد بلا نية الوفاء : الملذ الكذب . تلعثم : تلعذم .
جذوة : جثوة . جذا : جثا .

٣ — الجيم والشين :

جزر قطع : الشزر القطع . جَظه طرده : شظّ القوم طردهم .

الجفن : شفنَ نظر بمؤخر عينه .

٤ — العين والحاء :

الفلح الشق وفلح الأرض شقها : فلعه شقه .

لطحه ضربه ببطن كفه أو ضرباً ليناً على الظهر : اللطع أن تضرب مؤخر الإنسان برجلك .

أمتح النهار ارتفع : متع النهار ارتفع قبل الزوال . حِظب سَمِن : عظب .

الحوْس الجوْس : العوس الطوفان بالليل .

حنشه عن الشيء عطفه : عنش . الحبكة : العبكة .

٥ — الغين والخاء :

زاغ فى المنطق جار : زاخ . الخود الناعمة الرقيقة : الغيد .

خرز الجلد بالمخرز ثقبه : غرز الإبرة . الأخنّ : الأغنّ .

الخنّة : الغنّة .

٦ — الزاى والسين :

الحرز الموضع الحصين : حرس الشيء . غرس : غرز .

سنِخ الدهن : زنخ . زرد الدرع : سردها .

الزلَع شقاق فى ظاهر القدم وباطنه : السلْع الشق فى القدم .

زفت الريح السحاب طردته واستخفته : سفت الريح التراب . الزفت : السفت .

الإطباق والاستفال

١ — الصاد والسين :

الدخيس اللحم المكتنز : دخصت الجارية امتلأت شحما .

الرَّغْس الارتعاش والانتفاض : الرعص النفض والهز وارتعص انتفض .

المَغَص : المغس . ما ينبس ما يتكلم : ما ينبص .

السَّقْب ولد الناقة : الصقب .

سفح الجبل عُرْضه المضطجع : صفح الجبل مضطجعه .

الصراط : السراط . الصَّعوط : السعوط .

السَّنْط : الصنط . سلّطه : صلطه . سفعَ : صفع .

صلغتْ الشاة : سلغت . السَّخَب : الصَّخَب . البساق : البصاق

٢ — الظاء والذال :

ذأَته خنقه : ظأَته

٣ — الطاء والتاء أو الدال [١] :

غتّه فى الماء : غطّه . هتلت السماء : هطلت .

الغَلَت : الغلط . دلع لسانه أخرجه : طلع .

دحمه دفعه شـديداً : الطَّحوم الدفوع .

---

(١) الطاء كما تنطق الآن هى الصوت المطبق للتاء ولـكن يظهر أنه كان ينطق بها قديماً كمطبق الدال . أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٥٣ .

نسبة الوضوح فى السمع

هناك أصوات اتحدت فى الصفة ولكنها اختلفت فى نسبة وضوحها فى السمع ، وهذه الأصوات يحل بعضها محل بعض ، كالراء مع اللام ، فإن الأولى أوضح فى السمع من الثانية ، مع أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . وكذلك السين مع الفاء ، والحاء مع الهاء ، والثاء مع الفاء .

١ — **الراء واللام :**

الرَّخْف الزبد : اللَّخف . رمقه لحظه : اللمق النظر .

رَبكه خلطه : اللَّبْك الخلط . الرمز واللمز : الإشارة .

رتب رتوباً ثبت : اللَّتب اللزوم والثبات .

الخيزرى مشية خاصة : الخيزلى . رَبدَ أقام : لبد .

الركود السكون : لكد عليه الوسخ لزمه . جرفه . جلفه .

رعلَّ : لعل . تبرّص : تبلّص .

٢ — **الثاء والفاء :**

جدث : جدف . الجثْل النمل : الجفل .

ثار : فار . انثجر الماء : انفجر .

الثغر الفم : فغر الفم بابه . ثلغ رأسه شدخه : الفلغ الشق .

مغفور : مغثور . ثجلَ عظم بطنه واسترخى : فجلَ استرخى وغلظ .

٣ — **السين والفاء :**

رجست السماء رعدت شديداً : رجف الرعد ترددت هدهدته فى السحاب .

وارتجس البناء : رجف .

الشوس النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً : الشَّنْف النظر إلى الشيء كالمعترض عليه أو كالكاره له .

الوجْس الفزع : وجف يجف اضطرب خوفاً . سطح : فطح .

السلْع الشق فى القدم : الفلع . السحَم : الفحَم .

٤ — الحاء والهاء :

التحريش بين الناس الإفساد : التهريش .

ويمكن أن نعزو معظم ما تقدم من أمثلة ، إلى الاختلاف بين البيئة البدوية والبيئة الحضرية ، كما أشرنا فى موضعه . على أن منها ما يمكن أن يعزى إلى أخطاء الأطفال ، أى أنها كانت تستعمل فى البيئة الواحدة ولكن فى أجيال مختلفة منها .

أمّا الكلمات التى سنوردها فيما بعد فهى تختلف إما فى مجرى الصوت من الفم أو الأنف مع الاتحاد فى الصفة ، أو تختلف فى مخرج الصوت ، وذلك بانتقاله من موضعه إلى موضع آخر أيسر فى النطق ولا يحتاج إلى جهد عضلى ، أو قد تختلف فى ترتيب أصواتها .

اختلاف المجرى

الشثل غلظ الأصابع : الشثن . غَمِلَ الجلدَ : غمنه .

امتقع لونه : انتقع . لعلَّ : لعنَّ .

أصيلالا : أصيلانا .

اختلاف المخرج

١ — **الكاف والتاء :**

بتكه قطعه : بتّه . عركَ أنفه دلكه : عرك دلكه وحكه .

الأعفت الأحمق : عفِكَ حَمُق جداً .

تخ تخ زجر للدجاج : كخ كخ زجر للصبى .

٢ — القاف التى كان ينطق بها فى الأصل كالغين [1] ، حلت الغين محلها فى بعض الكلمات ، ثم همست كما ننطق بها الآن فحلت الكاف محلها فى بعض الكلمات :

غنم له من المال دفع له دفعة جيدة : قنم .

الغمس الغوص : القمس . قرثه الأمر : كرثه .

الدكّ : الدق . الدغكة : الدغقة .

حزقه ضغطه وشده : حزكه عصبه وضغطه . الغسق : الغسك .

القُحّ : الكح . القهر : الكهر . القحط : الكحط .

٣ — **السين والشين :**

الرغس : الرغش . الغبس الظلمة : الغبش .

معسه دلكه شديداً : المَعْش الدلك الرقيق .

النسّ السوق والزجر : النشّ السوق الرقيق .

نهشه : أخذه بأضراسه و بالسين أخذه بأطراف أسنانه .

سنغتْ يده تشققت وتشعث ما حول الأظافر : شنغت أصابعه تشعث ما حول أظافرها .

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٧٢ .

اختلاف ترتيب الأصوات

اللجز : اللزج . جذب : جبذ . ربض : رضب .

صاعقة : صاقعة . عميق : معيق .

لبكتُ الشيء : بلكته . سحاب مكفهر : ومكرهف .

اضمحل : امضحل .

— ٢ —

المشترك اللفظى

لا بد فى الحديث عن اللهجات العربية من التعرض لنوع من الكلمات ، رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . وقد تعود القدماء أن يسموا هذا النوع من الكلمات بالمشترك اللفظى ، لأن الكلمة الواحدة مع محافظتها على لفظها وأصواتها ، تعبر عن أكثر من معنى واحد .

وقد عرض القدماء فى بحوثهم لهذه الكلمات ، فأنكرها بعضهم ، وتأول ما ورد منها بأن جعل أحد المعنيين حقيقياً والآخر مجازياً ، وعلى رأس هذا الفريق ابن درستوريه . ولكن الكثرة من علماء اللغة ، قد ذهبوا إلى ورود المشترك اللفظى ، وضربوا له أمثلة كثيرة ، وعلى رأس هؤلاء الأصمعى ، والخليل ، وسيبويه ، وأبو عبيدة ، وغيرهم . بل لقد أفرد بعض هؤلاء مؤلفات خاصة سردوا فيها أمثلة المشترك اللفظى .

ويظهر أن كلا الفريقين قد أسرف فيما ذهب إليه ، وبعد عن جادة الصواب فى بحثه ، إذ لا معنى لإنكار المشترك اللفظى مع ما روى لنا فى الأساليب العربية الصحيحة من أمثلة كثيرة ، لا يتطرق إليها الشك . كذلك لا معنى

للمغالاة فى رواية أمثلة له مع ما فى هذا من التعسف والتكلف . ولكن كما اختلف القدماء فى ورود الترادف اختلفوا أيضاً فى ورود المشترك اللفظى ، وذلك لأن كل فريق قد نظر إلى الكلمات ومعانيها من زاوية خاصة . فالذين تأولوا أمثلة المشترك اللفظى على أنها كلها من الحقيقة والمجاز ، قد نظروا إليها نظرة تاريخية ، وتتبعوها فى عصورها المختلفة ، وتلك هى الطريقة التى سميناها آنفاً Diachronic . أما الآخرون فنظرتهم وصفية واقعية ، إذ بحثوا فى الكلمات ومعانيها فى عصر خاص ، وتلك هى النظرة التى سميناها Synchronic .

وليس الأمر من البساطة بالقدر الذى تصوره القدماء من علماء اللغة ، إذ وقع المشترك اللفظى فى كل لغة ، وقد دعت عوامل متعددة لوقوعه . فكما تتطور أصوات الكلمات وتتغير ، قد تتطور معانيها وتتغير ، مع احتفاظها بأصواتها . وتطور المعانى وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات ، هوالذى ينتج لنا كلمات اشتركت فى الصورة واختلفت فى المعنى .

ولعل أهم عامل فى تغير المعنى هو الاستعمال المجازى ، وليس من الضرورى أن يكون الاستعمال المجازى مقصوداً متعمداً ، كما نلحظه فى بعض الأساليب الشعرية والكتابية ، بل قد يقع من عدة أفراد فى البيئة اللغوية فى وقت واحد ، ودون مواضعة أو اتفاق بينهم . فالناس فى لغة تخاطبهم قد يلجأون إلى مجازات لتوضيح معانيهم و إبرازهافى صورة جلية ، دون أن يعمدوا إلى هذا عمداً ، أو يرغبوا فى إظهار براعةفى الكلام . فكما تعودوا أن يقولوارأس الإنسان ، قد يقولون أيضاً رأس الجبل ورأس النخلة ثم أخيراً رأس الحكمة ! ولا يعنون بكلمة (رأس) فى كل استعمال من هذه الاستعمالات ، سوى الجزء الأعلى البارز من كل شىء ، و إن اختلفت هذه الأجزاء فى تفاصيلها . ونحن فى فهمنا لمعانى الأشياء لا نتطلب الدقائق والتفاصيل فيها ، بل نكتفى عادة بفكرة سريعة ذات ارتباط بتجاربنا السالفة .

فحين نسمع للمرة الأولى استعمالا مثل [رأس الجبل] لا نحاول تحليله إلى دقائقه ، وإنما نربطه ربطاً سريعاً بتجاربنا السابقة التى منها فهمنا أن رأس الإنسان هو أعلى جزء فيه وأبرزه ، فنقبل هـذا الاستعمال الجديد متى كان يمت بعلاقة ما لاستعمال قديم ، وهكذا تنتقل معانى الـكلمات من محيط إلى آخر . وقد يكون الاستعمال الجديد من عمل فرد ممتاز فى البيئة اللغوية كشاعر أو كاتب ، كما قد يكون من عمل مجموعة من الناس دون مواضعة أو اتفاق بينهم . وانتقال المعانى من محيط إلى محيط آخر هو الذى اصطلح على تسميتـه بالمجازات . على أن المجازات تخضع عادة للذوق العام ، فإذا أسرف الشاعر فى مجازاته ، أو غالى فيها أو بعد بها عن بيئته لم يقبلها الذوق العام ، ولا تلبث أن تموت . وحين تمر الأيام على تلك المجازات ، ويكثر استعمالها ؛ لا تلبث أن تنسى الناحية المجازية فيها ، وتصبح معانيها حقيقية . والبحث عن تلك المجازات المنسية أمر ليس باليسير ، لأنه يتطلب التوغل فى العصور التاريخية للبحث عن نصوص قديمة فيها استعملت الـكلمات بشكل مجازى واضح ؛ أو يتطلب البحث فى تاريخ الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم لنستطيع الوصول إلى أن المعنى الذى يبدو لنا الآن حقيقياً ، كان فى بدء استعماله مجازياً ، لما كانت عليه تلك الأمة من تقاليد كذا وكذا . وكل تغير فى الحياة الاجتماعية يستتبع تغيراً فى معانى بعض الـكلمات التى قد تحتفظ بصورتها ، وينشأ من هذا ما نسميه بالمشترك اللفظى . فمثلا الـكلمة التى تعبر فى كل اللغات الأوربية عن [الـكهرباء] قد اشتقت من كلمة إغريقية قديمة كانت تعنى ذلك الحجر المسمى بالـكهرمان ؛ وذلك لأن الـكهرمان كان معروفاً منذ القدم بأنه يجذب بعض المواد الصغيرة بعد حكه . ولسنا الآن نشك فى أن الـكلمتين اللتين تعنيان فى اللغات الأوربيـة كهرباء ، كهرمان ، من أصل إغريقى واحد ، رغم أنهما عربتا بصورتين مختلفتين بعض الاختلاف .

وشرط المجاز فى رأيى ، أن يثير عنـد سماعه دهشة أو غرابة ، أى يحس

السامع أو القارئ أن فى استعمال الكلمة بهذا المعنى أمراً غير عادىّ يبعد قليلا أو كثيراً عن مألوف الناس وفيهم لمثل هذه الكلمة . فليس من المجاز ما يحدثنا به علماء البلاغة من أن فى قول القائل « حكمت المحكمة » مجازاً ، ولا فى « جرى النيل » ، « طلعت الشمس » ، « ركب المخاطر » ، ونحو ذلك من أساليب تنوسيت فيها الناحية المجازية ، وأصبحت من الشيوع والدوران بحيث لا تثير فى الذهن دهشة أو غرابة .

أما حين تحلّل مثل هذه التراكيب وينظر إليها النظرة التاريخية فيمكن أن يقال إنها حين استعملت المرة الأولى — ولا ندرى متى كان هذا — قد أثارت فى أذهان الناس تلك الدهشة أو الغرابة التى نتطلبها فى المجاز .

المعانى إذن لا تبقى على حال واحدة بل هى دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، يمر فى أجيال قبل أن نشعر به أو نتعرف عليه . وكما يصيب التغير بعض الأصوات دون البعض الآخر ، كذلك نرى تغير المعانى مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر ، وذلك لتلك الظروف اللغوية الخاصة التى قد تطرأ على بعض الكلمات فقط . وكما قد تحافظ بعض الكلمات على أصواتها ولفظها ، كذلك قد تحافظ بعض الكلمات على معانيها .

أما أهم العوامل التى تسبب تغير المعانى فيمكن أن نلخصها فيما يلى :

(١) الانتقال من الحقيقة إلى المجاز : وهذا هو أهم العوامل ، وإليه يمكن أن يعزى معظم اختلافات المعانى وتغيرها .

والمجازات قد تكون من عمل الأفراد الموهوبين فى شعر أو نثر ، كما قد تكون من عمل جماعة من الناس فى البيئة اللغوية . ومجازات الشعراء والكتاب حين يعمدون إليها فى أساليبهم للمرة الأولى ، تصدر منهم عمداً ، ولغاية خاصة ، أما المجازات الأخرى فإنما يدعو إليها تغير فى الحياة الاجتماعية ، أو تقدم فى الحياة العقلية . وهنا قد ينتقل المعنى الحسى إلى مجال المعنويات .

(ب) سوء فهم المعنى : قد يسىء الطفل فهم معنى الكلمة فى البيئة المنعزلة ثم ينشأ هذا الطفل دون أن يصلح له ما فهم ، فتراه يستعمل الكلمات فى معنى جديد ، إن لم يكن مخالفاً للمعنى الأول كل المخالفة ؛ فلا أقل من أن نرى بين المعنيين بعض الاختلاف ؛ فتغير المعانى قد يكون من أخطاء الأجيال الناشئة .

وليس من السهل التمييز بين الكلمات التى اختلفت معانيها بسبب استعمال مجازى ، و بين تلك التى تعددت معانيها بسبب أخطاء الأطفال ، على أنه يمكن بوجه عام أن ننسب تغير المعانى فى كلمة من الكلمات إلى عبث الأطفال حين لا نلحظ علاقة واضحة بين المعنى القديم والمعنى الجديد . وحكمنا فى هذه الحالة مرجح لامؤكد ؛ لأن بعض المجازات المنسية قد نشأت فى ظروف لغوية خاصة ، ومضى عليها زمن طويل فأصبح من الصعب الكشف عنها .

(ح) قد تستعير اللغة كلمات تماثل صورتها كلمات أخرى فيها ، و إن اختلف معناها . وهنا قد نرى كلمتين متحدتين فى الصورة ، مختلفتين فى المعنى ولكن كلا منهما ينتمى فى الأصل إلى لغة مستقلة . ومثل هذا النوع من الكلمات نادر وهو وليد المصادفة ، ولكنه قد يولد لنا المشترك اللفظى .

« فالبُرْج » بمعنى الحصن قد استعارته اللغة العربية من اللغة اليونانية ، فليست بلاد العرب بيئة للحصون والأبراج ، ومع هذا تشتمل اللغة العربية على هذه المادة « برج » وتتخذها فى عدة معان لا تمت للحصون بصلة ما ، فهى مادة عربية أصيلة . فإذا تصادف أن كان بين كلمات اللغة العربية كلمة مشتقة من هذه المادة للتعبير عن صفة خاصة فى العين ، أو للتعبير عن الزينة والتزيّن وجاءت على صيغة « البُرْج » ، ولد هذا فى اللغة ما يسمى بالمشترك اللفظى .

و يظهر أن صاحب شفاء الغليل قد فطن إلى إمكان وقوع هذه الظاهرة فى اللغة ، بدليل قوله : [لا يضرّ المعرب كونه موافقاً للفظ عربى « كسكر » ، فإنه معرب و إن كان عربى المادة بمعنى أغلق ، قال تعالى « سكرت أبصارنا » .

كذلك لا يضر ما صحت عربيته موافقته لفظاً فارسياً أو قربه منه كضنك وتنك وجناح وكناه] .

(ى) قد يتغير معنى الكلمة فى لهجة من اللهجات ، ثم يمر زمن طويل خلاله ينسى المعنى الأصلى ، وتلتزم تلك اللهجة استعمال هذه الكلمة فى معناها الجديد دون سواه ، وهنا نرى لهجات اللغة الواحدة تستعمل كلمات متحدة الصورة فى معان مختلفة . ويظهر أن هذه الظاهرة قد لعبت دوراً هاماً فى اللهجات العربية ، إذ تغيرت معانى بعض الكلمات فى بعض اللهجات دون البعض الآخر لظروف لغوية خاصة . فلما جمعت اللغة خيل لجامعيها أن إحدى القبائل تستعمل هذه الكلمة فى معنى من هذه المعانى ، فى حين أن قبيلة أخرى تستعملها فى معنى آخر . والحقيقة أن معنى هذه الكلمة قد تغير فى لهجة من اللهجات دون أن يطرأ عليه أى تغيير فى اللهجة الأخرى .

فحين تذكر لنا المعاجم القديمة أن « الهِجرِس » تعنى القرد فى الحجاز ، وتعبر عن الثعلب عند تميم ، لا نشك فى أن الكلمة كانت تطلق على أحد الحيوانين وحده لأن البيئة الصحراوية تناسبه ويكثر فيها أمثاله ، ثم تغير هذا المعنى لظرف من الظروف المجهولة لنا فأصبح يعنى عند قبيلة من القبائل شيئاً آخر غير الشائع المألوف. ثم جاء جامعو اللغة وذكروا لنا معنيين لهذه الكلمة الواحدة

(هـ) هناك كلمات كانت تستعمل فى الأصل مختلفة الصورة والمعنى ، ثم تطورت صورة بعض منها حتى ماثلت البعض الآخر ، وهكذا رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . فاشتراك الصورة فى مثل هذه الكلمات لم ينشأ عن اشتراكها فى المعنى الأصلى ، وإنما نشأ عن تغير فى أصوات بعضها ؛ ترتب عليه مماثلة فى اللفظ ، واختلاف أصلى فى المعنى .

ونحن حين نستعرض أمثلة المشترك اللفظى ، كما رويت لنا فى المعاجم العربية ونحاول إرجاعها إلى العوامل المتقدمة ، نراها من الكثرة والاضطراب فى روايتها

بحيث تعيي الباحث المدقق عن الحكم عليها حكما قاطعاً . وكيف يمكن القطع فيها برأى مع جهلنا بالحياة العربية قبل الإسلام . هذا إلى أن تلك الكلمات مرت فى أحقاب بعيدة ، وفى ظروف اجتماعية مجهولة ، قبل أن تروى لنا على هذه الصورة التى نشهدها فى المعاجم . وكل الذى نستطيع تأكيده بصددها ، أن معانيها قد تغيرت مع احتفاظها بصورتها ، أو أن صورتها قد تغيرت مع الاحتفاظ بمعانيها ، أما سبب التغير فأمر أقرب إلى الترجيح منه إلى مرتبة اليقين .

وليس هناك ما نستدل به على تغير المعانى فى بعض الكلمات خير من تلك الأخطاء الإنشائية الشائعة بين تلاميذنا ، وفى بعض صحفنا حين تستعمل بعض الكلمات فى معان لم ترد فى المعاجم .

وكلنا يعلم أن مدرس اللغة العربية فى صراع مستمر مع تلك المعانى الجديدة لكلمات قديمة ، ينكرها حيناً ويقبلها حيناً آخر ، دون أن يعلم الظروف التى أدت إلى مثل هذا التغير فى المعنى . فقليل من التلاميذ من يستعملون كلمة مثل (العتيد) أو (عيال) فى معناها الذى روته المعاجم . وقد اشتملت لغة كلامنا على كلمات كثيرة عربية الأصل ، احتفظت بصورتها فقط ، دون معناها الأصلى .

وكان أساتذتنا يأبون علينا استعمال « التكاتف » بمعنى التعاون ، ويرفضون قبول « كرّس حياته لكذا » ، كما علمونا أن الثوب المهلهل هو الرقيق النسج الذى يكاد يشف عمّا تحته ، وليس الخلق الممزق كما قد يتبادر لبعض الأذهان .

هذا إلى ما شاع فى لهجات كلامنا الآن من استعمال « السبع » مقصوراً على الأسد ، وبصّ يبصُّ بمعنى نظر ، والتبجّح بمعنى المغالاة فى الجرأة مع وقاحة واستهتار ، وطبّ عليه أى فاجأه ، وباش يبوش أى ذاب .

بقى أن نلقى نظرة سريعة فى بطون المعاجم اللغوية لنلتقط منها بعض الأمثلة العربية التى توضح لنا اضطراب الرواية فى معانى الكلمات ، وصعوبة الكشف عن العلاقة بينها :

١ — فالليث من معانيه : الأسد ، وضرب من العنكبوت ، واللسن البليغ !! فكيف عبرت هذه الكلمة عن كل هذه المعانى ، وما هى الظروف اللغوية التى ترتب عليها مثل هذا الاختلاف ؟ ؟

٢ — وما العلاقة بين المعانى التى رويت لكلمة الفخت : ضوء القمر ، نشل الطباخ القدرة من القدرة ، ثقوب مستديرة فى السقف ! ؟

٣ — وكيف عبر بكلمة (البلد) عن :

مكة ، كل قطعة من الأرض مستحيرة عامرة ، التراب ، القبر ، الدار ، الأثر ! ؟

٤ — وكيف التقت المعانى الآتية فى كلمة النجم ؟

الكوكب ، نبات نجم على غير ساق ، الوقت المضروب والأصل ألخ !

غير أننا نلحظ العلاقة واضحة جلية بين معانى بعض الكلمات مثل :

١ — الجبل : ما علا من الأرض ، سيد القوم ، عالمهم .

٢ — التفاحتان : رءوس الفخذين فى الوركين .

٣ — العنبة : بثرة تخرج بالإنسان .

والذى نلحظه بصفة عامة ، أن كثيراً من الكلمات التى تسمى بالمشترك اللفظى تجمع بين معنيين ، أحدهما حسى والآخر معنوى ، ولا شك أن المعنى الأصلىَّ فى مثل هذه الحالة هو الحسى ، وأن المعنوى فرع عنه بطريق المجاز .

وقد عنى الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة بتبيان المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، ولكنه لم يوفق فى كل حالة ، فقد ضل الطريق حين حاول اشتقاق معنى حسى ، من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعد المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز . وقد وقع فى نفس الزلل بعض الرواة المشهورين مثل : أبى عمرو بن العلاء حين روى قصة اشتقاق الخيل من الخيلاء ، وقال لصاحبه

مؤيداً هذا الزعم ألا تراه يمشى العِرضْنة ؟

وليت شعرى كيف يمكن هذا مع أن الناس قد عرفوا الخيل قبل أن يعرفوا الخيلاء ! فإذا صح أن هناك علاقة بين الخيل والخيلاء ، فالأولى أن يقال إن الخيلاء من الخيل لا العكس .

ولا بأس هنا أن نورد بعض الأمثلة التى وردت فى أساس البلاغة ، لنؤيد ما نذهب إليه من أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود ، وأنها مصدر الاشتقاق لغيرها من الكلمات : —

١ — الُجبن مشتق من الجبّانة والجبّان أى الصحراء .

٢ — جثم الطائر مشتق من الجثمان .

٣ — دبج بمعنى زيّن مشتق من الديباج .

٤ — جدثوه غيبوه فى الجدث .

٥ — خيّم الظلام من الخيمة .

ولهذا لا نتجنى على اللغة حين نرجح أن معظم المعنويات التى لا ندرك لها مصدر اشتقاق ، والتى تبدو لأول وهلة حقيقية المعانى ، ليست فى الحقيقة إلا مجازات منسية .

على أن البحث والتنقيب يوقفنا فى معظم الأحيان على المعانى الحقيقية الأصلية لتلك المعنويات ، فانظر مثلا :

١ — الرطانة وهى العجمة فى النطق قد اشتقت أصلا من معنى حسى هو : إذا كثرت الإبل وكانت رفاقا ومعها أهلها فتسمى الرطانة . والعلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى الفرعى هى الجلبة مع الإبهام .

٢ — وكذلك البطلان التى منها الباطل ضد الحق جاءت من كلمة الباطل بمعنى إبليس . وقد ورد المعنى الأصلى فى القرآن الكريم (وما يبدىء الباطل وما يعيد) .

٣ — الطمع فى الأصل معناه رزق الجند .

٤ — السفاهة فى الأصل من سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف .

ولكن حين يسائل المرء نفسه عن المعانى الأصلية للجوع والعطش والرعب والفرح ، لا يكاد يعثر على معان حسية تعدّ مصدر الاشتقاق لها . ولعلّ هذا لأن مثل تلك المعنويات قديمة بعيدة القدم ، ولا سبيل إلى التوغل فى تاريخ الإنسان لنعرف كيف عرف الجوع والعطش ، أو الخوف والفرح أول الأمر ، وكيف بدأ يشتق كلمات تعبر عنها ؟

وقد يكون من العبث أن نسرف هنا فى ذكر أمثلة لما يسمى بالمشترك اللفظى ، لأن المعاجم العربية قد ملئت بها ، ومن اليسير الوصول إليها بمجرد الكشف فى القواميس ، ومن اليسير أيضا إرجاع تلك الأمثلة التى يعثر عليها إلى عامل من العوامل الآنفة الذكر .

غير أنا سنعنى هنا بالعامل الأخير من عوامل المشترك اللفظى ، لأن القدماء لم يشيروا إليه ، أو لم يفطنوا لإمكان حدوثه ، وهو أن بعض الكلمات لم تشترك فى اللفظ إلا بعد تطور فى أصوات بعضها ، وأن هذا الاشتراك فى اللفظ لم يكن فى الحقيقة إلا وليد المصادفة ، فانظر مثلا إلى الكلمات الآتية :

١ — روت المعاجم أن [التغَب] لها معنيان غير ظاهرى العلاقة ، وهما الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ثم فى موضع آخر نجد أن « السغَب » معناه الجوع !

ويظهر أن كلمة « السغَب » قد تطورت فى لهجة من اللهجات ، ولظرف من الظروف الخاصة ، حتى أصبحت [التغب] من المشترك اللفظى . وقد يستأنس لهذا الرأى بما روى عن بعض قبائل اليمن من ميلها إلى قلب السين تاء ، فيقولون (النات) بدلا من [الناس] . فلعل كلمة (السغب) قد نطق بها فى القبائل اليمنية (التغب) ، مع احتفاظها بمعناها وهو الجوع ، ثم جاء جامعو المعاجم ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) ، وعدوها من المشترك اللفظى .

٢ — حرِبه حرَبا سلبه ماله ، وحرِب حربا اشتد غضبه ، وعلى هذا فكلمة (الحرَب) من المشترك اللفظى فى رأى أصحاب القواميس !

والحقيقة أن المعنى الأول لهذه الكلمة هو نفس معنى الفعل [حرمه] فلما قلبت الميم « باء » فى لهجة من اللهجات العربية كلهجة مازن مثلا ، التبس الفعل (حرمه) بمعنى سلبه ، بالفعل حرِب بمعنى اشتد غضبه .

٣ — «قطب» زوى ما بين عينيه وكلح كقطّب ، والشىء قطعه ! فهل نلحظ علاقة مَا بين التقطيب فى الوجه وقطع الشىء ؟ اللهم لا ! على أن أصحاب المعاجم قد عدوا هذا من المشترك اللفظى ، ولو أنهم رجعوا إلى الفعل (قطم) لرأوه بمعنى قطع ، ولما قلبت الميم منه إلى « باء » ، ظهر لهم فعل ظنوه جديداً وهو (قطب) بمعنى قطع ، ونسبوا له الاشتراك اللفظى .

٤ — جاء فى مادة [سحب] أن لهذا الفعل معنيين هما :

(ا) جرّه على وجه الأرض .

(ب) أكل وشرب أكلا شديداً .

فهل هنا علاقة ظاهرة بين المعنيين بحيث نقول إن أحدهما فرع عن الآخر ؟ أليس الأصوب أن نبحث عن المعنى الثانى فى مادة (زعَب) التى فيها (تزعّب) فى أكله وشربه أكثر ، فلما همست الزاى والعين أصبحتا سينا وحاء ؟

وهكذا التبس لفظ الفعلين ، وحسب القدماء الفعل (سحب) من المشترك اللفظى .

٥ — وقد خلطت المعاجم بين مادتى (لزب) و (لسب) فنسبت لكل منهما معنيين هما : اللصوق ولدغ العقرب أو الحية : فقد جاء فى قاموس المحيط اللزوب : اللصوق ، لزبته العقرب لدغته ، لسب به لصق ، لسبتة الحية لدغته !! وكان الأولى أن ينسب أحد المعنيين إلى المادة الأولى ، والمعنى الثانى إلى المادة الأخرى . ولكن التطور الصوتى فى إحدى المادتين وذلك بهمس الزاى لتصبح

سيناً ، أو بجهر السين لتصبح زاياً ، قد أوقع القدماء فى اللبس ، وجعلهم يخلطون بين معنيين بعيدى العلاقة .

٦ — أليس من الإسراف والمغالاة أن نجارى المعاجم العربية فنقول إن مادة (نسب) من المشترك اللفظى لأن من معانيها : نسبه ذكر نسبه ، وأنسبت الريح اشتدت ؟ فى حين أنا نرى فى موضع آخر [أنشبت الريح اشتدت] ! أو ليس الأقرب إلى الصواب أن نقول إن التطور الصوتى فى الفعل (أنشبت الريح) ، قد أدى إلى قلب الشين سيناً ، فالتبس الأمر على جامعى اللغة ؟

٧ — الخَبْت : المتسع من بطون الأرض ، والخبيت الحقير ! هذا هو مارواه صاحب قاموس المحيط . ولعمرى كيف استباح لنفسه أن ينسب لهذه الكلمة شيئا من ظاهرة الاشتراك اللفظى مع وجود كلمة (الخبيث) بالثاء وشهرتها ، واحتمال قلب الثاء إلى التاء مما أدى إلى اللبس بين المادتين .

٨ — المحْت : الشديد ، اليوم الحار ، والخالص !

قد يعدّ بعض الناس مثل هذه الكلمة من المشترك اللفظى دون علاقة واضحة بين هذه المعانى ، فى حين أننا نعلم أن كلمة (البحْت) معناها الخالص ، وأن قلب الباء منها إلى ميم ، قد أدى إلى نسبة معنى الخالص إلى (المحْت) ، مع مالها من معان أخرى .

٩ — فحث عنه كمنع فحص ، والفِحث حية عظيمة لا تؤذى !

فليت شعرى ما العلاقة بين هاذين المعنيين حتى نجعلهما من مشتقات مادة واحدة ؟

أليس الأجدر أن نقول إن المعنى الأول متفرع عن الفعل (بحث عنه) ؟ فلما قلبت الباء إلى الفاء ، وكلاهما من الأصوات الشفوية ، أدى هذا إلى اللبس بين المادتين ؟

تلك هى أمثلة قليلة ، أردنا أن نوردها لتوضيح ما نعنى من أن ظاهرة

الاشتراك اللفظى ، قد تكون فى بعض الأحيان نتيجة تطور صوتى فى بعض الكلمات .

ولا شك أن الباحث فى بطون المعاجم العربية سيعثر على مئات من أمثال تلك التى أوردناها هنا .

— ٣ —

التضـــاد

لا يتم الحديث عن المشترك اللفظى إلا بالتعرض لتلك الكلمات التى رويت لنا متضادة المعانى ، والتى اصطلح القدماء على تسميتها بالأضداد . وأشهر من عنى بتلك الكلمات وجمعها بين مؤلفى العرب ، هو ابن الأنبارى فى كتاب له سماه الأضداد ، أحصى فيه ما ينيف على أربعمائة كلمة ، ولكنه تعسف فى اختياره ، وتأول كثيراً من معانى الكلمات .

ويجدر بنا أن نسوق بعض الأمثلة التى وردت فى كتاب ابن الأنبارى ، ومنها نرى إلى أى حدّ بلغ التكلف والتعسف بالمؤلف ليجعل منها كلمات متضادة .

١ — يذكر ابن الأنبارى أن « عسعس الليل » معناه أقبل أو أدبر ! ! ثم يسوق بعض الشواهد الشعرية للبرهنة على ما يقول ، وليس من بين هذه الشواهد ما هو منسوب لصاحبه إلا بيتان أحدهما لامرئ القيس والآخر لعلقمة ابن قرط . على أن الفراء قد وصف ما نسب لامرئ القيس بأنه موضوع مصنوع ، أما بيت علقمة فمعنى « عسعس » فيه هو أدبر ، إذْ قال :

حتى إذا الصبح لها تنفسا — وانجاب عنها ليلها وعسعسا

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا الكلمة قد وردت فيه مرة واحدة ومعناها فى الآية هو « أدبر » فقط ، قال تعالى : [والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس] .

٢ — يزعم ابن الأنبارى أن « النِدّ » معناه المثل والضدّ ، وقد حاول أن يفسر « أندادا » فى القرآن الكريم على المعنيين ، وفى هذا من التكلف ما فيه ، ذلك لأن الآيات القرآنية لا تحتمل إلا معنى واحداً ، قال تعالى :

« فلا تجعلوا لِلهِ أنداداً وأنتم تعلمون » .

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » .

وما رواه من شعر منسوب للبيد ولحسّان ، لا يستفاد منه إلا معنى واحد لكلمة « النِدّ » وهو المثل . قال لبيد :

أحمد الله فلا ندّ له   بيديه الخير ما شاء فعلْ

وقال حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بنِدٍّ   فشرّكما لخيركما الفداء

٣ — أليس من التكلف والتعسف أن نجعل « الإسرار » بمعنى الإظهار ، كما يقول ابن الأنبارى ، مفسراً الآيتين الكريمتين : [وأسروا النجوى الذين ظلموا] ، [وأسروا الندامة لمّا رأوا العذاب] على هذا المعنى ! ؟

إن الآيات الأخرى التى وردت بالقرآن مشتملة على هذه الكلمة لا تحتمل إلا معنى واحداً وهو ضدّ الإظهار :

« ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » .

« فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » .

« والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » .

إلى غير ذلك من آيات كثيرة .

٤ — نعرف أن المعنى الشائع لكلمة « البَيْن » هو الفراق ، ولكن ابن الأنبارى يزعم أن لها معنى آخر هو الوصل ، ويستشهد على هذا بقراءة من قرأ : « لقد تقطع بينُكم » ! ولكن القراءة المألوفة والمشهورة هى « لقد تقطع بينَكم » أى ما بينكم من صلة ، فلا تحتمل الكلمة تضاداً أو ما يشبه التضاد .

٥ — المشهور فى معنى « عفا المكان » هو درس ونسى أمره ، ولكن ابن الأنبارى يتصور لها معنى ضدياً بجانب المعنى الأصلى ، ويستشهد بقوله تعالى : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء » . ويفسر « حتى عفوا » هنا قائلا : أى كثروا !

ويظهر والله أعلم أن المعنى : حتى اندرس أمرهم ونُسى ، وحينئذ لا تضاد . أما حديث (أن تحفى الشوارب وتعفى اللحى) فليس معنى إعفاء اللحى تكثير شعرها كما يزعم ابن الأنبارى ، وإنما يكون بتركها وإعفائها من الإحفاء والقصّ .

٦ — حتى الكلمات المصحفة يتخذ منها ابن الأنبارى كلمات متضادة ، فيقول : إن « سمل » لها معنيان : أصلح بين القوم وفقأ عين فلان ! ! ويظهر أن « سمل » بمعنى أصلح بين القوم ليست فى الحقيقة إلا « شمل » بالشين ، وقد جاءت إلى المؤلف مصحفة فى شاهد من الشواهد .

كذلك قوله فى « برّد » بمعنى سخّن مستشهداً بقول الشاعر :

عافت الشرب فى الشتاء فقلنا   برّديه تصادفيه سخينا

ورواية البيت يجب أن تكون :

عافت الشرب فى الشتاء فقلنا   بلْ رِديه تصادفيه سخينا

٧ — مادة « قسط » تفيد معنى العدل ، وقد استعملت فى القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة هى ومشتقاتها بهذا المعنى . ولكنها استعملت اسم فاعل من الثلاثى فى سورة الجن للتعبير عن معنى مضاد للعدل ، قال تعالى :

« وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

على أن القرآن قد ورد فيه آيتان فى كل منهما « أقسطُ » بمعنى أعدل : « ذلكم أقسط عند الله وأقوم » ، « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . وأفعل التفضيل لا يكون إلا من الثلاثى ، فكيف تأتى أن يقول اللغويون

إن الثلاثى من هذه المادة لا يفيد معنى العدل !

ويظهر والله أعلم أن استعمال « القاسطين » بمعنى الظالمين ، ليس إلا تأدباً فى الخطاب أمام الله ، وتحاشياً لذكر كلمة الظلم أمامه سبحانه وتعالى . ويمكن أن تؤول الشواهد التى ساقها المؤلف للبرهنة على أن « قسط » بمعنى « ظلم » على هذا النحو من التأويل ، فمن بينها « قسطوا على النعمان » ، ومقام الكلام عن علاقتهم بملك عظيم كالنعمان يقتضى هذا الاستعمال .

٨ — وأخيراً يقال لنا إن « الجلل » معناه العظيم والقليل ، ويستشهد عادة للبرهنة على هذا بقول الشاعر :

كل شىء ما خلا الموت جللْ والفتى يسعى ويلهيه الأملْ

فالمعنى هنا : قليل حقير .

وبقول الآخر :

قومى همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفونْ جللا ولئن سطوت لأوهننْ عظمى

فدلّ الكلام على أنه أراد فلئن عفوت لأعفون عفواً عظيما ، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب صغير !

ولكننا حين نتأمل الظرف الذى قيل فيه هذان البيتان وما اكتنف قولهما من ملابسات ، نرى أن الشاعر يريد أن يعتبر العفو عن قتل أخيه أمراً بسيطاً إذا قيس بما سيترتب على وقوع الشحناء بين قومه ، من حرب أهلية توهنهم جميعاً وتذهب بقوتهم .

أما ابن سيده والسيوطى فقد اعتدلا فى اختيار الأضداد ، ولم يسرفا فى تلمس العلاقة بين الكلمات ، فجاء ما أحصياه نحواً من مائة كلمة .

والضدية نوع من العلاقة بين المعانى ، بل ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى . فمجرد ذكر معنى من المعانى ، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن ،

ولا سيما بين الألوان . فذكر البياض يستحضر فى الذهن السواد . فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء فى تداعى المعانى . فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة عن معنيين بينهما علاقة ما ، فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادين ، لأن استحضار أحدهما فى الذهن يستتبع عادة استحضار الآخر . فالتضاد فرع من المشترك اللفظي ، وعوامل تكوّن المشترك اللفظى فى اللغات وقد أشرنا إليها آنفاً ، تصلح أيضاً أن تكون عوامل الأضداد . فكلمة « الهاجد » معناها النائم والساهر ، وجاء فى القرآن الكريم « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » ، ولا يحتمل الفعل هنا إلا معنى واحدا وهو السهر ، غير أنه قد روى لنا أن المرقش يقول :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرّقنى وأصحابى هجودُ

فمعنى هجود فى شعر المرقش هو « نيام » لا نزاع فى هذا . فكيف نفسر وقوع هذا التضاد إلا عن طريق الأخطاء التى يمكن أن تنسب إلى الأجيال الناشئة . فقد كان للكلمة معنى واحد ، ولكن لقلة شيوعها فهمت فى بيئة من البيئات على معنى آخر، ونما هذا الفهم وذاع فى الجيل الناشىء، ثم أصبح معترفا به فى اللغة النموذجية الأدبية ، فاستعمل القرآن هذه الكلمة بمعنى ، واستعملها المرقش بمعنى مضاد للمعنى الأصلى . وقد تمّ مثل هذا التطور فى عصور الجاهلية قبل نشأة اللغة النموذجية وازدهارها . غير أنه من الممكن أن يضاف إلى تلك العوامل ما يأتى :

(١) التطير :

إن غريزة التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان التى تسيطر على عاداته فى التعبير إلى حد كبير . فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيء ، تشاءم من ذكر الكلمة الخاصة به ، وفر منها إلى غيرها . فجميع الكلمات التى تعبر عن الموت

والأمراض ، والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير وأوضح ما تكون هذه الغريزة بين النساء وفى الأوساط التى نالت حظاً ضئيلا من الثقافة . وأقرب المعانى إلى كلمات التشاؤم ، هى أضدادها من كلمات التفاؤل . لهذا عبّر فى اللغة العربية عن الأسود بالأبيض تجنباً لذكر لفظ السواد ، وعبّر عن المكان المخوف بالمخاطر ، بالمفازة . ومن ذلك ما جاء فى اللسان من أن [الماء العِدّ الكثير عند تميم والقليل عند بكر بن وائل].

ولا تختص بهذا قبيلة دون أخرى ، بل قد يجوز أن تعبر اللهجة الواحدة بلفظ واحد أساسه الخير ، عن الخير والشر . ويتوقف الأمر على قوة غريزة التطيّر بين أفراد القبيلة ، وما أصابوه من ثقافة .

(ب) التهكم :

ويلحظ هذا بصفة خاصة بين الشباب ، فهم لرغبتهم فى الخروج عن القواعد المألوفة فى التعبير ، وحبهم للتجديد فى الكلام ، وإظهار مهارتهم فى تخيّر الكلمات ، يلجأون أحياناً إلى التعبير عن الشىء بكلمة مضادة ، هازئين ساخرين . ويغلب أن يكون هذا النوع من التعبير بين الخاصة من الناس ، القادرين على التفنن فى القول ، وهو على كل حال يؤدى آخر الأمر إلى وقوع كلمات متضادة المعنى . ويعزى إلى هذه الظاهرة ، وقوع كلمات متضادة مثل (القشيب) التى تعبر عن « الجديد » فى غالب الأحيان ، وعن « الخلَق » فى القليل من الأحيان ، ومثل يا « عاقل » التى قد تقال للمجنون ، وكلمة « سليم » التى قد تقال للملدوغ ، وكذلك « لمقتُ » الشىء بمعنى كتبته فى لهجة عقيل ، وبمعنى محوته عند قبائل قيس .

ولا شك أن عاملى التطير والتهكم مرتبطان أحدهما بالآخر بعض الارتباط ، وأن التضاد فى معنى الكلمة قد يفسر تبعاً لعامل التطيّر مرة ، ويفسر تبعاً لعامل

التهكم مرة أخرى ، لأن الظروف الاجتماعية التى مهدت لتطور معانى الكلمات ، كثيرة ومعقدة ، وليس من السهل تعيين الملابسات التى اكتنفت هذا التطور فى كل الحالات فمثلا :

١ — يقول ابن الأنبارى إن « المسجور » معناه المملوء والفارغ . وقد استعملت هذه المادة فى القرآن الكريم مرتين وفى كل منهما كان معناها الامتلاء ، قال تعالى :

« وإذا البحار سجرت » ، « والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع » .

ويظهر أن المعنى الأصلى هو المملوء ، ثم اتخذت الكلمة للتعبير عن الفارغ تفاؤلا أو تفاديا لذكر ما يشير إلى الفراغ وانقطاع الخير ، مما يؤدى إلى الحاجة والعوز .

ولنا فى الاستعمال العامىّ حين ينادى عمّال المقاهى قائلين « خذ المليان » ، ما يوضح هذا بجلاء .

ومع هذا فقد يكون مبعث استعمال المملوء فى الفارغ ، التهكم والسخرية .

٢ — ويمكن أن يقال مثل هذا فى « الناقة الحافل » التى قيل لنا عنها إنها تستعمل إذا ذهب اللبن من ضرعها فلم يبق منه إلا اليسير ، وكذلك إذا امتلأ ضرعها باللبن . ويبدو أن المعنى الأصلى هو امتلاء الضرع باللبن ، وأن « الناقة الحافل » حين تستعمل فى القليلة اللبن ، تهدف إلى التفاؤل والتماس الخير . على أنه من الممكن أن نعكس الأمر ونقول إن المعنى الأصلى المشهور هو قلة اللبن ، ثم استعمل فى كثرة اللبن درءاً للعين ومنعاً للحسد . وقد كان العرب يصفون الفرس أحياناً بأنها شوهاء ، مع أنها فى الواقع جميلة . ويشبه هذا ما نسمعه أحياناً من أفواه العامة حين يتجنبون وصف الطفلة بالجمال خوفاً من الحسد فيقولون « يا بتّ يا وحشة ! » .

٣ — استعمل الفعل « عزّر » فى القرآن الكريم ثلاث مرات بمعنى يناصر ويقوّى ويؤيد ، ومع هذا فيستعمل الفقهاء مصدر هذا الفعل وهو

« التعزير » كنوع من العقوبة . ويظهر أن معنى الفقهاء أحدث ، وهو من قبيل التفاؤل ، ومثله فى هذا مثل استعمال كلمة « التأديب » فى العقاب . وذلك لأن من فلسفة العقوبة أن تعد نوعاً من التهذيب والتأديب لا الانتقام أو الشماتة ، فكأن فى العقاب طريقاً لنصرة المرء على نفسه الأمارة بالسوء ، وفيه مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، وفى هذا من النصرة والتأييد ما فيه .

٤ — تثبت المعاجم لكلمة « المولى » عدة معان منها : السيد والعبد وابن العمّ والحليف والجار والصهر ... الخ .

ولذلك نشهد فى هذه الكلمة مثلا طيباً لتطور المعنى إذ يظهر أن المعنى الأصلى لهذه الكلمة هو السيّد المتنعم صاحب الفضل ، ثم أطلق على العبد المخلص المتفانى فى خدمة سيده ، وذلك من قبيل التفاؤل والفرار من وصف العبد المخلص بصفة خسيسة قد يشتم منها الرق والعبودية .

ولا شك أن العرب فى الجاهلية والإسلام كانوا يفرقون بين العبيد والموالى فى معاملتهم والنظرة إليهم . ولسنا نعلم نصاً قديماً استعمل فيه كلمة « المولى » فى مجال الذم أو الحط من قدره .

ثم تفرع من معنى « السيّد » تلك المعانى الأخرى كابن العم الذى هو عصَبة ومصدر نفوذ وقوة فى الأسرة ، وتفرع عن فكرة الخادم المخلص السموّ به فى بعض الأحيان إلى مرتبة الحليف والجار والصهر .

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة « المولى » بمعنى السيّد فقط ، ولكنه استعمل الجمع « الموالى » بمعنى التابعين الملحقين بالمرء من إماء وحلفاء .

(ج) الإبهام فى المعنى الأصلى وعمومه :

قد يؤدى إلى التضاد أن المعنى الأصلى للكلمة يكون عاماً غير محدود ، ثم يتحدد معناه مع الزمن ، ولكن فى تطوره وتحدد معناه قد يتخذ طريقين متضادين ،

ويترتب على هذا أن نجد الكلمة الواحدة يتخصص معناها فى لهجة من اللهجات بشكل خاص يضاد الشكل الذى اتخذته الكلمة فى لهجة أخرى . وخير مثل لهذا قصة الملك الذى قال للأعرابى « ثِبْ » يريد اجلس ، فوثب الأعرابى ودق عنقه ، لأنه لم يكن يعرف معني « لوثب » إلا طفر .

فالتضاد هنا بين معنى «وثب» فى لهجة أهل الشمال ، ومعناها فى لهجة حمير ، نشأ عن تحدد المعنى وتخصصه بشكل خاص فى كل لهجة . والكلمة العبرية التى تناظر الفعل (وثب) هى « يشب » ، وليس لها إلا معنى واحد ، وهو جلس أو أقام ، فلعل المعنى العام الذى كانت تدل عليه هذه الكلمة في اللغات السامية ، هو الانتقال من حال إلى حال ، وتغير الوضع .

وقد تخصص هذا المعنى العام فى اللهجات الشمالية فأصبح يعبر عن القفز ، فى حين أنه أصبح يعبر عن الجلوس فى غيرها من اللهجات .

ولعل كلمة « السدفة » التى روى أنها كانت تعبر عن الظلمة فى لهجة تميم ، وعن الضوء بين قبائل قيس ، كانت شيئاً من هذا . فقد كان معناها العام أن تعبر عن حالة بين الظلمة والنور ، ثم تحدد معناها فى تلك اللهجات فأدى إلى التضاد .

ومن الكلمات المشهورة التى كان لها معنى عام ثم تخصص فى بيئتين مختلفتين فاتخذ فى البيئة الأولى معنى خاصاً ، وفى البيئة الثانية معنى مضاداً لذلك الذى شاع عند أبناء البيئة الأولى : —

١ — « الصريم » بمعنى الليل والنهار ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين واحد وهو القطع والفصل .

٢ — « القرء » بمعنى الطهر عند أهل الحجاز ، والحيض عند أهل العراق . وقد بنى الفقهاء أحكاماً مختلفة تبعاً لاختلاف المعنى ، مما هو مشهور فى كتب الفقه .

ويظهر أن المعنى العام للكلمة هو « الوقت » ، ثم تخصصت فى البيئتين على معنيين مختلفين . ومن هذا المعنى العام اشتق « القرأة » بمعنى وقت المرض

فيقال للمسافر : « ذهبت عنه قرأة الحجاز أو قرّته » ، أى تبين أنه خال من مرض الحجاز ، وقد قدروا هذه المدة بنحو ١٥ يوماً .

٣ — يثبت معظم اللغويين للفعلين « باع واشترى » معنى التضاد ، فيقولون إن « باع » قد تستعمل بمعنى اشترى ، وإن اشترى قد تستعمل بمعنى باع .

والحقيقة أن هذين الفعلين من الكلمات المترادفة ، وأصل معناهما « المبادلة » ، وهو معنى عام ينطبق على الشراء والبيع ، ثم تحدّد المعنى مع الزمن لكل من الفعلين ، فغلب استعمال الشراء فى معناه المألوف ، والبيع فى ضد هذا المعنى . ويمكن أن تفسر الشواهد التى يشتم منها أن « باع » بمعنى اشترى ، أو أن اشترى بمعنى باع ، على هذا المعنى العام الأصلى . ويتضح لنا رجحان هذا الرأى حين نذكر طريقة البيع والشراء عند العرب القدماء ، فلم تكن على الصورة التى نألفها الآن فى غالب الأحيان .

ولسنا بحاجة إلى كثير من التأويل أو التخريج حين نقصر « باع » على المعنى المعهود لنا ، واشترى على ضد هذا المعنى ، فى جميع الآيات القرآنية التى ورد فيها هذان الفعلان ، وليس هناك من صعوبة حين تفسر تلك الآيات على هذا الأساس .

هذا ولا ننسى أن للمصادفة دخلا فى تكوّن بعض الأضداد ، فقد يترتب على التطور الصوتى فى كلمة ما ، أن تصبح مماثلة فى لفظها لكلمة أخرى مضادة فى المعنى . فكلمة (الجون) التى تعبر عن الأبيض ، قد انحدرت من أصلين لا علاقة بينهما ، إذ يظهر أن (الجون) التى تعبر عن السواد ، قد اشتقت أولا من الفعل (جنّ) بمعنى ستر ، وهو الذى يستعمل فى مثل (جنّ الليل) أى أظلم . فهذه المادة تعبر أساسياً عن معنى الظلمة ، ثم تطورت أصواتها بتأثير عامل المخالفة « Dissimilation » ، فقلب أحد النونين إلى صوت مشابه وهو الواو[1] .

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٧١ .

وبذلك التبس الجون المنحدر من مادة « جنّ » ، بالجون التى تعبر أصلا عن النور .

وانظر أيضاً إلى كلمة (أكمتَ) التى روت المعاجم أنها تعبر عن معنيين متضادين هما : انطلق مسرعاً ، وقعد !

ويظهر أن تطور الفعل « قعد » فى أصواته بأن انتقل مخرج القاف إلى الأمام قليلا ، فصادف مخرج الكاف ، وبأن همست الدال فأصبحت تاء ، كل هذا أدى إلى أن صار الفعل (قعد) (كمت) ، دون تغير فى معناه ، ثم التبس هذا الفعل بفعل آخر من أصلى مختلف وهو (أكمت) بمعنى انطلق مسرعاً (١) .

ومما يبرهن على أن التطور الصوتى قد يوقع اللغويين فى اللبس ، ويجعل بعضهم ينسب للكلمات التضاد فى المعنى ، ما ذكره ابن الأنبارى من أن « القانع » معناه الراضى بما هو فيه والسائل المحتاج ! ! ثم يحتج بقوله تعالى :

« وأطعموا القانع والمعترّ » مفسراً القانع هنا بالسائل !

ويظهر والله أعلم أن معنى الآية : أطعموا من لا يسأل حياء منه ، لأنه قنع بما هو عليه وما قسم له ، وأطعموا أيضاً من يسأل بتلميح دون تصريح وهو المعترّ .

أمّا ما يذكره اللغويون من تفرقة بين القنوع والقناعة ، مؤكدين لنا أن الأولى تعنى الخضوع ، والثانية تعنى رضا المرء بما قسم له ، فليس له من سبب سوى التطور الصوتى فى مادة « خنع » إلى « كنع » أى أن الصوت الرخو وهو الخاء قد تطور إلى نظيره الشديد وهو الكاف فى بيئة بدوية . ثم جاء جامعو اللغة وذكروا لنا أن كلا من « خنع » و « كنع » يفيد ذلّ وخضع . ومصدر « كنع » هو « الكنوع » بمعنى الذلة والخضوع ، ثم اختلط الأمر بين القاف

(١) انظر مقالا مسهباً عن الأضداد للدكتور منصور فهمى صفحة ٢٨٨ الجزء الثانى من مجلة المجمع اللغوى .

والكاف ، وترتب على هذا اختلاط الفعلين « قنع » ، « كنع » ، والحقيقة أن مصدر « قنع » هو القناعة ، ومصدر « كنع » هو الكنوع . فقول القائل « أعوذ بالله من الخنوع والقنوع » ، لا يعدو أن يكون تكراراً للفظ الواحد .

وبهذا يمكن أن نفسر كل الشواهد التى يشتم فيها أن « القنوع » يعنى الذلة والسؤال .

نكتفى بهذا القدر فى الحديث عن الأضداد ، لأن ما روى عنها من الشواهد يعوز أكثره النصوص الصريحة القوية . وحين نحلل أمثلة التضاد فى اللغة العربية ، ونستعرضها جميعاً ، ثم نحذف منها ما يدل على التكلف والتعسف فى اختيارها ، يتضح لنا أن ليس بينها ما يفيد التضاد بمعناه العلمى الدقيق إلا نحو عشرين كلمة فى كل اللغة . ومثل هذا المقدار الضئيل من كلمات اللغة لا يستحق عناية أكثر من هذا ، لا سيما وأن مصير كلمات التضاد إلى الانقراض من اللغة ، وذلك بأن تشتهر بمعنى واحد من المعنيين مع مرور الزمن .

الفصل السابع

اللهجات الحديثة

تحدثنا فى مقدمة هذا الكتاب عن أهمية اللهجات الحديثة ، فى دراسة اللهجات القديمة . وهنا سنعرض طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ، ولا سيما اللهجة النموذجية فيها ، وهى اللهجة القاهرية ، موضحين بعض ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات قديمة ، وما ظهر فيها من صفات خاصة ، نمت واستقلت مع الزمن . وسنقتصر فى هذه الإشارة العابرة على بعض التطورات الصوتية فى هذه اللهجة ، وعلى تطور معانى بعض الكلمات . ولسنا نطمع من هذا الفصل إلا فى أن نوضح ما يمكن أن تكشف عنه دراسة اللهجات الحديثة ، فلعل فى مراحل تطورها ما يلقى ضوءاً على ما غمض من تطورات اللهجات القديمة وخصائصها .

— ١ —

الناحية الصوتية

(١) فقدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصوات العربية القديمة ، أمثال : الثاء ، والذال ، والظاء ، والقاف ، واستبدلت بها على الترتيب : التاء ، والدال ، والضاد ، والهمزة أو الجيم . وقد اطرد هذا اطراداً يدعو إلى الدهشة فى كل الكلمات . والذى يلحظ فى هذا التغير بصفة عامة ، هو الانتقال ببعض الأصوات الرخوة القليلة الشيوع فى اللغة الفصيحة ، إلى نظائرها من أصوات الشدة

(ب) مالت الأصوات المطبقة إلى الاستفال فى لغة الكلام المصرية فى معظم الأحيان ، إذ نلحظ أن المصريين بصفة عامة ، ينطقون الصّاد سيناً ، والطاء تاء ، والضاد دالا ، والظاء زاياً ، وهكذا مثل :

صقع : « سكع فلانا قلماً »

(غضر عنه) : « غدر على البيعة » أى انصرف .

« لدعه قلماً » : ربما جاءت من الاطح . مدغ : مضغ .

والذى نتصوره بصدد هاتين الظاهرتين ، أنهما من التطورات الحديثة التى تمت بعد انتشار اللغة العربية فى بيئات مختلفة نائية ؛ أو ربما تمّ بعضها فى العصور الإسلامية الأولى .

على أنا نترك البحث فى علة هذا التطور لدراسة أوفى فى اللهجة المصرية ، ونكتفى هنا باستعراض بعض تلك التطورات التى تمت فى العصور المتأخرة ، والتى كونت صفات خاصة باللهجة المصرية ، تميزها عن غيرها من اللهجات الحديثة ، وتلك هى الصفات التى تكونت بعد مرور أجيال كثيرة على اللغة العربية فى البيئة المصرية ؛ وحين أصبح للبيئة المصرية كيان مستقل . فقد جاء زمن على لهجة الكلام بمصر ، تركت فيه دون نظر فيها أو عناية بها ، يتحدث بها الناس فى حديثهم العادى ، وفى خطابهم العام ، دون تدوين لها أو تسجيل لما يعرض لها من تغير أو تطور . وقد صرفت اللغة الفصحى أنظار الناس عن لغة كلامهم ، فلم يعنوا بما عرض لها من تطور مع الزمن ، ولهذا اتخذت فى الأفواه أشكالا وصوراً تباينت باختلاف الأجيال والعصور . والناس لا يشعرون ولا يلحظون تلك الفروق وإنما وجهوا كل عنايتهم إلى لغة الكتابة وهى اللغة الفصحى ، فإذا انحرف الطفل فى الكلام بلهجة أبيه ، لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحراف ، والإبقاء على صورة معينة فى الكلام . فأخذت اللهجة مجراها الطبيعى ، وتغيرت جيلا بعد جيل ، وقد أدى كل هذا إلى ما نلحظه من فروق خطيرة بين لهجة الكلام

واللغة الفصحى . واتسع لهـذا ، البون بين لهجة الحديث و بين لغة الـكتابة ، مما لا نظير له فى أية لغة من لغات العالم . فلم تجد اللهجة المصرية رقيباً عليها أو حسيبا ، فانسابت خفية عن الأنظار تتغير فى أفواه الناس ، دون أن يلفت هذا نظر أحد ، وقد ساعد هذا التطور الخطير أنها لم تكتب ولم تسجل ، لأن الـكتابة فى بعض الأحيان من عوامل استقرار اللغات ، ومنعها من أن تقع نهباً لعوامل التطور اللغوى ، تفعل بها ما تشاء ، وهذا هو السر فيما نلحظه من أن التغييرات فى اللهجة المصرية ، يمكن أن تعزى فى غالب الأحيان إلى أخطاء كلامية بين الناشئين ، تركت دون إصلاح ، أو لفت نظر ، فتراكمت و بعدت عن الأصل ، بحيث أصبح من العسير إرجاعها إلى ذلك الأصل إلا بجهد ومشقة . فنحن الآن ننكر كثيراً من كلمات اللهجة المصرية ، غير مدركين أن لها أصلا عربياً صحيحاً ، وأنها تطورت فى الأفواه دون عناية بإصلاحها من بادئ الأمر . إذ اتجهت كل العناية إلى لغة الـكتابة ، وكان المشتغلون بها قليلين جداً ، وتركت الـكثرة الغالبة من الناس يتخبطون فى حديثهم ، فتنتقل الـكلمات من صورة إلى أخرى دون أن تستقر على حال ، كل ينطق كما يهوى ، و يقيس ما لم يعرف على ما عرف ، وتتوارث الأجيال أخطاء من سبقوهم .

فانظر مثلا إلى كلمة مثل « ألثغ » التى تطورت فيها الثاء أولا إلى تاء كمعظم الثاءات وصارت « ألتغ » فى عصر من العصور ، وأخيراً جهر بهذه التاء فأصبحت دالا ، وصارت الـكلمة على الصورة التى نألفها الآن وهى « ألدغ » .

نشير بعد هذا إلى أهم الاتجاهات الصوتية فى لهجة الـكلام المصرى ، فنلخصها فى العناصر الآتية :

(١) الميل إلى همس كثير من الأصوات ، وهو أمر طبيعى فى بيئة مستقرة كالبيئة المصرية ذات الحضارة منذ القدم .

فانظر مثلا إلى كلمة مثل « اتـكرّع » ، التى لا نشك فى أنها انحدرت من

« تجرع » ، بعد أن همست الجيم فأصبحت كافاً . ومثل « دهس » التى أصلها من « الدعْس » وهو شدة الوطء . ومثل « شحت » التى أصلها من « شحذ » ، فمرت فى مرحلتين قبل أن تصل إلى الصورة التى نعهدها — إذ قلبت أولا الذال ككل الذالات إلى دال ، وأتى عليها عهد فى لهجة الكلام كانت « شحد » ثم همست الدال فأصبحت « تاء » . ومثل « نكش » التى نرجح أنها من « نجش » الصيد أو كل شيء مخبوء بمعنى استثاره . وهكذا نجد كلمات كثيرة قد همست بعض أصواتها فى لهجة الكلام . على أننا فى القليل من الأحيان نلحظ فى اللهجة المصرية عكس هذه الظاهرة مثل « اتعْتَع » التى هى من « التحتحة » بمعنى الحركة ، ومثل « غفير » التى هى فى الأصل « خفير » ، ففى هذه الكلمات نجد اللهجة المصرية قد جهرت ببعض الأصوات المهموسة فى الكلمات العربية الفصيحة . ويظهر أن هذا النوع الأخير من التطور قد جاء إلى اللهجة المصرية مع بعض النازحين إليها من البدو الذين يميلون إلى جهر الأصوات ، أو أن بعض الطبقات من الناس فى مصر كانوا أميل إلى صفات البداوة وإلى البعد عن الحضارة كأوساط العوام فى المدن ورعاعها .

(ب) أخطاء تبدأ مع الأطفال والناشئين ، ثم تنمو بينهم وتكون جزءاً من لهجاتهم وهم كبار ، ثم يورثونها من بعدهم . وربما كان هذا العنصر أوضح العناصر فى تطور الكلمات وأصواتها فى اللهجة المصرية (١) :

١ — فهناك كلمات قلبت فيها الباء ميما مثل « تبختر » ، أصبحت فى لهجة الكلام « اتمختر » ، وهناك العكس من هذا مثل « متاع » صارت تلك الكلمة الشائعة « بتاع » ، ومثل «حملق» صارت « بحلق » مع تغيير فى ترتيب الأصوات ، ومثل « خمش » التى جاءت منها « خربش » بعد زيادة الراء .

وهناك كلمات قلبت فيها « الفاء » إلى « باء » فى لهجة الكلام ، مثل

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٤٥ .

« سفط » التى صارت « سبت » ، ومثل « قف شعره » نقولها الآن فى الكلام « قبّ شعره » ، ومثل « فرطش » التى تستعمل فى الفصحى بمعنى « فرطش الجمل » أى تفجج للبول ، صارت فى لهجة الكلام « برطش » .

٢ — من بين الأخطاء التى قد تعرض للناشئين ، تغير فى ترتيب أصوات الكلمات ، وهو ما وقع بين العربية الفصحى ولهجة الكلام المصرية مثل : بحلق : حملق . « بعزأ » : جاءت من زعبق الشىء من يدى تبذر وتفرق . « الزعل » : جاءت من العلز بمعنى الضجر . ومثل « فعص » : التى انحدرت من فصع الرطبة إذا أخذها بأصبعه فعصرها حتى تنقشر . ومثل « أهبل » : أبله . جنزبيل : زنجبيل . جوز : زوج . خفس : خسف .

٣ — كذلك يميل الأطفال فى نطقهم إلى تكرار المقاطع أو الأصوات . وقد أدى هذا إلى أن جاءت الكلمة المولدة « التشويش » من « التهويش »[١] . وجاء الفعل « جرجر » من جرّ .

٤ — وكذلك قد يخطىء الطفل فى تقسيم العبارة إلى أجزائها الصحيحة ، و يحدث هذا عادة فى العبارات الكثيرة الشيوع . وقد لوحظ هذا فى لهجات كثيرة من لهجات اللغات الأوربية . ويمكن أن نعزو لهذا الخلط فى تقسيم العبارة ، ما جاءتنا به لهجة كلامنا من أمثال الفعل « جاب » الذى لا نشك فى أنه انحدر عن الاستعمال الصحيح « جاء بكذا » ، فخيل للطفل أن « الباء » جزء من الفعل « جاء » ، ولا سيما أنه كان ينطق به فى لهجة الكلام بغير الهمزة . ومثل « عقبال » التي لا نشك فى أنها من الاستعمال « عقبى لكم » ، فالتبس الأمر على السامع وجعل « اللام » فى « لكم » جزءاً تنتهى به الكلمة « عقبى » ، وبهذا أخرج لنا كلمة « عقبال » .

---

(١) جاء فى قاموس المحيط (والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ووهم الجوهرى والصواب التهويش — الخ) .

٥ — هذا وقد يصعب صوت « الراء » على كثير من الأطفال فيقلبونها إلى « اللام » فى كثير من الأحيان . وقد ترتب على هذا وجود كلمات عربية صحيحة متحدة المعنى رويت مرة « بالراء » وأخرى « باللام » .

وقد حدث مثل هذا فى لهجة الكلام المصرية ، إذ تطورت فيها بعض الكلمات العربية الصحيحة التي اشتملت على « الراء » مثل :

« الخدَر » بمعنى الشلل أو نوع منه ، نسمعها الآن فى لهجة الكلام « خدل وخدلان » .

ومثل « سرط » اللقمة بمعنى ابتلعها ، أصبحت الآن فى لهجتنا « « زلط » ، بعد أن قلبت « الراء » « لاماً » وجهر « بالسين » فأصبحت « زاياً » .

ومثل « رهَط الطعامَ » صارت فى لهجة كلامنا « لهط » .

ومثل « دحرج » التى تطورت فى اللهجات القديمة إلى « دعلج » ، بأن جهر « بالحاء » فأصبحت « عيناً » و بأن قلبت « الراء » « لاما » ، وهكذا رويت لنا الكلمتان فى المعاجم العربية على أنهما صحيحتان ، ثم تطورت الأخيرة منهما فى لهجة كلامنا إلى « دألج » .

٦ — قد يخطىء الطفل فى قياسه ، وهنا يولد لنا كلمات كثيرة بعيدة عن الصواب ، فأحياناً يشتق وزناً للصفات لا وجود له فى الفصحى مثل « دبلان » بدلا من « ذابل » ، ومثل « مرشوم » بدلا من « مرشم » التى هى من أرشم الشجر أى ظهر ثمره ، ومثل « غرقان » بدلا من غرِق ، ومثل « رجل لُطخ » بدلا من « اللطِخ » وهو القذر الأكل ، ومثل « رِحِق » بدلا من « حاذق » .

وليس هذا بغريب لأننا قد نسمع بعض أطفالنا يقولون « البلحة لأحمرة » بدلا من « حمراء » .

٧ — كذلك قد يخلط الناشئون بين الجمع والمفرد فيستعملون بعض الجموع ، التي جاءت صيغتها شبيهة بصيغة المفرد على أنها مفردات مثل :

برام . حق . كراس . زناد

فهذه كلها جموع فى اللغة الفصحى ، ولكنها تستعمل فى لهجة الكلام مفردات . أما مفرداتها الصحيحة فقد أهملت وهى على الترتيب :

بُرمة . حُقة . كرامة . زند

ومما يمكن أن يعزى إلى القياس الخاطىء اختلاف الحركات فى بنية الكلمة بين لهجة الكلام واللغة الفصحى .

فنحن الآن نسمع الكلمات الآتية مفتوحة الأول فى لهجة كلامنا ، وذلك لأن بعضها قد قيس على البعض الآخر :

خرطوم . شمروخ . طرطور . أزميل . برميل . بطيخ . خنزير . قنديل . كبريت . منديل . مسطرة . مروحة . مدخنة .

وكذلك نسمع كلمات مضمونة الأول مثل :

خلخال . قبقاب . غربال .

وأخرى مكسورة الأول وهى كثيرة جداً مثل :

جبة . حِلبة . حِجة . علبة . حزمة . حلم . عش . دهن . نجل . دلو .

وربما يسبب الانسجام بين الحركات أن يكسر الحرف الأول من بعض الكلمات مثل :

جميز . زبيب . كبير . جديد

٨ — لعبت ظاهرة المخالفة Dissimilation فى لهجة كلامنا دوراً هاماً ، كما ظهر أثرها فى اللغة الفصحى (١) . فقد تخلص الناس من إدغام المتماثلين بقلب أحدهما إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهى « الميم واللام والنون والراء وربما العين أيضاً » ، وتلك هى الأصوات التى سماها القدماء بالأصوات المتوسطة . فانظر مثلا إلى الفعل الفصيح « برّق بصره » أصبح فى لهجة كلامنا « برنأ » .

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٣٩ .

وكذلك الفعل « تفجّس » الذى يعنى تكبَّر وتعظم ، صار فى لهجة الكلام « تفنجص » ، وكذلك الفعل « كبَّل » صار « كعبل » .

وربما زيدت هذه الأصوات على بنية الكلمات للمبالغة فى معناها مثل : « شرمط الورق » التى جاءت من الفعل الفصيح « شرط » . ومثل « طلس الكتابة » جاءت من « طلس » الكتاب محاه ليفسد خطه . ومثل « غطرش » التى تعنى فى لهجة الكلام تجاهل ، قد جاءت من « الغطش » وهو ضعف البصر . ومثل « خرشم » التى جاءت من « خشم » الأنف أى كسره .

٩ — هذا وقد شاع فى لهجة كلامنا تلك الأفعال الرباعية التى تشتمل على مقاطع متكررة ، فى حين أن بعض الصيغ القديمة للأفعال قد تلاشت ، ولم تعد تسمع فى لهجة الكلام المصرية :

فصيغة « أفعلَ » لا نكاد نعثر عليها فى لهجة الكلام ، بل حلّ محلها صيغة « فعّل » أحياناً أو صيغة الرباعى المكررة الأصوات . فانظر مثلا إلى الأفعال العربية الصحيحة : « ألحم » الرجلُ بالمكان أى أقام ولم يبرحه ، و « أرشم » الشجر أى أخرج ثمره ، « أسبط » الرجل أى انبسط على الأرض ، و « أنعشه » الشراب .

فقد صارت هذه الأفعال فى لهجة الكلام على الترتيب :

تلحم . اترشم . سلبط . نعنش .

وكما أثرت العوامل المتقدمة فى التغيرات الصوتية للهجة الكلام ، قد أثرت أيضاً فى اللهجات العربية القديمة مما أدى إلى رواية كثير من الكلمات الفصيحة مرة « بالميم » وأخرى « بالباء » ، أو مرة « بالراء » وأخرى « باللام » ، أو مرة بالأصوات المجهورة وأخرى بمهموسها ، أو مرة بأصوات الإطباق وأخرى بنظائرها من أصوات الاستفال . كذلك روت المعاجم كلمات متحدة المعنى والأصوات ، ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف ، وكذلك رويت لنا كلمات

يجوز فتح أولها وكسره أو فتحه وضمه ، بل أحياناً تنص المعاجم على التثليث في مثل تلك الكلمات وهكذا .

فما حدث من تطور صوتي في لهجة كلامنا ، حدث مثله في اللغة الفصحى في معظم الأحيان ، ولكن الكلمات قد تشقى وتسعد كالإنسان !

فتلك التطورات الصوتية التي تمت في العصور التي سماها الرواة بعصور الاحتجاج ، قد اعترف بها ، وأقرتها المعاجم ، وعدّتها من الكلمات الفصيحة ، في حين أنها رفضت نفس التطور الصوتي في العصور التي تلت هذا ، وذلك رغبة في الوقوف باللغة العربية عند حدود العصور الأولى للاسلام ، ظناً منهم أن التطورات الصوتية القديمة كانت من فعل الأعراب الفصحاء أصحاب اللغة ، ولم يدر بخلدهم أنه تطور طبيعي للأصوات ، سواء حدث في العصور القديمة أم الحديثة ، وأن الأعراب القدماء لم يعمدوا إليه عمداً ، أو قصدوه في كلامهم وهم يشعرون به . ولو قد قدر لتلك الكلمات العامية التي ذكرناها هنا أن يتقدم بها الزمن وأن يتم تطورها الصوتي فيما سموه عصور الاحتجاج ، لاستحقت من الرواة كل عناية ، ولرووها في معاجمهم ، وأصبحت فصيحة مقبولة .

على أن لهجة كلامنا قد اختصت ببعض التطورات الصوتية التي لا نعرف لها نظائر في تطورات اللهجات القديمة ، مثل عنايتها بتلك الأفعال الرباعية المتكررة المقاطع . فقد ملئت بها لهجة كلامنا ، واتخذت في أفواهنا طريقاً خاصة ، لا نظير لها في غيرها من اللهجات العربية القديمة .

وتلك الأفعال تتكون من مقطعين ساكنين[1] ، ونلحظ أن المقطع الأول منهما مفتوح دائماً ، في حين أن المقطع الثاني تتوقف حركته على الأصوات المجاورة : فأحياناً نراه مفتوحاً وذلك إذا جاوره أحد الأصوات الآتية :

الظاء . الصاد . الضاد . الطاء الراء . الغين . الخاء . الحاء . العين .

(١) انظر معنى المقطع الساكن والمقطع المتحرك في كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٨٧ .

فى حين أنا نراه مكسوراً مع باقى الأصوات الهجائية .

ولهذه الأفعال الرباعية أشكال عدة فى لهجة كلامنا .

(١) فأحياناً يكون المقطعان متماثلى الأصوات مثل :

جرجر . تكتك . بحبح . بربر . بصبص . بسبس . تعتع . تفتف . تلتل . تمتم . تنتن . حتحت . رجرج . رخرخ . رصرص . رطرط . رعرع . رمرم . زحزح . زعزع . زغزغ . زلزل . زمزم . سخسخ . سلسل . سمسم . شبشب . شرشر . شمشم . ضحضح . ضعضع . طبطب . عضعض . فتفت . فلفل . كشكش . لحلح . لخلخ . لفلف . لملم . مصمص . مضمض . نخنخ . نسنس . نغنغ . وسوس . وشوش .

(٢) وأحياناً يتكرر صوت واحد من أصوات الكلمة ، بحيث إما أن يكون الصوت الأول والثالث متماثلين مثل :

بربش . جنجل . رهرط . سمسر . زمزأ . كركب . محمض . مرمط . مسمر . مرمغ . نعنش .

أو بأن يكون الصوت الثالث والرابع متماثلين :

بقشش . دغشش . زقطط . عكنن .

(٣) وأحياناً يتكون الفعل الرباعى من أصوات مختلفة ، ولكن أحد هذه الأصوات يكون فى غالب الأحيان من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين مثل :

برتع . بربأ . طرشق . حمرأ . خربش . درمغ . سلطح . سمكر . شلفط . زنهر . زمجر . زروط . عربد . عرقص . هرول . مرجح . بعزأ . بهدل . بزوط . بحلق . طلسق . شعبط . شعلق . شقلب . شعوط . غتلم . فشخر . فشكل . لخبط . نخفن . لغمط . نغبش .

— ٢ —

تطور المعـــانى

أشرنا عند التحدث عن الترادف إلى تطور الدلالة ووقوعه فى اللهجات القديمة ، مما أدى إلى تلك الظاهرة التى نسميها بالترادف .

وربما كان خير مثل نسوقه هنا لنبين إمكان تطور المعانى فى كل لهجة ، ما حدث لـكلمات كثيرة عربية الأصل ، وذات معان خاصة فى اللغة الفصحى ، من تطور معانيها بلهجة كلامنا . فهى أمثلة حية ترينا كيف اختلفت معانيها بفعل تلك العوامل التى تحدثنا عنها آنفا .

وقد يصعب علينا إدراك تطور المعانى فى اللهجات القديمة ، لبعد العهد بيننا وبين الزمن الذى تم فيه هذا التطور ، ولجهلنا التام بتاريخ الـكلمات العربية قبل الإسلام ، ولـكنا حين نتتبع معانى كثير من الـكلمات العربية الأصل ، ونقارنها بما صارت إليه فى لهجة كلامنا ، نستطيع بسهولة ، أن ندرك كيف يمكن أن يتطور معنى الـكلمة ويتغير .

ونحن عادة نرفض المعانى الحديثة ونسميها مولدة ، وننـكر عليها فصاحتها ، لا لسبب سوى أن الزمن قد تأخر بهذا التطور ، فجاء بعد ما سماه الرواة بعصور الاحتجاج .

ولولا أننا نتقيد بالمعانى القديمة ، ونقف عندها لا نعترف بأى تغيير يلحق معناها ، لقبلنا المعانى المولدة ، وعدّت من صميم الـكلام الفصيح ، إذ ليست فى الحقيقة بدعاً فى التطور اللغوى ، ولـكن كل ما فيها من عيب فى نظر الرواة ، أنها جاءت بعد فوات الأوان . فلتمسكنا بالمعانى القديمة ورغبتنا فى التقيد بها ننظر إلى المعانى المولدة شزراً ، ونتحاشاها فى أساليبنا الجدية . بل لقد أبقت بعض

الكلمات العربية على معانيها القديمة واحتفظت بها ، ومع هذا فقد تحاشاها الأدباء ونسبوا إليها صفة العامية ، فأصبحت مبتذلة مثل : « خشّ » بمعنى دخل ، ومثل « مقشة » بمعنى مكنسة ! !

وقد اتخذت بعض الكلمات المولدة طريق التخصص فى معانيها مثل :

« باش » التى كانت تعنى اختلط ، فأصبحت الآن فى لهجة كلامنا تعنى اختلاط بعض المواد بالسوائل . ومثل « بطحه » التى كانت تعنى ألقاه على وجهه ، وتستعمل الآن مرادفة للكلمة العامية « عوّر » ، لأن من مستلزمات البطح فى غالب الأحيان « التعوير » . ومثل « حوّش » التى كانت تعنى جمع مطلقاً ، فتخصصت فى لهجة كلامنا بجمع المال . ومثل « لحِاف » التى تخصصت الآن بنوع خاص مما يلتحف به ، ومثل «رَبْع» التى تخصصت بنوع خاص من الدور.

ولقد لعب المجاز دوراً هاماً فى تطور المعانى لبعض الكلمات العامية مثل :

« الهمَج » التى كانت تعنى البعوض ، فأصبحت الآن تعنى فى لهجة كلامنا الفوضويين من الناس . ومثل « جيب القميص » التى كانت تعنى فتحة القميص ، فأصبحت تستعمل الآن فى المعنى المعروف المرادف للكلمة العامية « سيّالة » . ومثل « رصرص » التى كانت تعنى ثبت بالمكان فاستعملت بعد ذلك للشعور بالبرد .. ومثل « سفرة » التى كانت تعنى طعام المسافر فأصبحت الآن مرادفة للخوان . ومثل «شنب» التى كانت تعنى بريق الأسنان ، فأصبحت الآن مرادفة للشارب . ومثل « باخ » التى كانت تستعمل فى مثل « باخ الرجل » أى سكن غضبه و « باخت النار » أى سكنت ، فأصبحت تقال حين يشعر الإنسان بالخجل والخزى ... الخ .

إلى غير ذلك من الكلمات التى لا تكاد تقع تحت حصر .

تلك هى أمثلة قليلة أردنا أن نسوقها لنحفز الهمم إلى الكشف عما قد يكون فى لهجات الكلام من طرائف ، لا شك أنها ستلقى ضوءاً على دراسة اللهجات

القديمة وتجعل حكمنا عليها أقرب إلى اليقين .

كلمة ختامية :

كلما زادت دراستنا للهجات العربية الحديثة تكشفت لنا أمور ، وأيقنا أن لهجات الكلام فى الأمم العربية لا تزال تحتفظ بعناصر قديمة كانت شائعة فى لهجات العرب قبل الإسلام . فاللهجات الحديثة وإن كانت قد تطورت فى البيئات العربية المختلفة تطوراً مستقلا باعد بينها ، وصبغها بصبغة محلية فى بعض ظواهرها ، قد استمسكت بكثير من السمات التى عرفت عن القبائل القديمة .

فالصفة الكلامية التى نراها الآن مشتركة بين جميع البيئات العربية الحديثة ، أو حتى بين معظمها ، لا يمكن إلا أن تنتمى إلى لهجة قديمة أو مجموعة من اللهجات . انظر مثلا إلى اسم الإشارة للجمع تراه قد اتخذ صورة تكاد تكون واحدة فى جميع اللهجات الحديثة ، وهذه الصورة لا تمت إلى اسم الإشارة المألوف فى اللغة النموذجية أى « هؤلاء أو أولئك » .

فإذا قارنا بين اسم الإشارة « هؤلاء » وهو الشائع فى الأساليب الأدبية ، وبين الوضع الذى صار عليه اسم الإشارة فى لهجات الكلام الحديثة ، لا نكاد ندرك الصلة بين الوضعين . فكل منهما مستقل عن الآخر ، وليس أحدهما تطوراً للآخر ، بل يبدو أنهما صيغتان مستقلتان عاشتا جنباً إلى جنب فى عصور ما قبل الإسلام ، وقد شاعت إحداهما فى المجال الجدىّ من القول ، وشاعت الأخرى فى لهجات الخطاب .

والغريب أن أصحاب المعاجم على كثرة ما ذكروه عن اللهجات لم يشيروا إلى هذه الصيغة التى نسمعها الآن على كل لسان ، وكذلك النحاة لم يعرضوا لها فى المطولات من كتبهم ، فلم يقل أحدهم مثلا إن لاسم الإشارة الجمع صيغة أخرى أو صورة أخرى غير التى نألفها ونعهدها .

ومع هذا لا نشك لحظة فى أن اسم الإشارة الجمع الشائع الآن فى اللهجات الحديثة ، قد انحدر إليها من مصدر قديم . فليس الاشتراك فيه بين الأمم العربية وليد المصادفة ، بل الأرجح أنها جميعاً قد استمدته من اللهجات القديمة التى نزحت إليها .

وإذا تذكرنا أن حرف « الذال » القديم قد تطور فى بعض اللهجات الحديثة إلى نظيره الشديد وهو « الدال » ، وأن الضم يناظر الكسر فى اللهجات القديمة ، استطعنا بسهولة أن نتبين العلاقة بين الصور التى صار عليها اسم الإشارة الجمع فى لهجات الخطاب الآن :

ففى شرق الأردن « هاذول » ، وفى العراق « ذول ، ذولا » ، وفى بلاد الشام « هادول » ، وفى مصر « دول ، دولا » ، وفى بلاد المغرب « هاذول » ، وفى السودان « دَيل » ، وفى نجد « ذولا » ، وفى صنعاء « هاذَوْل » ! !

ويبدأ اسم الإشارة بالمقطع « ها » حين يتقدم على المشار إليه ، كما فى لهجات الشام و بلاد المغرب و بعض جهات اليمن .

ويظهر من هذا العرض السريع أن الأصل فى اسم الإشارة الجمع هو الصيغة التى نسمعها الآن فى بعض جهات اليمن أى « هاذَوْل » ، وقد انحرف هذا الأصل انحرافاً طفيفاً فى لهجات الكلام الأخرى .

فمن أين أتت لهجات الكلام بهذه الصيغة التى لم تشر إليها المعاجم ولا كتب النحاة ، وكيف اشتركت بينها جميعاً رغم اختلاف البيئة ، واختلاف الظروف الاجتماعية . ؟

إن الباحث المنصف لا يتردد فى جعل هذه الصيغة إحدى الظواهر التي كانت شائعة فى لهجات القدماء ، وأنها انحدرت إلى اللهجات الحديثة من اللهجات القديمة .

كان للعرب القدماء إذن كلمتان إحداهما « هؤلاء » ، والأخرى « هاذول » ،

وكانوا يقصرون استعمال الأولى على الأساليب الأدبيــة ، ويتخذون الأخرى لمهجات الخطاب .

وأسماء الإشارة كما ذكرنا آنفاً من العناصر العصيّة على التطور والتغيّر ، ولذلك بقيت الصورة القديمة التى كانت شائعة فى لهجات الخطاب ، شائعة أيضاً فى لهجات الكلام الآن بالأمم العربية .

ويبدو من هذا المثال ونحوه من عناصر مشتركة بين لهجات الكلام الآن ، صحة ما رجحناه من قبل وما ندعو إليه دائماً من أنه كان للعرب القدماء لغتان مستقلتان يصطنعون إحداهما فى الأساليب الأدبيــة ، ويصطنعون الأخرى فى الحديث العادى ، وإلاّ فكيف نتصور أن اسم الموصول يتخذ الآن فى كل الأمم العربية صورة واحدة هى « اللى » ، بدلا مما نألفه فى اللغة النموذجية الأدبية من كلمات متعددة مثل :

الذى ، التى ، الذين ، اللاتى ، اللائى .

بل حتى ما نظنه أحياناً من التطورات الحديثة ، نراه بعد البحث مشتركا بين كثير من لهجات الخطاب الآن ، ونستطيع بعد التأمل أن ننسبه إلى أصل قديم كان شائعاً فى بعض لهجات العرب القدماء مثل :

١ — التعبير عن الزمن الحالى أو عن العادة بفعل مضارع متصل بالباء فى غالب الأحيان ، أو بالدال أو القاف أو العين فى أحيان أخرى . والأصل فى كل من الأمرين لا يعدو أن كلمة مساعدة كان العرب يصلونها بالفعل المضارع حين يريدون التعبير عن الزمن الحالى أو العادة ، وكان هذا شائعاً فى لهجات كلامهم وفى حديث خطابهم . وانحدرت هذه الظاهرة إلى لهجات كلامنا الآن فأصبح :

المصرى ، وأهل الشام ، وشرق الأردن ، والسودانى ، وأهل مكة ، وبعض جهات اليمن ، يقولون مثلا ، بيلعب ، بيغنّى ... ألخ

ولسنا نشك فى أن هذه « الباء » هى كل ما تبقى من الكلمة المساعدة ، التى كان العربى القديم فى لهجة خطابه يصلها بالمضارع للتعبير عن الزمن الحالى أو

عن العادة . ويفترض بعض المحدثين لهذا اللفظ المساعد عدة فروض منها :

باقى ، ذاهب ، بدّى .. ألخ

وتتخذ لهجات العراق الحرف الذى يتصل بالفعل المضارع من كلمة أخرى هى فى الغالب « قاعد » ، وقد اختصرت هذه الكلمة فى لهجة بغداد ولم يبق منها إلا الدال ، فهم يقولون : دا يلعب ، دا يغنّى .

وقيل لنا إنّ اليهود بصفة خاصة قد سلكوا مع هذه الكلمة نفسها مسلكا آخر فأبقوا منها على القاف ، فيقولون : قايلعب ، قايغنّى .

٢ — والنفى مع الشين فى نحو « ما تخفش ، وما جاش » ، نراه فى مصر وفى بلاد الشام وفى بلاد اليمن وفى شرق الأردن ، وجهات أخرى من الأمم العربية الحديثة ، مما يرجح أنه ظاهرة قديمة كانت مألوفة فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وأنها انحدرت إلى لهجات كلامنا من تلك القبائل القديمة .

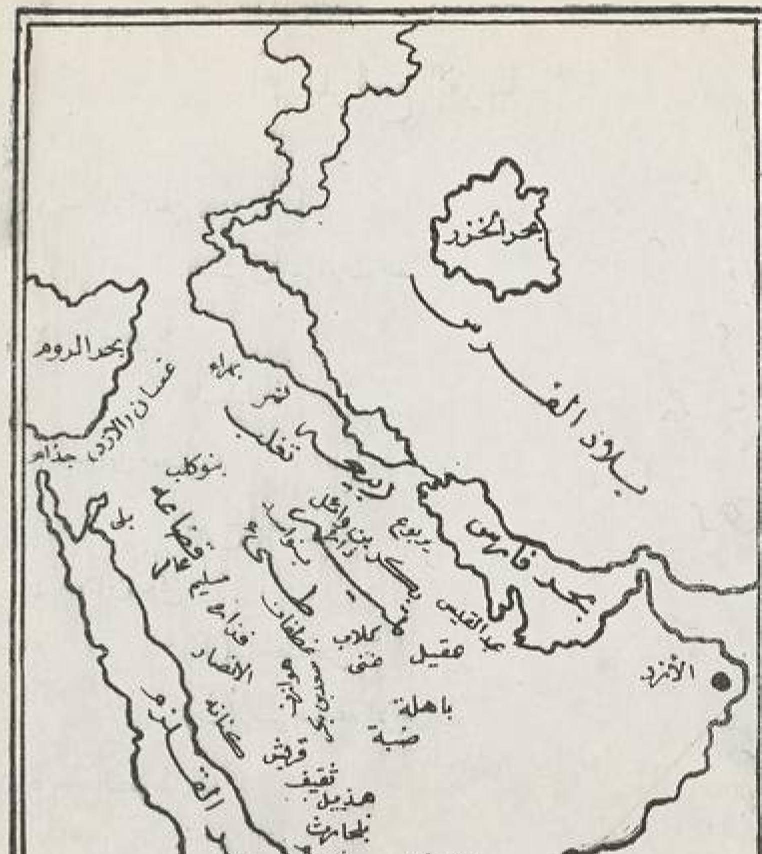
٣ — وأخيراً وليس آخراً ، كيف تسنى أن يكون موقف اللهجات الحديثة جميعها متحداً فى سلوكها مع المثنى والجمع المذكر السالم والأسماء الخمسة ؟!

فليس فى هذه اللهجات من مظاهر المثنى إلا الاسم المثنى مثل : « كتابين ورجلين » ، وفيها جميعاً يلتزم الجمع المذكر الصحيح حالة واحدة هى بالياء دائماً مثل : « مسلمين ومظلومين » ، وتلتزم الأسماء الخمسة حالة واحدة هى بالواو مثل : « أبوك وأخوك » .

أليس من الممكن أن يقوم مثل هذا دليلا على أن القبائل القديمة كانت تسلك هذا المسلك أيضاً فى لهجات خطابها ؟

ولنا من كلام النحاة ما يؤيد هذا الرأى ، فقد أشاروا فى كتبهم إلى أن من العرب من كانوا يلتزمون حالة واحدة لكل من الجمع والأسماء الخمسة .

لسنا بعد كل هذا نتجنى على اللغة حين ندعو إلى الفصل بين ظواهر اللهجات وظواهر اللغة النموذجية الأدبية ، وإلى اعتبار ما اشترك فى لهجات الكلام الآن مما ينتمى إلى ظواهر قديمة شاعت فى لهجات الحديث عند العرب القدماء .



جزيرة العرب
لبيان مواقع القبائل التي
اشتهرت لهجاتها

أهم المراجع العربية

١ — ابن الجزرى :

النشر فى القراءات العشر .

٢ — سيبويه :

الكتاب .

٣ — ابن يعيش :

شرح المفصل .

٤ — ابن جنى :

(ا) الخصائص .

(ب) سر صناعة الإعراب .

٥ — السيوطى :

(ا) المزهر .

(ب) الإتقان فى علوم القرآن .

٦ — ابن فارس :

الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها .

٧ — اليازجى :

نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد .

٨ — ابن خلدون :

المقدمة والتاريخ .

٩ — القلقشندى :

صبح الأعشى « الجزء الأول » .

١٠ — ابن سيده :

المخصص .

١١ — ابن منظور :

لسان العرب .

١٢ — ابن الأنبارى :

كتاب الأضداد .

١٣ — مجلة مجمع اللغة العربية الملكى « الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ » .

١٤ — جورج زيدان .

تاريخ آداب اللغة العربية .

١٥ — حفنى ناصف :

مميزات لغات العرب .

١٦ — الدسوقى :

تهذيب الألفاظ العامية .

١٧ — الدكتور احمد عيسى :

المحكم فى أصول الكلمات العامية .

١٨ — محمد فخر الدين :

مجموعة من الخرط التاريخية لبلاد العرب .

١٩ — الدكتور أحمد أمين :

ضحى الإسلام .

٢٠ — الدكتور على عبد الواحد وافى :

(ا) علم اللغة .

(ب) فقه اللغة .

٢١ — عبد الوهاب حمودة :

القراءات واللهجات .

٢٢ — يوهان فك : (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ،

العربية (دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب) .

٢٣ — ابن حزم الأندلسى :

جمهرة أنساب العرب .

٢٤ — برجستراسر :

التطور النحوى .

٢٥ — ابن دريد :

الاشتقاق .

٢٦ — ابن فارس :

مقاييس اللغة .

٢٧ — القرطبى :

الجامع لأحكام القرآن .

٢٨ — الجاحظ :

البيان والتبيين .

٢٩ — الباقلانى :

إعجاز القرآن .

٣٠ — المبرد :

الكامل .

٣١ — القالى :

الأمالى .

٣٢ — ابن عبد ربه :

العقد الفريد .

٣٣ — ابن هشام :

مغنى اللبيب .

٣٤ — الحريرى :

درة الغواص فى أوهام الخواص .

٣٥ — الرافعى :

تاريخ آداب العرب .

٣٦ — أبو حيان :

البحر المحيط (تفسير) .

٣٧ — الزمخشرى :

الكشاف (تفسير) .

٣٨ — صحيح البخارى ، صحيح مسلم .

٣٩ — ابن حجر العسقلانى :

الإصابة فى تمييز الصحابة .

٤٠ — أبو عمرو الدانى :

التيسير .

٤١ — ابن السكيت ، الأصمعى ، السجستانى :

ثلاثة كتب فى الأضداد (نشرها أوغست هوفنر) .

٤٢ — أبو البركات الأنبارى :

الإنصاف فى مسائل الخلاف .

٤٣ — شهاب الدين الخفاجى :

شفاء الغليل .

أهم المراجع الأفرنجية

(1) G. Noel - Armfield :

General Phonetics.

(2) Leonard Bloomfield :

The study of Language.

(3) Otto Jespersen :

a) Language (Its nature, development & origin).

b) The Philosophy of Grammar.

(4) Henry Sweet :

a) A Primer of spoken English.

b) History of English Sounds.

(5) Ida C. Ward :

The Phonetics of English.

(6) D' Jones :

Outline of English Phonetics.

(7) Mallon.

Grammaire Copte.

(8) Harold. E. Palmer :

A Grammar of spoken English.

(9) Landberg, Comte de :

La langue Arabe et ses dialectes.

(10) Brockelmann :

Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen sprachen.

(11) Dillmann, A :

Ethiopic Grammar.

(12) Driver, G. R. :

Grammar of the Colloquial Arabic of Syria and Palestine.

(13) Gesenius :
Hebrew Grammar.

(14) Lewis, M. M. :
Infant Speesh.

(13) Mario Pei :
The story of Language.

(16) Cooke, G. A. :
North - Semitic Inscriptions.

(17) Rabin, C. :
Ancient West - Arabian.

(18) Margaret Schlauch :
The Gift of Tongues.

(19) Wright :
Grammar of the Arabic Language.

الفهرس

٢ — أخطاء الأجيال الناشئة : قلب صوت إلى آخر نظير له ، أو تغيير فى ترتيب الأصوات ، أو قياس خاطئ .

٣ — تطور المعانى فى لهجة القاهرة .

(ب) كلمة ختامية :

العناصر المشتركة بين اللهجات الحديثة تنتمى إلى لهجات عربية قديمة .

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الصواب
١٤	١٨	المِجْرِس .
٢٩	٤	سهل عليه .
٣٠	١١	فى بعض الأحيان ، ما جعل .
٦٣	١٦	لمجاورتها لصوت مجهور .
٧٧	٢٣	بين لداته من الأطفال .
٨١	٢٢	(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٣٨ .
٨٤	٥	يقال لنا إن .
٩٦	١٧	لأن كل أصوات العبارة الثانية .
١٠٠	١٠	« السّودَد » الشرف .
١٠٧	١٦	فما كان يعدُّ .
١١١	١	نعهدها .
	٢	تشويه .
١١٢	٢	كسرة أو فتحة .
١١٥	٢٠	الإطباق .
١٣٢	١٦	وأعنقوا لهواهمو .
١٣٣	١٣	فى العصر الحاضر ، ونحاول .
١٣٦	١٢	مثل « رشأ » .
١٣٨	١٤	بين أمرين .
١٤٢	١٢	ممن اشتهروا بالعجمجة .
١٤٨	٤	إطالة الحركة قبلها .
١٥٥	١٨	جيلين مختلفين .

قائمة مطبوعات اللجنة

			ص
١	— يسألونك	: الأستاذ عباس محمود العقاد ...	٢٥
٢	— أثر الشرق فى الغرب ...	: الدكتور فؤاد حسانين	١٥
٣	— قصة الكهرباء واللاسلكى	: الأستاذ محمد عاطف البرقوقى ...	٢٥
٤	— مشكلاتنا الإجتماعية	: « محمد عطيه الإبراشى ...	٢٠
٥	— الحبشة	: « حسن محمد جوهر ...	٢٠
٦	— الغزل عند العرب	: « حسان أبو رحاب ...	٢٥
٧	— عائشة أم المؤمنين	: الآنسة زاهية مصطفى قدورة ...	٢٥
٨	— الفلسفة القرآنية	: الأستاذ عباس محمود العقاد ...	٣٠
٩	— أحاديث الصباح	: الشيخان محمود شلتوت ومحمد المدنى	١٥
١٠	— أبطال الشرق	: الأستاذ محمد عطية الإبراشى ...	١٥
١١	— أبو العتاهية	: « محمد أحمد برانق	١٥
١٢	— الراهبة المتوحشة	: دكتور عباس إبراهيم حسن ...	١٠
١٣	— المهد الذهبي	: الأستاذ وهبي اسماعيل حقى ...	١٠
١٤	— صرخة فى واد...	: الأستاذ محمود غنيم	٣٠
١٥	— الصحافة والصحف ...	: المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٢٥
١٦	— ولّاده	: الأستاذ على عبد العظيم	١٥
١٧	— اللعب والعمل	: دكتور على عبد الواحد وافى ...	٨
١٨	— من كل نبع قطرة	: الأستاذ حسن محمد جوهر ...	٦
١٩	— عبد الله بن قيس الراقيات	: الأستاذ على النجدى ناصف ...	١٥
٢٠	— الاستعمار الفرنسى	: الأستاذ أحمد رمزى	١٥
٢١	— الوزراء العباسيون	: « محمد أحمد برانق ...	٢٠
٢٢	— سحر العطور	: « أحمد على الشحات ...	١٢

			ص
٢٣	أكسير الحياة	الدكتور محمود محمد سلامة	٢٠
٢٤	دراسات فى علم النفس الأدبى	الأستاذ حامد عبد القادر	٣٠
٢٥	التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض	الأستاذ محمد رفعت أحمد	٥٠
٢٦	مسلم بن الوليد	الأستاذ حسن علوان	٢٥
٢٧	الإسلام والديمقراطية	الأستاذ محمد على علوبة	٥
٢٨	فقه اللغة	دكتور على عبد الواحد وافى	٥٠
٢٩	علم اللغة	دكتور على عبد الواحد وافى	٥٠
٣٠	كيمياء المعادن	دكتور محمود يوسف الشواربى	١٠٠
٣١	طب الطبيعة	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى	٣٠
٣٢	أحلام اليقظة	تأليف دكتور ج . هـ . جرين ترجمة إبراهيم حافظ ومراجعة الأستاذ زكى المهندس	٣٠
٣٣	رفاعة الطهطاوى	الأستاذ أحمد أحمد بدوى	٥٠
٣٤	المراهقة	دكتور جورج . هـ . جرين	١٥
٣٥	فلسفة أبى العلاء المعرى	الأستاذ حامد عبد القادر	٣٠
٣٦	ألحان الغروب	« طاهر الطناحى	٣٠
٣٧	أساس العدالة فى القانون الرومانى	دكتور على حافظ	٢٥
٣٨	غرام يزيد	الأستاذ محمود غنيم	١٥

[تم طبع كتـاب « فى اللهجات العربية » فى مطبعة
لجنة البيان العربى فى يوم الأحد ١٧ من ذى الحجة ١٣٧١
(الموافق ٧ من سبتمبر ١٩٥٢) . والحمد لله أولا وآخرا]

سيد محفوظ كامل
المدير الفنى للمطبعة